مذكرات

أميرة عربيّة

بقلم

السيدة سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان

سلطان مسقط وزنجبار

ترجمة

عبد المجيد حسيب القيسي

الطبعة التاسعة

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



المؤلفة، السيدة سالمة بنت السيد سعيد او الاميرة اميلي روث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم : عبد المجيد القيسي

« ١ »

أميرة شرقية عربية وابنة سلطان عربي كبير تخرج قبل أكثر من مائة عام على تقاليد قومها فتتزوج شابا المانيا وتهجر من أجله وطنها وملك أبيها وتترك حياة العز والقصور لتطوح بها الأقدار في ديار الغربة بين لندن وبرلين، وتستبدل حياة الاختلاط والسفور في أوربا بحياة الحريم والحجاب في الشرق وباسمها العربي السيدة سالمة بنت سعيد اسما أعجمياً هو البرنسيس أميلي روث، ثم تضيق بها الحياة بعد عشرين عاما، أو تضيق هي ذرعا بالحياة الاوروبية فتحن إلى الرجوع إلى وطنها الأول، ولكن أبواب العودة تغلق في وجهها فتعكف تكتب باللغة الالمانية قصة حياتها وتجاربها وتستعيد ذكريات بلادها وبني قومها.

هذه القصة الغريبة النادرة التي تكاد أن تشبه قصص الخيال والتي ندر من سمع بها في الشرق رغم شيوعها في الغرب هي موضوع هذا الكتاب الذي نقدم إلى قراء العربية ترجمته اليوم. والأميرة هي السيدة[1] سالمة ابنة السيد

(١) السيدة هنا لا تعني المرأة المتزوجة كما جرى العرف الحديث على ذلك، وانما هي مؤنث السيد، وكان ابناء الامام احمد يطلقون على انفسهم لقب السيد وعلى بناتهم لقب السيدة.

سعيد بن سلطان، سلطان عمان وزنجبار (١٨٠٤ – ١٨٥٦) وحفيد الامام أحمد بن سعيد مؤسس السلالة الحاكمة في عمان .

وقد حدت بنا إلى ترجمة هذا الكتاب ونشره أسباب عدة تدور في معظمها حول طابع « الندرة » الذي يسم هذا الكتاب ومؤلفته وموضوعه . وحول غرابة الظروف التي أملت على مؤلفته كتابته .

فعدا عن ندرة من سمع بهذه القصة بين القراء العرب وندرة من قرأها بين العالمين بها، فالكتاب بحد ذاته وبجميع طبعاته في اللغات الثلاثة التي صدر بها، نادر الوجود مفقود الأثر، بعد أن مضى على نشره أول مرة زهاء قرن من الزمان. وقد كنا نقع على مقتطفات منه واستشهادات به واشارات اليه وإلى مؤلفته في كثير مما يقع تحت يدينا من الكتب الغربية الباحثة في تاريخ عمان وزنجبار عامة وعن تاريخ عائلة البوسعيد حكام تلك البلاد منذ نيف ومئتين عام خاصة . ولكننا لم نستطع العثور له على أثر في غير دور الكتب الكبرى، وعبثا ذهبت جهودنا في التفتيش عنه في أسواق الشرق والغرب ، حتى اذا ما فقدنا أمل الحصول عليه ، عثرنا في صدفة طيبة على نسخة منه عند أحد باعة الكتب المتجولين في شوارع بيروت ممن لا يدركون قيمته وندرته فابتعناه منه بثمن بخس دراهم معدودات [1] .

ومن عوامل الندرة في الموضوع كتابة السيرة بحد ذاتها . ذلك ان كتابة السير الذاتية والمذكرات الشخصية فن أدبي رائع عرفه الغربيون على اختلاف أممهم وفي كل عصورهم وبرعوا فيه حتى زخرت به أدابهم وأصبح تراثاً فكريا بارز المعالم شاهق البنيان . وكما كان هذا التراث رافدا غزيرا أخصب أداب تلك الأمم بآثار أدبية رائعة فقد كان أيضاً منهلا ثرا أغنى الدراسات التاريخية والاجتماعية بأوفر المعلومات وأدقها مما أعان دارسي تاريخ تلكم الأمم وأحوالها على جلاء جوانب غامضة هامة ما كان ليتيسر لهم الكشف عنها في غياب هذا التراث الضخم .

---

(١) كانت هذه نسخة من الترجمة المطبوعة في نيويورك عام ١٩٠٥ .

لكن الأقلام العربية الأصيلة على وفرة انتاجها وروعة آثارها وشمولها للكثير من المعارف والفنون، لم تعنَ بهذا الفن الأصيل ولم تعرف قبل القرن العشرين كتابة السير الذاتية والمذكرات فنا مستقلا قائماً بنفسه وانما عرفه بعضها شذرات متناثرة أو نتفا عابرة في بطون الكتب وطياتها بحيث لا يتيسر الوصول إلى مظانها الا لأهل الخبرة والدراية، لا نستثني من ذلك – على ما نعرف – الا قلة نادرة تعد على أصابع اليد الواحدة خلفت في هذا الفن آثارا قيمة شامخة تستوفي جميع خصائص كتب المذكرات التي برع بها الغربيون وتضاهيها اصالة فكر ونفاسة مادة وجودة عرض وروعة اسلوب ولكنها – مع الأسف – تكاد لقلة عددها ان تضيع في خضم التراث العالمي الكبير (١) .

واذا كان أدب التراجم في لغة الضاد على هذا الحال من الندرة في أدب الرجال على وفرته، فهو في أدب النساء – وهو في حد ذاته نزر قليل – بحكم المعدوم أصلا . وعلى هذا فاكتشاف أي أثر عربي من هذا القبيل يعتبر ، ولا شك، اضافة قيمة إلى تراثنا النزر في هذا الميدان ، خاصة اذا كان هذا الأثر قد كتبته أميرة عربية من نساء الشرق في القرن التاسع عشر عاشت في بيت أبيها السلطان في أقصى بقعة حكمها العرب وهي زنجبار فجربت حياة النعمة والجاه وخبرت مراسم

(١) اروع هذه المذكرات واحراها بالذكر هي :

أ – سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة : تأليف داعي الدعاة الفاطميين المؤيد في الدين الشيرازي المتوفي سنة ٤٧٠ هـ – ١٠٧٧ م. حقق الكتاب ونشره الدكتور محمد كامل حسين – دار الكاتب المصري – القاهرة ١٩٤٩ .

ب – كتاب تبيان الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، لمؤلفه الأمير عبد الله بن زيري الصنهاجي من ملوك دول الطوائف في الاندلس وقد حقق الكتاب المستشرق برد فنسال ونشرته دار المعارف في القاهرة تحت اسم مذكرات الامير عبد الله .

جـ – كتاب الاعتبار تأليف الامير اسامة بن منقذ وقد حقق الكتاب وقدم له بمقدمة بليغة ضافية الدكتور فيليب حتي ونشرته جامعة برنستون وأعادت مكتبة المثنى ببغداد طباعته ونشره .

د – تاريخ حياة ابن خلدون بقلمه والمسمى « التعريف بابن خلدون » وقد حققه ونشره الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي وظهرت له في مطابع القاهرة وبيروت عدة طبعات .

القصر السلطاني وآدابه كما خبرت حياة الحريم وكيد النساء ودسائس الرجال فجاءت تروي طرفا من كل ذلك في مذكراتها هذه !

ومن هنا تكتسب هذه المذكرات أهمية خاصة وقيمة نادرة في الكشف عن جوانب هامة من الحياة السياسية والاجتماعية في زنجبار في تلك الحقبة من الزمان، فالمؤلفة، وهي ابنة القصر السلطاني والعالمة بدخائله وخفاياه، تتبسط في الحديث عن نظم القصر السلطاني في زنجبار ومراسمه وتقاليده وأسلوب العيش فيه فتقدم عن الحياة الداخلية فيه صورا فريدة نادرة فيها المتعة والطرافة وفيها الفائدة الجلى للراغبين في دراسة هذه المواضيع .

والمؤلفة في هذه النقطة بالذات أول امرأة، بله أميرة، عربية كتبت في هذا الموضوع عن مشاهدة وعلم واطلاع ، ولا نعرف لها نظيراً في هذا الباب الا الشريفة مصباح حيدر التي كتبت مذكراتها عن الحياة في بيوت شرفاء مكة في استانبول ومكة المكرمة في مطلع هذا القرن(١) . وليس مما ينقص من شأن كتابي هاتين الأميرتين الا يكونا عربيّ اللسان طالما كانا عربي المصدر والروح والسمات.

على ان مذكرات اميرتنا الزنجبارية لا تقتصر على وصف حياة القصر فحسب بل تتعداه إلى وصف مظاهر متعددة للحياة والتقاليد الاجتماعية السائدة في زنجبار آنذاك ، مما يعتبر ثروة قيمة لدارسي علم الاجتماع وعلم الاجناس . كما وتزخر مذكراتها بعد هذا بالاشارات الكثيرة إلى بعض الاحداث التاريخية وقصص المؤامرات وأساليب الحكم والادارة ، كما تزخر بالصور الوصفية للسلطان السيد سعيد وخلفائه من بعده وبعض حريمه وابنائه ووزرائه وبهذا تلقي المؤلفة أضواء جديدة على شخصيات هؤلاء الحكام وخلفيات حياتهم، وبطبيعة الحال فهي في كل هذا تعرض من الصورة الجانب الذي تراه أو تفهمه أو يوافق هواها وقد يجانبها الحق والصواب بعض الأحيان، لكن اراءها وأفكارها تبقى رغم هذا علائم مهمة لدراسة تاريخ تلك البلاد .

(١) HRH. Princess Musbah Haider : ARABESQUE — LONDON. 1945.

ومما يزيد في أهمية ما تضمنته هذه المذكرات من أخبار وآراء انها تتعلق ببلد عربي قل منا من يعرف من أخباره شيئاً وقل من يعرف أن هذا البلد ظل عربياً حتى عام ١٩٦٤ حيث فقدناه في مأساة دامية اضيفت إلى مآسي العروبة في الأندلس والاسكندرونة وفلسطين، بل وأكثر من هذا فان علمنا بتاريخ عمان، التي كانت زنجبار جزء منها ثم انفصلت عنها، ظل سطحيا عديم الجدوى حتى الأعوام الأخيرة حيث خرجت عمان من عزلتها وعاد اتصالها القديم بالعالم.

ولهذا فلعلنا لا نخرج عن مقتضى الحال - كما يقول البلاغيون - اذا ما استطردنا إلى الالمام السريع بتاريخ العرب في عمان والجزر الافريقية ثم تاريخ البو سعيد في مسقط وزنجبار.

وليس من اليسير ان تلم عجالة كهذه بتاريخ القوم والبلاد وهو تاريخ طويل الأمد حافل بالأحداث الجسام زاخر بالبطولات والمآسي وبالاشراق والكسوف، ولهذا سنحاول ان نتوقف على الاحداث البارزة واسبابها في هذا التاريخ مما له علاقة بخلفيات هذا الكتاب [1].

«٢»

كان الأزد القحطانيون النازحون من اليمن أول من سكن بلاد عمان ثم شاركهم سكناها اخوة لهم من عرب الشمال العدنانيين، وظلت هاتان الفئتان تعرفان على مر القرون بأسماء عدة منها القحطانية والعدنانية أو الأزد والتزارية أو الهنائية والغافرية.

وقد اعتنق أهل عمان الاسلام فيمن اعتنقه من العرب وشاركوا اخوانهم المسلمين في البلاء الحسن في الفتوحات الاسلامية في العراق والشام ثم دفعت بهم ذيول «الفتنة الكبرى» التي عمت المسلمين بعد مقتل الخليفة الراشدي الثالث

---

(١) اعتمدنا في هذه الالمامة التاريخية الموجزة على مقدمتنا لمخطوط سينشر قريباً من تاريخ زنجبار بعنوان «جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار».

عثمان بن عفان رضي الله عنه، إلى الانكفاء إلى بلادهم والعيش فيها في عزلة تامة عن اخوانهم العرب وفي حذر وريب منهم .

وقد اعتنق جل أهل البلاد المذهب الأباضي ، وعكفوا على دراسته ورعايته فازدهر بينهم فقهه وتبلور إلى نظرية متكاملة في أمور الدين والدنيا ، وكانت نظريته السياسية في الحكم تقتضي بوجوب وجود امام في البلاد تنتخبه الجماعة ليهديها في أمور دينها ويتولى حمايتها والدفاع عن البلاد ضد كل فاتح أو معتد[1] .

وبعد حروب بين أهل عمان وبين جيوش الخلافتين الأموية والعباسية تحقق لهم استقلالهم وانتخبوا أول امام لهم وهو الجلندى بن مسعود في حوالي النصف الأول من القرن الهجري الثاني وتتابعت بعده اعداد من الأئمة الأفاضل يحكمون البلاد بالتقوى والورع ويذودون عنها بالسيوف والأرواح عدا فترات متقطعة من « الشغور » حتمتها ظروف خاصة في البلاد كالاحتلال الأجنبي للبلاد أو قيام « الجبابرة »[2] بالانفراد بالحكم فيها .

• • •

وظلت الأمور تسير على هذه الحال حتى ظهور البرتغاليين في البحار الشرقية ثم ما كان من احتلالهم لجزر افريقيا الشرقية ومتابعتهم من بعدها سيرهم الباغي إلى المياه العربية فاحتلوا هرمز في الخليج العربي وانتقلوا منها إلى احتلال عمان وبعض المدن الساحلية الأخرى، وكان الاستعمار البرتغالي عاتيا باغيا مدمرا، لقي منه أهل البلاد شر أنواع العذاب والبلاء مدة قرن ونصف القرن . ولكن الله قيض للبلاد بطلا منقذا في شخص الامام ناصر بن مرشد اليعربي الذي تولى الامامة عام ١٠٣٤ هـ (١٦٢٤ م) ، فوحد الكلمة والجهود وبدأ جهادا مقدسا ضد

---

(١) للوقوف على شرح واف عن الأباضية انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة الأباضية « بقلم لويسكي » .

وانظر كذلك الأباضية في موكب التاريخ (٣ أجزاء) تأليف علي يحي معمر – القاهرة .

(٢) الشغور في اصطلاح الفقه الأباضي الفترة التي لا أمام للجماعة فيها والجبابرة هم الملوك الذين يحكمون البلاد دون امام .

البرتغال الغزاة حتى حرر سواحل عمان من آثارهم وحاصرهم في قلعتيهم في مسقط . ولكن المنية عاجلته وهو ابن ست واربعين عاما فمات عام ١٠٥٩ هـ (١٦٤٨) قبل أن تكتحل عيناه برؤية النصر الأخير . فبويع بالامامة بعده ابن عمه سلطان بن سيف اليعربي فأتم الجهاد وحرر مسقط واجلى آخر جندي برتغالي من أرض العرب عام ١٦٥١ (١) .

الا أن الأمر لم يستقم لهؤلاء الائمة في عمان فقد ولى الامامة بعد المؤسسين العظام عدد من الائمة الضعاف (٢) الذين انغمروا في منازعات عائلية وفتن محلية انهكت البلاد واستنزفت دماء أبنائها، حتى بلغ الأمر بأحد الأئمة المتأخرين إلى أن يستعين بجيوش الفرس لاحتلال بلاده وان يعترف لهم بالسيادة عليها من اجل نصرته على المنافسين له على الامامة من اخوته وبني عمومته .

وقد اجابت جيوش الملك الفارسي المغامر نادر خان نداءه فاحتلت اجزاء كثيرة من أرض عمان وعاثت فيها بغيا وجورا وحاربت أهلها وأساءت معاملتهم فانتشرت الفتن والحروب وعمت الفوضى انحاء البلاد .

وكان الفرس قد ضربوا حصارا طال أمده حول مدينة صحار وكان واليها آنذاك هو أحمد بن سعيد الالبوسعيدي، وكان رجلا من عامة ابناء الشعب اشتهر هو وأهله بالتجارة ولكنه كان رجلا شجاعا قوي الجنان عالي الهمة .

وقد برزت مواهبه في القيادة والتنظيم وفي الجرأة والاقدام في حسن الدفاع عن المدينة حتى رفع عنها الحصار وازاح عن أسوارها الاعداء . ودفعه نجاحه والتفاف الناس حوله إلى المضي في حرب الفرس فاستطاع أن يوحد الكلمة ويجمع القلوب حوله وأن يوحد بالتالي جميع البلاد تحت قيادته ومن ثم ان يفني الجيش الفارسي ويحرر أرض عمان منه .

• • •

---

(١) تختلف الروايات اختلافاً بينا في تعيين التاريخ الحقيقي لخروج البرتغاليين من مسقط ، فمنها من تنزل به إلى سنة ١٦٤٥ ومنها من ترتفع به إلى سنة ١٦٥٨ .

(٢) كان الائمة اليعاربة أول من نقل الامامة إلى نوع من النظام الوراثي العائلي .

واعترافا بفضله في تحرير البلاد وتوحيدها وانقاذها من الفرس ومن الفوضى والصراع فقد نودي به اماما للجماعة (١) وبذلك استطاع أن يؤسس الملك في عائلته وكان رأس السلالة الحاكة التي ما زالت تتبوأ عرش عمان حتى هذا اليوم والتي ظلت تحكم زنجبار حتى عام ١٩٦٤ .

ولما توفي الامام احمد في عاصمته الرستاق عام ١١٩٨ هـ — ١٧٨٣ م خلف بعده أولادا سبعة وثلاث بنات، فاما الأولاد فهم هلال وسعيد وقيس وسيف وسلطان وطالب ومحمد. وكان لكل من هؤلاء الأولاد وأولادهم واحفادهم من بعدهم أدوار مهمة في تاريخ البلاد الداخلي، اما البنات فلم يحفظ لنا التاريخ الا اسم واحدة منهن فقط هي السيدة موزة التي فرضت بقوة شخصيتها وصلابة عزمها وارادتها اسمها على التاريخ كما سيأتي ذكر ذلك في محله (٢) .

وكان هلال الابن الاكبر للامام قد فقد بصره في آخريات ايام أبيه فانصرف الحكم بعد وفاة الامام احمد إلى ابنه الثاني سعيد الذي ورث أيضاً لقب الامام، ولم يكن لسعيد شيء من صفات القيادة والادارة، أو من الطموح وعلو الهمة فاستطاع ابنه حمد بالدهاء والحزم أن يسلب الملك من أبيه ويستأثر به ويصبح الحاكم الفعلي للبلاد ويتخذ مسقط مركزا له في حين ظل ابوه قابعاً في الرستاق لا يملك من السلطة الا لقب الامامة الذي ورثه عن أبيه ولم يبايعه أو يعترف له به أحد . بل ولم يحرص هو على تأكيدها لنفسه أو على الحفاظ على أبسط مظاهرها .

---

(١) تختلف الروايات في تواريخ أحداث الامام أحمد . فيرجع بعضهم تاريخ توليه السلطة إلى عام ١٧٤١ وتاريخ الامامة إلى سنة ١٧٤٥ ، ويرتفع البعض بتاريخ الامامة إلى ١٧٥٢ . وكذلك يختلف الرواة في تاريخ وفاته مع أن لا موجب للخلاف في هذا الموضوع فتاريخ وفاته ثابت على شاهد قبره في الرستاق وهو ١٩ محرم ١١٩٨ وهو يوافق ١٥ ك ١ /١٧٨٣.

(٢) اجمع المؤرخون على اسمها هذه ولم يشذ منهم الا السيد صاحب كتاب جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار (وهو مخطوط تحت الطبع) اذا اسماها السيدة فاخرة والا الدكتور جمال زكريا قاسم فقد سماها السيدة معاذة ولعل الدكتور وجد الاسم في تاريخ جيان الفرنسي فقربه إلى اقرب الاسماء إلى العربية لفظا وهو معاذة . أنظر كتابه دولة بوسعيد ص ٢٤٢ (القاهرة ١٩٦٨) .

وكان حمد على عكس أبيه – رجلا هماماً مقداما حازما عدلا سار في الرعية سيرة مرضية وان لم يخل عهده من نزاع مستمر بينه وبين عمه سلطان الابن الخامس للامام أحمد .

وكان سلطان من الجانب الثاني رجلا بطلا وقرينا لحمد ونظيره في البطولة وقوة البأس وعلو الهمة والحزم والاقدام . وكان كل منهما يشهد للآخر بذلك وكاد النزاع بينهما ان ينعطف منعطفاً خطرا لو لم تحسمه يد المنون المباغنة التي أودت بحمد عام ١٧٩٣ أثر اصابته بمرض الجدري . فخلا الجو لسلطان واستطاع بيسر يسير أن ينزع السلطة من يد أخيه سعيد ويستأثر بها لنفسه ولأبنائه من بعده تاركا له لقب الامامة متخذاً لنفسه ولاولاده من بعده لقب السيد .

• • •

ويعتبر عهد سلطان ١٧٩٣ – ١٨٠٤ من أزهى عهود عمان كما يعتبر سلطان نفسه من أبرز الحكام العرب ولو لم تعاجله المنية لكان لتاريخ عمان شأن آخر ربما جنبها الكثير مما شهدته من الويلات . ففي عهده تغيرت الأوضاع في الداخل والخارج وطرأت عليها عوامل جديدة لم تكن في الحسبان، وكان ابرزها – في الداخل – فقدان الامامة لسلطانها المؤثر بسبب قبوع الامام سعيد في الرستاق واهماله واجبات منصبه ثم انفصال الحكم السياسي عن الامامة فانتقال العاصمة إلى مسقط وما استتبع ذلك من انفتاحها التجاري الواسع ودخول الاجانب من اوروبيين وهنود اليها مع السماح لهم بممارسة عاداتهم الاجتماعية وتقاليدهم الدينية مما يعتبره الفكر الديني بدعة وضلالة . هذا بالاضافة إلى اطماع الطامعين في العرش والمتربصين به الكيد وكثرة فتنهم وثوراتهم .

وكان ابرزها في الخارج ظهور النيات البريطانية للسيطرة على البلدان الواقعة على طريق الهند وتأتي عمان وسواحل الخليج العربي في مقدمتها، ثم اشتداد التنافس الفرنسي والبريطاني لتثبيت النفوذ في المنطقة مضافا إلى ذلك انطلاق الوهابيين في نجد في سياسة توسعية كانت عمان من بين أهدافها الأولى .

وليس هنا مجال الشرح والتفصيل لهذه التطورات والمشاكل ولغيرها التي لم نذكرها

وانما المهم ان نعرف ان السيد سلطان استطاع ان يعالجها بحكمة السياسي المحنك واقدام القائد الشجاع وكفاءة الاداري القدير . ولكن المنية عاجلته قبل ان ينتهي من ارساء قواعد دولته على اسس متينة، فقد توفي عام ١٨٠٤ في معركة بحرية بطولية في الخليج العربي تاركاً وراءه دولة تتهددها الاخطار وولدين اثنين صغيرين اكبرهما سالم وعمره خمس عشرة سنة وثانيهما سعيد وهو في الرابعة عشرة من عمره، وقد اختير منذ البداية الابن الاصغر سعيد لخلافة ابيه لانه اكثر نباهة وأوفر نشاطا وأقوى خؤولة من أخيه سالم الذي لم يعارض في هذا الامر مطلقا وظل مخلصا لاخيه يشاركه اعباء الحكم حتى وفاته المبكرة بالفالج عام ١٨٢١ .

• • •

وكان من الطبيعي ان ينتهز الطامعون من رؤساء القبائل وافراد الأسرة الألبوسعيدية فرصة وجود هذين الصبيين لاغتصاب الحكم منهما واقتسام البلاد بينهم وان تصبح البلاد بالتالي في حال من الفوضى والتفكك يهددان بانهيار الدولة. وكان أول خطرين داهمين شهدتهما البلاد اثر وفاة السيد السلطان هما :

١ – ثورة في صحار بقيادة قيس، الابن الثالث للامام احمد وعم الصبيين الوريثين، يسندها عمها الآخر الامام سعيد القابع في رستاق ، وقد زحفت جيوشهما حتى اصبحت على قيد أميال من تخوم مسقط.

٢ – جيش سعودي يقوده السيد بدر بن سيف الابن الرابع للامام احمد، وكان بدر قد خرج على عمه السيد سلطان ولكنه فشل في حركته ففر إلى الدرعية عاصمة الامراء السعوديين الوهابين واعتنق الوهابية وعاد منها بقوة سعودية للاستيلاء على الحكم ولما وافت المنية عمه كان هو وقوته السعودية قد توغلوا في زحفهم إلى داخل البلاد .

وتجاه هذين الزحفين الداهمين كان لا بد للحكم من قيادة قوية قادرة على دفع الاخطار عن البلاد والحفاظ على العرش المهتز لأبني سلطان، وقد دفعت الظروف إلى مسرح الاحداث بالسيدة موزة بنت الامام أحمد وعمة الصبيين

الوريثين فعقدت لها الوصاية على ابني أخيها وتولت مقاليد الحكم فاستطاعت بقوة شخصيتها وصلابة عزمها وحسن قيادتها وشجاعتها وحنكتها ان تدفع الخطر عن مسقط وان تحتفظ لابني أخيها بملك ابيهما .

وقد رأت بثاقب بصرها ان تحالف أحد الخصمين فتضرب به الآخر . حتى اذا وهنت قوته انقضت عليه، وتخلصت منه . ولما كان أخوها قيس على أبواب مسقط وكان السعوديون بقيادة بدر بعيدين عنها بعض الشيء . لذا فقد آثرت الخطر السعودي الآجل على الخطر العاجل، فكتبت إلى ابن اخيها بدر تستدعيه للاسراع لانقاذ مسقط مقابل توليه الوصاية على العرش . فأسرع بدر بالموافقة وترك جيشه واتجه نحو مسقط . فلما تبين لقيس ذلك وانه لا قبل له بمواجهة قوات بدر السعودية، وان استمراره بالحرب قد ينتهي باحتلال السعوديين مسقط، وهو خصمهم اللدود ، كما تبين له ان اخته السيدة الوصية قد استطاعت ان تستميل بالمال إلى صفها بعض قوات جيشه فقد آثر الصلح والانسحاب مقابل بعض المكاسب المادية والاقليمية .

أما بدر فانه اعطى ملكا فلم يحسن سياسته، فقد سولت له نفسه اغتصاب العرش من وريثيه الغلامين الصغيرين فأبعدهما إلى داخل البلاد في مدينتين متباعدتين وبدأ يتصرف وكأنه الحاكم الدائم . وزاد على ذلك بأن كشف عن ميوله الوهابية الواضحة وبدأ يسدد للسعوديين ثمن افضالهم عليه فأوثق الصلات بهم وافسح لهم مركزا ممتازا في سدة الحكم . فأثارت اعماله عليه نقمة جمهور الأمة من الاباضيين وغضب الشعب عامة .

وقد أحس السيد سعيد باقتراب الخطر منه وان بدرا لا بد وان يزيحه من الطريق ليخلو له الجو، فنظم مكيدة انتهت بقتل بدر في عام ١٨٠٧ وعودة سعيد إلى مسقط وتوليه مقاليد الحكم الفعلية فيها [1] .

• • •

(١) هناك اربع أو خمس روايات تحكي قصة هذا الحادث بتفاصيل مختلفة انظر كتاب عمان لمؤلفه وندل فيلبس ص ١٣٩ و ١٤٢ .

ولم يدر بخلد أحد ان العهد سيطول بهذا الغلام اليافع في بلد مثل عمان اشتهر بالفتن والثورات وان يقدر على قيادة سفينة دولته التي تتلاطمها الأمواج وتتقاذفها الانواء في عباب بحر يعج بشتى التيارات والدوامات . لكنه وخلافا لكل التوقعات استطاع على المدى الطويل ان يكون الربان الماهر والقائد الناجح والسياسي المحنك فاستمر على اريكة عرشه خمسين عاما وترك في تاريخ عمان والخليج العربي وشرق أفريقيا آثار انجازاته العديدة ولما ذهب إلى لقاء ربه ترك بلاده عمان في أحسن عهود تاريخها رفعة مقام وبعد صيت واتساع رقعة وازدهار تجارة وكثرة رخاء .

• • •

ولكن ما أن استوى السيد سعيد على اريكة الحكم حتى بدأ يواجه العديد من المشاكل والازمات والفتن والحروب التي استغرقت كل ايام حكمه الطويل . ونبيح لانفسنا التمهل قليلا لاستقصاء هذه المشاكل وتعدادها لانها وعقابيلها ظلت تعمل في البنية العمانية وهنا وسقما حتى اوشكت بها على الزوال ، وهي :

١ – كانت أول مشاكله هي تحديد علاقته مع السعوديين الغاضبين عليه لمقتل حليفهم بدر والطامعين دوما في الاستيلاء على عمان . وقد وقعت أول حرب بين الطرفين عام ١٨٠٨ وظلت الحرب تتكرر سجالا بين الطرفين بين الحين والآخر طيلة حكم السيد سعيد لا يقطعها الا انشغال السعوديين بالهجوم المصري عليهم أو الفتن العائلية بينهم ، ودون أن يسجل احد الطرفين انتصارا حربياً حاسما على الطرف الآخر .

٢ – وكانت ظروف المنطقة قد تمخضت عن ظهور قوة عربية جديدة في المنطقة هم القواسم وكان مركزهم جلفار (رأس الخيمة) . وكانوا قوة بحرية عظيمة استطاعت ان تسيطر على مياه الخليج وبحر العرب وبعض مياه البحر الهندي . وكانت العلاقات بين القواسم والسيد سعيد تتأرجح دوما بين التحالف المؤقت والخصومة اللدودة وقد استنزفت خصومتهم له الكثير من وقته وجهده وماله طيلة حياته مما لا مجال للاسهاب ببحثها في هذا المقام .

على أن لظهور قوة القواسم جانباً آخر جديراً بالذكر لتأثيره على مجرى التاريخ في المنطقة وهو ان ظهور قوة بحرية ذات بأس وقوة تسيطر على مياه المنطقة وتعرض سلامة طريق الهند للخطر قد ازعجت بريطانيا وعرضت خططها في المنطقة إلى الخلل والفشل، كما انها رأت ان تحالف القواسم (في اكثر الأحيان) مع القوة العربية السياسة الجديدة – أي الوهابين – قد يؤدي إلى تكتل عربي قوي في البر والبحر قد يمد سيطرته الكاملة على جميع المنطقة وهذا ما يخالف سياستها القائمة على التجزئة والتقسيم. لذلك فقد قررت بريطانيا وأد هذه القوة البحرية والقضاء عليها وقد تذرعت إلى تحقيق أهدافها بحجة مكافحة القرصنة وهي حجة لا تثبت مع التمحيص الدقيق.

٣ – ومن المشاكل الدولية التي واجهها السيد سعيد أول تبوئه الحكم هي وجوب تحديد علاقاته بالقوتين المتنافستين وهما انكلترة وفرنسة التي بلغ النزاع بينهما أشده في اوروبا. وكانت كلتا القوتين على مقربة منه ففرانسة تحتل بعض الجزر في المحيط الهندي وتبسط نفوذها على ممتلكاته في شرق أفريقيا وعلى طرق مواصلاته معها في حين تربض انكلترة في الهند تتطلع إلى السيطرة التامة على المنطقة.

وكانت فرنسا قد وطدت لها علاقات طيبة مع الوصي السابق السيد بدر فمن الطبيعي ان لا تنظر بعين الارتياح إلى مقتله ولا بعين الاطمئنان إلى خليفته، في حين لم تكن انكلترة بطبيعة الحال أيضا راضية على علاقات بدر مع فرنسا فأراد السيد سعيد أن يرضي بريطانيا فعرض عليها صداقته ولكن حكومة الهند رفضت عرضه لانها رأت وراءه رغبة من السيد سعيد في حمايتها له من الخطر السعودي واقحامها في النزاعات الداخلية بين الامارات العربية، الأمر الذي لم تكن تريده آنذاك.

ولذا توجه السيد سعيد إلى الفرنسيين يؤكد لهم استمراره في حفظ العلاقة بينهم وبين مسقط وقد بلغ من نجاح مسعاه معهم ان عقد معاهدة صداقة بين فرنسا ومسقط عام ١٨٠٧ كانت ولا شك نصرا لفرنسا على انكلترة في مسقط، لكن حكومة نابليون في باريس تلكأت في التصديق على المعاهدة واستمرت

في مفاوضات عقيمة وقبل ان تنتهي المفاوضات كانت انكلترا قد احتلت الجزر الفرنسية في المحيط الهندي وأجلت فرانسا عنها .

٤ ـ وإذ خرجت فرانسا مدحورة من الشرق العربي فقد انفردت انكلترة في الميدان وأصبحت سيدة الموقف في المنطقة كلها لا ينازعها فيها أحد .

ورأى السيد سعيد انه لا قبل له بالوقوف في وجه هذه القوة المتعاظمة ومنعها من تحقيق اهدافها في المنطقة . عدا انه هو نفسه في حاجة إلى قوة كبرى مثل بريطانيا تحميه وتقف وراءه وتؤيده في مشاكله الداخلية وفي حروبه مع جيرانه العرب وفي تحقيق طموحه في السيطرة على الخليج العربي والبحرين من جهة وعلى توطيد ملكه في شرق افريقيا من جهة أخرى . لذلك لم ير بدا ولا ضيرا من صداقة بريطانيا «والتعايش» معها .

وكان محور السياسة البريطانية في الشرق هو الحفاظ على سلامة طريقها إلى الهند، وكان طريقها هذا ذا اتجاهين، الأول يمر على رأس الرجاء الصالح فالساحل الافريقي الشرقي فعدن ثم الهند، وهنا تبرز أهمية ميناء مسقط محطة وسطا في هذا الطريق، والطريق الثاني يبدأ من موانيء البحر الأبيض المتوسط فالى العراق والبصرة ثم الخليج العربي فالهند ، وهنا أيضاً تكوّن سواحل الخليج وعمان جزءا اساسيا في هذا الطريق .

وفي سبيل سلامة هذا الطريق اندفعت انكلترة للسيطرة على البلدان المهمة التي يمر بها وتقسيمها وتفكيكها مع عدم السماح لها بالوحدة أو القوة ثم عدم السماح بظهور قوة بحرية تنازعها السيادة في المياه القريبة من الهند . وكان هذا الهدف هو دافعها إلى محاربة قوة القواسم البحرية بحجة منع القرصنة، وكانت تلك بداية قصتها الطويلة التي استمرتماية وخمسين عاما مع بلدان هذه المنطقة .

وتنفيذا لهذه السياسة واحساسا من بريطانيا بحاجة السيد سعيد اليها فقد سلكت معه سياسة مكيافيلية ملتوية تؤمن بقاءه في فلكها وتمنعه في الوقت نفسه عن تحقيق ما يخالف مصالحها وسياستها . وقد استطاعت نتيجة هذه السياسة الملتوية ان

تربط السيد سعيد بمعاهدات عديدة وان تحصل منه على امتيازات كثيرة، كما استطاعت ايضاً ان تدخل مع امراء الساحل العربي في الخليج بمعاهدات بدأت عام ١٨٢٠ وظلت تتجدد بين الفترة والاخرى حتى كانت معاهدة سنة ١٨٥٣ ثم معاهدة ١٨٩٢ التي ظلت بلدان الخليج ترزح تحت اعبائها حتى اعلان قيام دولة الامارات العربية في يوم ٣ كانون الأول عام ١٩٧١ بقيادة بطل آخر من ابطال الخليج هو حضرة صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبو ظبي ورئيس دولة الامارات العربية المتحدة.

وقد دخل السياسة البريطانية في أوائل الثلث الأول من القرن الماضي عامل جديد استطاعت بسياستها الملتوية ان تفرضه على السيد سعيد ذلك هو مكافحة تجارة الرقيق وهو أمر ظاهره نزعة انسانية كريمة ولكن كان في باطنه الوبال الوخيم على ابناء السيد سعيد من بعده وبخاصة في زنجبار حيث اودى باستقلالهم وملكهم العظيم هناك. وقد عقدت معه لهذا الغرض اولى معاهدات مكافحة الرقيق عام ١٨٢٣ وعرفت بمعاهدة مورسبي.

٥ ـ وفي داخل بلاده واجه السيد سعيد الكثير من حركات الانفصال من عمومته وابنائهم والكثير من ثورات القبائل وكان اعظمها شأنا وأوسعها نطاقا ثورة بني بو علي عام ١٨٢١ التي اشترك الانكليز مع السلطان في القضاء عليها فمنيا بفشل كبير وخسائر جسيمة وقد ابدى فيها السيد سعيد الكثير من ضروب الشجاعة والاقدام حتى انه أصيب بفخذه بطلق ناري وهو يحاول انقاذ احد ضباط المدفعية من موت محتم[1] وقد عاد الانكليز في السنة التالية بحملة كبيرة قضت على التمرد وشردت القبيلة.

وكانت الاباضية تزداد نقمة على الحكم القائم لغياب الامامة عن البلاد وميل السلطان المتكاثر نحو الانكليز وعقده المعاهدات معهم وفتحه ابواب البلاد وفرص التجارة امامهم وفرضه الرسوم الجمركية على واردات البلاد

---

(١) وقد ظل الطلق الناري في فخذ السيد سعيد يعاوده بالألم والالتهاب وكان سببا من اسباب وفاته. وفي هذه المعركة بالذات نعي للسيد سعيد موت اخيه سالم في مسقط.

وصادراتها ثم قبوله – على مضض – برأي الانكليز بمنع تجارة الرقيق – منعا جزئياً في الواقع – وهي تجارة مربحة للكثيرين من ابناء البلاد عدا عن أن الدين الاسلامي لا يحرم تملك الرقيق . فكانت هذه العوامل تتجمع وتزيد من نقمة الجماعة الاباضية التي تحاول ان تجد فيها متنفساً بالثورة على الحكم القائم .

وقد تهيأ لها ذلك على يد السيد حمود بن عزان بن قيس بن الامام الذي استغل انشغال السلطان في شرق افريقيا فقام من مقره في صحار بثورة عنيفة ضد السلطان عام ١٨٢٩ ، كانت من أعنف الثورات وأطولها امدا .

٦ – الا أن هذه المشاكل والمهام لم تشغل السيد سعيد عن طموحه لبسط سلطانه على الخليج العربي والجزر المنتشرة فيه ومحاولاته المتكررة من أجل ذلك لاحتلال البحرين وبالتالي مواجهاته المستمرة مع ايران بسبب ذلك .

الا أن الطموح الاكبر للسيد سعيد كان في التطلع نحو الشرق الافريقي وتثبيت نفوذه فيه وتوسيع رقعة ملكه هناك . وقد تحقق له ذلك بعد جهود مضنية وحروب طويلة وما ان استتب له الامر فيها حتى نقل مركز حكمه ومحل اقامته اليها ومنها شاع ذكره وانتشر خبره .

ولكن قبل أن نبدأ قصة السيد سعيد في افريقيا يجدر بنا أن نعود إلى الوراء قليلا لنتابع قصة العلاقات بين عمان والشرق الافريقي منذ البداية .

• • •

من الثابت في التاريخ ان نزوح العرب من جنوب جزيرتهم إلى القارة الافريقية وجزرها الشرقية بدأ منذ الاف السنين وكانت اليمن وعمان مصدري الهجرة إلى القارة السوداء، ولبروز اهل عمان في ركوب البحر وتفوقهم في الملاحة فقد أصبحوا المصدر الرئيس لأكثر الهجرات العربية التي تلك البلاد، تدفعهم إلى ذلك عوامل شتى منها الفرار من الاضطهاد السياسي أو الهروب من مغبة الفتن والحروب ومنها طيب المناخ وكثرة الثروات في تلك الجزر وما يقابلها من قسوة الجو وفقر الأرض في عمان .

واستمر النزوح العربي إلى تلك الديار بقصد البقاء والاستقرار أو الكسب

والاتجار حتى تجمعت في الساحل الافريقي الشرقي وجزره جاليات عربية كبيرة امتدت من الشمال حتى الجنوب وكانت اهم تجمعاتهم في مقديشو وباراوا ولامو ومالندي وممباسة وبامبا وزنجبار وموزامبيق .

وكان العرب في تلك الديار باعتراف الغربيين انفسهم على مستوى رفيع من رخاء العيش في مسكنهم وملبسهم ومأكلهم وكانت مدنهم تضاهي مدن اوروبا في النظافة والتنظيم وحسن العمران (١) .

وظل العرب على هذا الحال من الرخاء والاستقرار حتى دهمتهم اساطيل البرتغال في القرن الخامس عشر للميلاد غازية باغية عاتية مدمرة تهلك الحرث والنسل وتحرق الاخضر واليابس . وقد احتل البرتغال جزر افريقيا الشرقية وبعضا من البر الافريقي فلقي أبناء هذه البلاد وغالبيتهم من العرب شر انواع البغي والاضطهاد والعدوان من الفاتحين الجدد فلجأوا إلى الوطن الأم عمان يطلبون منها النجدة والخلاص .

وقد اثارت استغاثتهم النخوة العربية في قلب الامام سلطان بن سيف اليعربي محرر مسقط وعمان، فصمم على نجدتهم وتحرير بلادهم من قبضة البرتغال فابتنى اسطولا ضخماً وهاجم الجزر وحررها الواحدة بعد الاخرى وترك في كل منها حامية عربية من ابناء القبائل العمانية وعين فيها حاكما تابعاً له من ابناء تلك القبيلة فكانت زنجبار من نصيب قبيلة الحارث وممباسة من نصيب آل مزروع وبات من نصيب آل نبهان . وكان السلطان في الجزر الافريقية لسكانها العرب وغالبيتهم عمانيون تربطهم بابناء عمومتهم في الوطن الأم روابط الدم والعقيدة والولاء .

واستمرت الجزر الافريقية تدين بالطاعة والولاء للائمة اليعاربة في عمان ما استمر هؤلاء الائمة حكاما اقوياء لهم من المكانة والمهابة ما يفرض سلطتهم على رعاياهم فلما انقسمت الاسرة اليعربية على نفسها ووهنت بنية الامامة بدأت الاطماع تساور ابناء الجزر بالانفصال عن الوطن الأم .

---

(١) انظر كتاب « افريقيا وفاتحوها » تأليف كوبلاند الفصل الثاني ص ٢٤ . لندن ١٩٦٨ .

فلما زاد تدهور الامور وترديها في عمان وانتهت الاحداث فيها إلى ظهور احمد بن سعيد على مسرح الاحداث وانفراده بالحكم والامامة اعلن احد المزروعيين في ممباسة وهو محمد بن عثمان انفصاله التام عن عمان وعدم اعترافه بالحاكم الجديد .

ولم يفت الامام أحمد ما يعنيه انفصال ممباسة من خطر أكيد على ممتلكاته الافريقية ولكنه لم يكن بوضع يسمح له بالحرب والمجابهة فعمد إلى الحيلة والمكيدة ودبر موأمرة انتهت باغتيال محمد بن عثمان وسجن انصاره وتشريدهم. وبتعيين وال جديد من اقارب الامام .

الا أن الحركة لم يكتب لها النجاح فقد استطاع علي بن عثمان أخ القائد القتيل أن يفر من سجنه وان يعلن الثورة على والي الامام حتى اجلاه وقواته عن الجزيرة واعلن استقلالها التام عن عمان وذلك في عام ١٧٤٦ ولم يحذ حذوه الا آل نبهان في جزيرة بات .

وظل الحال ــ بوجه عام ــ على هذا المنوال حتى عهد السيد سعيد . وقد قلنا ان مشاكله الجمة لم تشغله عن التطلع نحو الافريقية الشرقية ومحاولته مد سيطرته عليها .

ولم يجد السيد سعيد كبير عناء في بسط سيطرته على جزيرة زنجبار فقد ظلت على طاعتها لعمان لم تنقضها وما يصدق على زنجبار من حيث هدوء الحال واستمرار الولاء يصدق ايضا على جزر كلوا وبات وبمبا (أو الجزيرة الخضراء كما يسميها العرب) .

لكن التحدي الافريقي الاكبر للسيد سعيد كان جزيرة ممباسة وحكامها المزروعيين فقد ظلت وظلوا لسنين طوال الهم الذي يقض مضاجعه والعقبة الكأداء الذي تحول دون تحقيق طموحه في أن يؤسس ملكا واسعا في شرق افريقيا .

ولم تكن موارد عمان النزرة ومشاكلها الكثيرة لتسمح له بالقيام بمجازفة كبرى يضع فيها حداً لهذا التحدي الكبير ، فلم يكن له بد من الصبر والترقب واتباع ما برع فيه من سياسة ودهاء في فن التهديد والالهاء أو الوعيد والاغراء .

وفي هذه المرحلة وفي شدة اليأس والجزع، القى المزروعيون بأنفسهم في أحضان بريطانيا متنازلين لملكها عن جزيرتهم مقابل حمايته لهم من السيد سعيد، الا أن حكومة الهند لم تستجب لالحاحهم المتكرر لعدم معرفتها بالأهمية العسكرية والسياسية لجزيرة ممباسة ولعدم رغبتها في اغضاب حليفها السيد سعيد. ولكن هذا الرفض زادهم تشبثاً في مطلبهم فلجأوا إلى ملاح بريطاني مغامر هو الكابتن اوين مر بجزيرتهم في نطاق جولاته التفتيشية لمكافحة تجارة الرقيق فطلبوا منه الحماية البريطانية فأجابهم اليها ورفع العلم البريطاني في الجزيرة.

ولكن سرعان ما خاب أمل المزروعيين من هذه الحماية بعد أن تبينوا انها سراب خادع لا نفع فيه، كما اثار عمل الكابتن اوين حفيظة السيد سعيد على حلفائه الانكليز وفي نفس الوقت وجدت حكومة الهند في هذا العمل المتسرع مفاجأة محرجة لها واقحاما لها في نزاعات ومشاكل لم تكن مستعدة لها لذلك بادرت بريطانيا بالغاء الحماية عام ١٨٢٦ وتركت ممباسة تواجه قدرها المحتوم مع السيد سعيد.

وكان يود السيد سعيد ان يسرع إلى الاجهاز على المزروعيين لولا انهماكه بحرب القواسم من جهة والاستعداد لزواجه من أميرة فارسية من جهة ثانية. فلم يجد لهذا وذاك بدا من الانتظار حتى عام ١٨٢٩، حيث قاد في اخريات هذا العام أول حملاته على ممباسة فحاصرها بأسطوله ثم بدأ الهجوم عليها واستمر القتال بين الطرفين اسبوعين، لكن بسالة المزروعيين في الدفاع عن بلدهم أعجزت السلطان عن فتحها فلجأ كدأبه دوما إلى المداورة والمفاوضة فأعلن وقف القتال ورفع الحصار عنها واسترضى حاكم الجزيرة وشيوخها بوافر الهدايا وجميل الاعتذار ثم ابحر إلى زنجبار فوصلها مع اخريات عام ١٨٢٩ وكانت هذه أول زيارة له إلى زنجبار، ومنها أرسل حملة ناجحة فتحت له مقديشو.

ولا شك ان السيد سعيد قد اعجب بزنجبار وارتاح اليها وود لو يطول مقامه فيها ولكنه لم يلبث الا قليلاً حتى استدعى إلى مسقط في نيسان من عام ١٨٣٠ لمواجهة ثورة عارمة في عمان تقودها السيدة جوخة بنت محمد - اليعربي الحوْلة-

ابن الامام احمد انتصارا لأخيها هلال الذي القى به السلطان في الحبس قبل سفره من عمان .

وقد قامت السيدة جوخة باحتلال السويق واعلنت التمرد في الباطنة وانضم اليها حمود بن عزان بن قيس، فاستولى من جهته على صحار ومدن اخرى . ومرة اخرى تظهر السيدة موزة بنت الامام وعمة السلطان على مسرح الأحداث فتقف واخوها طالب مع نائب السلطان وهو محمد ابن اخيه سالم وتسيطر على الموقف من جديد حتى اذا وصل السيد سعيد إلى عمان اطلق سراح هلال واسترضى اخته جوخة ثم قاد حملة تأديب ضد حمود بن عزان انتهت بفشل السلطان وتراجعه فعاد ولجأ إلى اساليب الاغراء والارضاء والالهاء واستطاع بها انهاء التمرد والعصيان واطمأن إلى نوع من الهدوء والاستقرار في عمان .

وما أن انتهت الامور في عمان عند هذا الحد حتى انصرف من جديد إلى التفكير في اتمام خططه في افريقيا، فعاد وأبحر اليها في أوائل عام ١٨٣٢ على رأس اسطول كبير وبعد أن نصب مكانه في مسقط هيئة وصاية تتألف من ابنه البكر هلال ومن محمد بن اخيه سالم ومن سعود بن علي وهو ابن اخ لبدر بن سيف الوصي السابق .

وقد وصل بأسطوله إلى ممباسة وضرب حولها الحصار وبدأ معها القتال، وكان واضحا لكلا الطرفين ان لا قبل لاحدهما بالآخر فاتفق الطرفان على المفاوضة والتفاهم ووقعا اتفاقا اقر فيه السلطان ببقاء حكم ممباسة بيد الشيخ سالم حاكم الجزيرة وورثته من بعده وببقائهم في قلعة الجزيرة واعترف فيه الشيخ سالم بالسيادة الاسمية للسلطان على الجزيرة وبان يقاسمه وارداتها وان يسمح – فوق هذا – للسيد سعيد ان يترك في القلعة خمسين جنديا من جنوده .

وعلى هذا غادر السيد سعيد ممباسة منتصراً أو شبه منتصر وتوجه منها إلى زنجبار فوصلها في ربيع عام ١٨٣٢، وفي نيته ان يخلد فيها إلى الراحة والهدوء ولكن سرعان ما وصلت اليه الأنباء من عمان ان قريبه سعود قد القى القبض على ابنه وابن أخيه وأودعهما السجن وانه سار يستولي على الحصون والبلاد . وقد انضم اليه

ثانية حمود بن عزان فسار من جهته يضم اليه البلاد كما انضم اليهما سلطان بن صقر شيخ القواسم فاستولى على خورفكان ودبا .

واطبق الثلاثة على مسقط يريدون احتلالها بعد ان لم يعد فيها من يحكمها أو يدافع عنها . وهنا، وفي هذه المحنة برزت السيدة موزة مرة اخرى فتقلدت شؤون الحكم والوصاية واستطاعت بقوتها وتدبيرها وبجيشها البالغ عدده الف وخمسماية جندي أن تقبض على الامر بارادة من حديد فاستطاعت ان تفتدي من السجن هلالا ومحمدا بفدية كبيرة وان تصد الهجمات عن مسقط وان تسترضي القبائل التي بدأت تتململ، حتى وصل السيد سعيد عمان في شهر ايلول من عام ١٨٣٢ حيث استطاع بطرقه في الارضاء والالهاء انهاء هذا الصراع .

لكن هذا الصراع اطمع فيه الوهابيين أيضاً فزحفوا اليه وكادوا ان يطبقوا على عاصمته مسقط لو لم يشتري عودتهم عنها بمبلغ من المال كبير .

وما ان استقرت له الأمور في عمان حتى وردته الأخبار عن تمرد المزروعيين في ممباسة وقتلهم نائبه فيها . وهكذا قدر لهذا الرجل ان يتأرجح بين شقي مملكته فاذا استقرت له الامور في افريقيا اضطربت في عمان، واذا استقرت له عمان تمردت افريقيا وهو لن يربح احد القسمين الا بخسارة القسم الآخر .

وقد احس هو ولاشك بهذا الواقع المؤلم، ولعله لو منح الخيار بين شقي مملكته هذه لتاقت نفسه إلى الانصراف عن البر العربي ومشاكله الشائكة الدائبة إلى الجزر الافريقية وهدوئها وصفائها فلا ريب في أن عوامل الاستقرار وراحة البال أوفر عدداً وايسر منالا هنا منها في عمان . ولعله وصل إلى هذا القرار في قرارة نفسه أو على الأقل خطرت له فترة انتقال إلى زنجبار والاقامة الدائمة فيها بدليل انه ابتنى له في زيارته الثانية لها قصر الموتني وهو أول قصوره فيها وأكبرها .

لكن الانتقال إلى الشرق الافريقي والاستقرار الدائم فيه يقتضيانه أولا وقبل كل شيء أحكام سيطرته التامة على ممباسة دون منازع له فيها أو شريك، والا فان بقاءه في زنجبار وممباسة في ايدي المزروعيين كبقائه في عمان ومسقط بيد

الوهابيين . وقد صمد المزروعيون لاحابيل سياسته فلم تنطل عليهم وصمدوا لجيوشه فلم تستطع ان تحقق نصراً عليهم ، لذا فقد قر عزمه على فتح ممباسة واخضاعها بأي ثمن كان تخلصا من المتاعب التي ما فتئت تسببها له وتحسبا لخطط المستقبل الافريقي الذي بدأ يحلم به ، لكن تجاربه السابقة علمته بأنه لن يستطيع أن ينال من المزروعيين وطره الا اذا وجد حليفاً يشد به أزره .

وتلفت يبحث عن هذا الحليف بين القوى المحلية والأجنبية في المنطقة ، وقد اخرج الانكليز من حسابه لان حكومة بومباي سبق ان اوصته بأن لا يشتد ويقسو مع المزاريع ويكفيه منها انها اطلقت يده في الأمر ، وهو لا يستطيع الاتفاق مع الفرنسيين لان حكومة الهند حذرته من ذلك .

ولذا فقد هداه فكره إلى جزيرة مدغشقر وهي اكبر جزر المنطقة مساحة واكثرها سكانا وأشدها بأسا . واذ لم يكن في وسعه ان يحتلها فلا اقل من أن يحتال عليها ويسلك معها سلوك الملوك فيضمها اليه عن طريق الزواج والمصاهرة ، فإذا ما تحقق له ذلك استطاع ان يطبق على ممباسة بقوة وعدد لا قبل للمزروعين بالصمود امامهما . وكان ملك الجزيرة قد توفي من قريب ، واعتلت عرش الجزيرة بعده ارملته الملكة رانا فولوتا ما نجاكا وكانت امرأة ذات بأس شديد وبطش عنيف فأرسل اليها السلطان عام ١٨٣٣ وفدا كبيراً يحمل مع نفائس الهدايا عرضا بالزواج منه وتجهيزه بالرجال المقاتلين لكن الملكة الايم اعتذرت منه عن الزواج بتقاليد بلادها التي لا تجيز زواج الملكة الارملة ولكنها عرضت عليه ان تزوجه احدى الاميرات اليافعات وطلبت منه بالمناسبة عقدا من المرجان الثمين . ولا ندري ان كانت قد جهزته ببغيته من الجنود ام لا .

واذ لم يكتب له النجاح في هذا الامر فقد ولى وجهه شطر قوة تجارية وسياسية دولية جديدة نامية ، تلك هي الولايات المتحدة الامريكية التي بدأت سفنها التجارية تجوب البحار بحثاً عن التجارة والنفوذ بما عرف عن ابنائها من الاندفاع وحب المغامرة ، وكانت سفنها التجارية تصل زنجبار والسواحل الافريقية الشرقية فاستطاع عن هذا الطريق ان يعقد عام ١٨٣٣ مع رئيس الولايات المتحدة المستر اندرو

جاكسون (١٨٣٢ – ١٨٣٦) معاهدة صداقة وتجارة[1] حاول السلطان ان يستغلها لكسب تأييد الدولة الجديدة ومساعدتها العسكرية له في مساعيه لاخضاع ممباسة ولكن الولايات المتحدة اكتفت بمكاسبها التجارية واعتذرت عن التدخل العسكري في المنازعات السياسية المحلية .

وتجاه فشل خطتيه هاتين لم يبق له من سبيل للاستيلاء على ممباسة الا الاعتماد على بأسه ودهائه .

• • •

وكان السيد سعيد يعلم علم اليقين انه لن يستطيع بالبأس والقوة ان ينال من المزروعيين منالا . ولكنه كان على يقين ايضاً انه يستطيع ان يحقق بالدهاء والمخاتلة – وكان استاذاً ماهرا في هذه الفنون – ما لا يستطيع تحقيقه بالقتال والمنازلة .

وشاء سوء حظ المزاريع ان تنفرط وحدتهم وان ينقسموا شيعاً واحزابا فهيئوا بأنفسهم الظروف المواتية لنجاح السيد سعيد. فقد توفي حاكم ممباسة الشيخ سالم عام ١٨٣٦ واشتد النزاع على خلافته بين اخوته وابنائه، وانقسم القوم إلى فئات متناحرة كاد أن يصل الامر بينها إلى حد الاقتتال ودام الحال عاما كاملا على هذا المنوال.

واستعان فريق منهم بالسيد سعيد يدعوه للتدخل فاغتنمها فرصة مواتية وارسل اسطوله استجابة لنداء هؤلاء . ولكنه كان يعلم ان اسطوله لا ينفع في شيء تجاه بسالة المزروعيين وصمودهم لذلك عمد إلى المال يشتري به ذمم الناس ويدفعه ثمنا لانفضاض القوم عن المعركة .

فلما رأى الشيخ راشد بن سالم حاكم الجزيرة انفضاض قومه عنه وانه لا قبل له بمقابلة سلاح الذهب بمثله اجاب سعيدا إلى المفاوضة، واتفق الطرفان على أن تبقى سيادة الجزيرة للشيخ راشد مقابل جلائه عن القلعة فقط لتحتلها جيوش السيد سعيد . وكان ذلك في شهر شباط من عام ١٨٣٧ .

---

(١) كانت هذه ثاني معاهدة تعقدها الولايات المتحدة مع بلد عربي اما المعاهدة الأولى فكانت مع سلطان مراكش عام ١٧٨٧ .

لكن السيد سعيد لم يطمئن إلى هذا الحل فدعى الشيخ راشد ووجوه قومه إلى زنجبار واستقبلهم ببالغ الحفاوة والاكرام واغراهم بشتى العروض للتنازل عن جزيرتهم اليه فرفضوا عروضه شاكرين ولكن بعزم واباء .

وبعد شهرين أوفد السيد سعيد ابنه خالدا إلى ممباسة في مهمة ظاهرها الوداد وباطنها الغدر المبيت . ففي خدعة شائنة استطاع خالد تنفيذ الخطة التي وضعها له ابوه بأن يلقي القبض على حاكم الجزيرة وثلاثين من أعيانها وشيوخها وأن يرسل بهم إلى سفينته التي أبحرت بهم في الحال إلى زنجبار ، ومنها أمر السيد سعيد بسجنهم في بندر عباس في الخليج العربي . وفي عرض البحر بين زنجبار وبندر عباس نفذت بهم اوامر السيد سعيد فجرى تقتيلهم واغراقهم ولم يصل منهم إلى سجن بندر عباس الا بضعة انفار دخلوا السجن ولم يسمع بعدها عنهم شيء .

أما بقية المزروعيين في ممباسة فقد جلوا عنهم إلى البر الافريقي اتقاء لانتقام السيد سعيد حيث ظلوا يناصبون حكم الالبوسعيد الحرب والعداء حتى اخريات القرن الماضي .

واذ خلصت ممباسة للسيد سعيد فقد حقق هدفه واستراح باله ودان له الشرق الافريقي دون منازع وبدأ يطيل اقامته في زنجبار حتى جعلها محل اقامته الدائم تاركا عمان ومشاكلها إلى ابنه ثويني (١٨٢١ — ١٨٦٦) لا يزورها الا لماما حين تقتضيه دواعي الخطر الداهم أو ظروف الحرب (١) .

• • •

وانصرف في زنجبار إلى الزراعة والتجارة وجلب من جزيرة موريتيوس شجر القرنفل ونشر زراعته في زنجبار بالاكراه والارغام فحقق بذلك ثورة زراعية في البلاد لم يتقبلها الأهالي بادىء الأمر قبولا حسنا ولكنها في النتيجة عادت عليهم بثروة عميمة ورزق وفير واصبحت زنجبار من أغنى البقاع بسبب زراعة القرنفل وتجارته .

---

(١) يقال ان السيد سعيد قضى ثلثي وقته منذ عام ١٨٣٠ حتى وفاته اما في عرض البحر أو في زنجبار . وقد قضى السنوات العشرة الأخيرة من حياته في زنجبار لم يفارقها إلى عمان .

وكان السيد سعيد إلى جانب كونه سلطانا ورجل سياسة، تاجراً ماهراً ورجل اعمال ناجحاً، فنظم تجارة بلاده مع العالم الخارجي وابتنى لهذا الغرض اسطولا ضخماً كان يقايض بتجارة زنجبار في الموانىء الاوروبية والآسيوية حتى وصلت احدى سفنه إلى نيويورك .

واذا استثنينا عمان ومشاكلها الدائمة فقد كانت فترة حكم السيد سعيد في زنجبار فترة هدوء سياسي ورخاء تجاري . فاشتهر ذكر زنجبار وعلا اسم السيد سعيد وحين توفاه الله عام ١٨٥٦ بعد حكم دام خمسين عاما كانت سلطته تمتد إلى جميع الجزر الافريقية الشرقية وكان نفوذه في القارة نفسها يمتد شمالا وجنوبا وغربا إلى اواسط القارة حتى قيل انه اذا ضرب السيد سعيد طبله في زنجبار رقصت عليه كل غابات افريقية .

• • •

لكن وفاته رحمه الله كانت ايذانا بالفرقة والانقسام بين ابنائه وبالتدهور والانحلال في ممتلكاته وافول نجمها . اذ لم يكن ابناؤه من طينة المؤسسين العظام أمثال أبيهم سعيد أو جدهم سلطان أو جدهم الاكبر الامام أحمد .

وكشفت بريطانيا عن اطماعها في بلاد السيد سعيد ولعبت دورا مزريا في سبيل تفكيك امبراطوريته العظيمة وانحلالها . وقد تألبت الدول الاوربية على هذه المنطقة طامعة في خيراتها مستغلة ضعفها فلم يكن امام حكام هذه المنطقة الا الارتماء في أحضان بريطانيا من اجل حمايتهم من الدول الأخرى فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار .

وكان أول حدث بعد وفاة السيد سعيد هو انفصال زنجبار عن مسقط . فقد اعلن السيد ثويني نفسه حاكما في مسقط بدل ابيه كما اعلن السيد ماجد نفسه سلطانا في مسقط ولم يكن من الممكن ولا من المتصور ان تستقيم الامور بين الاخوين، ودخلت الاسرة في دوامة صراع مرير فانضم برغش واخوته الناقمون على السيد ماجد إلى ثويني في حين أخذ ماجد يمد تركي والباقين من اخوته بالمال للثورة على ثويني .

وقد تحرك ثويني في اسطول ضخم بغية مهاجمة اخيه ماجد واسترجاع زنجبار منه الا ان الاسطول البريطاني اعترضه في عرض البحر واضطره إلى الرجوع .

ورضي الاخوان بتحكيم بريطانيا وبعد دراسة طويلة اصدرت قرارها باقرار الوضع الراهن أي قيام حكومتين احداهما في عمان تحت حكم السيد ثويني والثانية في زنجبار تحت حكم السيد ماجد على أن يدفع السيد ماجد إلى اخيه ثويني مبلغ ٤٠ الف دولار سنويا .

وقد رحب السيد ماجد بهذا القرار وقبل بدفع المبلغ على أساس المعونة لأخيه في حين اعتبره السيد ثويني اتاوة يدفعها ماجد دلالة التبعية والولاء : وهو تفسير رفضه السيد ماجد وأوقف الدفع بسببه فأوقع عمان في ضائقة اقتصادية شديدة . وقد انشغل ثويني كما كان شأن عمان دائماً في مناوشاته مع الفرس والوهابيين والقواسم وفي خلافاته مع اخوته وابناء عمومته وفي تأليب المتآمرين على اخيه ماجد. وقد كان ثويني اقرب أولاد السيد سعيد اليه رجاحة عقل وشدة دهاء وقوة جنان وشجاعة في الحروب، وكان طيبا مع اتباعه محبوبا من رعيته، الا أنه انتهى مع الأسف نهاية مفجعة لا يستحقها اذ سطا عليه في نومه انه الاكبر سالم وانهى حياته بطلقتين من مسدسه وكان ذلك في عام ١٨٦٦ .

ولم يستقم الحكم طويلا لسالم اذ ثار عليه ابن عمه عزان بن قيس حفيد قيس بن الامام وبعد حروب دامت سنتين هجم عام ١٨٦٩ على مسقط واستباحها قتلا ونهبا وتدميرا ففر سالم وعائلته بأنفسهم لا يملكون شروى نقير إلى احد سفنهم التي نقلتهم إلى كراجي حيث استقر هناك حتى مات بعد أربع سنوات (سنة ١٨٧٤) .

أما عزان، فقد كان رجل دين وتقوى فسرعان ما التف حوله « المطاوعة » ونادوا به اماما ، وبدأوا يشتطون في طلباتهم عليه حتى اضطروه ان يستبدل بالعلم المسقطي الالبوسعيدي الأحمر اللون علم الامامة الأبيض، فاثار بعمله ثائرة السيد تركي بن السيد سعيد وكان يسكن الهند ويتلقى المال والعون والاغراء من أخيه ماجد سلطان زنجبار ، فزحف سراً واحتل مسقط وتولى الحكم فيها بعد أن وضع بالسيف حداً لحكم الامام عزان وحياته (١٨٧١) .

وبهذا انتقل الحكم في مسقط إلى السيد تركي وظل في ابنائه واحفاده حتى يومنا هذا. فقد ورث تركيا (١٨٧١ – ١٨٨٨) ابنه فيصل (١٨٨٣ – ١٩١٣)، وجاء من بعده تيمور بن فيصل (١٩١٣ – ١٩٣٢) الذي تنازل لابنه سعيد بن تيمور (١٩٣٢ – ١٩٧١) والذي خلفه ابنه جلالة السلطان قابوس.

وليس هنا مجال القول في ما آلت اليه احوال عمان من فوضى واضطراب ومن تدهور وخراب، فقد افل نجمها وضاع صيتها واشتد بها الفقر وخلت خزائنها من المال وركبتها الديون وعصفت بها الفتن والثورات فانغلقت على نفسها وانعزلت عن العالم حتى هيأ الله لها السلطان قابوس الذي اخرجها من الظلمات إلى النور ومن العزلة إلى الانفتاح وبعث فيها دما جديداً وروحا جديداً.

• • •

أما في زنجبار فقد كانت المصيبة أعظم والبلية أعم والمأساة اكثر شمولا وأبعد اثرا.

فقد تولى السلطنة بعد السيد سعيد اكبر ابنائه ماجد، وكان رجلا رقيق الطبع طيب الخلق، وكان عليلا ضعيفاً لا يستطيع أن ينهض بكل امور الدولة فاستغل أعوانه ثقته بهم واعتماده عليهم لمصالحهم الخاصة فأثاروا عليه نقمة العامة وسخطهم وثار به اخوه برغش ومعه بعض رؤساء قبيلة الحارث مدفوعين بالفرنسيين المتربصين في زنجبار بالانكليز الدوائر. الا أن الثورة لم تنجح وظل ماجد على عرش ابيه حتى وفاته عام ١٨٧٠ وهو دون الاربعين من عمره.

وكانت وفاته آخر عهد زنجبار بالسيادة الوطنية وأول عهدها بالتدخل البريطاني الشامل السافر والذي جر بأذياله تدخل الدول الأخرى.

• • •

وقد خلف ماجدا اخوه السيد برغش وكان عنيفا حاد المزاج غليظ الطبع قاسيا وحقوداً على أهله وقومه(١) ولكنه كان امام الانكليز ضعيفا متخاذلا لا يملك غير الاستسلام لمطاليبهم وأوامرهم.

---

(١) يقال في تصوير العلاقة بين حكم السيد سعيد وابنيه وبين الرعية، ان السيد سعيد انزل الرعية منزلة ابنائه، وانزلهم ماجد منزلة اخوانه اما السيد برغش فانزلهم منزلة خدمه.

ففي ايامه تحركت بلجيكا والبرتغال وايطاليا لاقتطاع اجزاء جديدة من املاكه فلما احتج على ذلك اسكته الانكليز ، ولما سكت ثار عليه العرب محتجين فلما أراد استعمال الشدة معهم منعته بريطانيا من ذلك فلم يحظ بحب العرب أو الزنوج أو برضاء الانكليز واشتدت الشكوى منه حتى تقدم وفد من أعيان اهل زنجبار برئاسة أخيه السيد علي بن السيد سعيد يريدون تنحية هذا السلطان الضعيف. وتشاء الصدف ان يكون السلطان في هذه الأثناء في مزرعته فيخرج لتفقدها فيصاب بضربة شمس فيفقد الحياة على أثرها وهو في السادسة والثلاثين من عمره وبعد حكم دام سنتين .

ومهما يكن من عنصر العمد أو محض المصادفة في هذا الامر فقد نودي بالسيد علي بن السيد سعيد (١٨٥٥ – ١٨٩٣) سلطانا بدل أخيه، وكان السيد علي شابا عليلا ضعيف الشخصية وصل إلى الحكم على اساس الاستعداد « لوضع انفسنا تحت تصرف الحكومة البريطانية لتفعل ما فيه صالحنا » . لهذا فلا عجب ان تجهز بريطانيا على البقية الباقية من مظاهر الحكم العربي في زنجبار. فاقدمت على اعلان الحماية البريطانية على الجزيرة ورفع العلم البريطاني إلى جانب العلم الالبوسعيدي الاحمر اللون وعلى تعيين احد رجالها المستر ماتيوز وزيرا اول للسلطان ثم أقدمت على الغاء الرقيق الغاء تاما وتخفيض راتب السلطان .

وبعد وفاة السيد علي عام ١٨٩٣ حاول السيد خالد بن برغش وكان في الثامنة عشرة من عمره ان يتولى السلطنة الا أن السلطات البريطانية كانت شديدة الكراهية له لنفوره الواضح من البريطانيين وقوة شخصيته والتفاف العرب حوله، فلم تمكنه من الوصول إلى العرش وانما نصبت السيد حامد بن ثويني – حاكم مسقط – ابن السيد سعيد سلطانا على زنجبار وكان اول عمل قام به السيد حامد القسم على القرآن الكريم « بالولاء لصاحبة الجلالة ملكة بريطانيا وحلفائها باعتبارها واياهم اصحاب السيادة على محمية زنجبار » ... الخ .

وقد ظل الرجل وفياً لقسمه رغم شعوره بالاذلال المهين لضياع كل اثر من آثار السلطة والسلطان، حتى توفي في اغسطس عام ١٨٩٦ فاتحا من جديد باب

النزاع على العرش على مصراعيه وقد ولجه للمرة الثانية وبعزم وتصميم السيد خالد بن برغش فقد رأى نفسه اولى بالعرش من غيره وأيده في ذلك جمهور السكان والعساكر وكان تأييدهم له يحمل معاني السخط والاحتجاج على السياسة البريطانية لما عرف عن السيد خالد من تطرف في مناوئة الانكليز وشجب لسياستهم، ولهذا فمن الطبيعي ان لا يرضى الانكليز بتنصيبه سلطانا . وقد استولى خالد على قصر الامارة واجتمع اليه فيه سكان البلد واعيانه وبايعوه سلطانا .

وصبر الانكليز على خالد يومين حيث استدعوا خلالها بعض السفن الحربية التي ما ان وصلت إلى شاطىء زنجبار حتّى بدأت باطلاق النار على قصر السلطان فهدمته وقتلت من اتباع السلطان حوالي الخمسماية نفر وفر الباقون في حين لجأ خالد إلى القنصلية الالمانية [1] .

ونادى البريطانيون بالسيد حمود بن محمد بن سعيد سلطانا (١٨٩٦ — ١٩٠٢) وكان رجلا بدين الجسم متقدما في العمر وقد لبث في الحكم ثمان سنوات عاما ولم يكن وجوده على العرش ليقدم أو يؤخر شيئاً فيما تقرره الحكومة البريطانية .

وفي سبيل حمل الدولة البريطانية على الاعتراف بولده الوحيد السيد علي (١٨٨٦) خليفة له من بعده بدلا من اخيه السيد خالد بن محمد (وهو طبعاً غير خالد بن برغش) فقد وافق السيد حمود على الغاء الرقيق الغاء كاملا في زنجبار وكان عمله هذا ضربة قاضية اتت على ما تبقى من الرخاء . اذ ان تحرير العبيد

(١) أما بقية قصة السيد خالد بن برغش فانه بعد أن التجأ إلى القنصلية الألمانية نقلته باخرة المانية إلى دار السلام وكانت آنذاك تحت حماية الالمان وعاش هناك مكرما حتّى سنة ١٩١٧ حيث احتلت القوات البريطانية دار السلام والقت القبض على السيد خالد وبدأت مآساة هذا الشاب الكريم . فقد نفته السلطة البريطانية إلى سنت هيلانة واستمر بها إلى سنة ١٩٢١ ثم بعثت به إلى جزائر سيشل، وبعد ثلاثين سنة من التشرد والفاقة والمرض قطع على نفسه عهدا الا يعود للمطالبة بالعرش فسمح له عام ١٩٢٥ بالاقامة في ممباسة حيث وافاه الأجل فيها عام ١٩٢٧ ومع هذا فقد منعت امه العجوز وزوجه التعسة من دخول زنجبار حتّى بعد وفاته !!.

كلية قد اخلى المزارع كلية من عمالها فهلك الزرع وهو مورد العيش الوحيد للناس فعم الجزيرة فقر شديد لم تشهد له مثيلا من قبل .

وتوفي السيد حمود في ١٩٠٢ بالفالج عن خمسة وخمسين سنة ، ونودي بابنه السيد علي سلطانا على البلاد محله وكان في السابعة عشرة من عمره فنصب وزيره الاول المستر روجز وصيا عليه حتى بلوغه سن الرشد في عام ١٩٠٥ .

وكان السيد علي قد نال بعض تعليمه في انكلترا وكان ضعيف البنية رقيق الصحة ومصابا بصرع خفيف فكان يقضي اكثر من نصف وقته في اوربا للعلاج والاستشفاء . ولم يكن راغباً في مسؤولية الحكم والسلطان ولا ميالاإلى الابهة والمظهر لذلك ففي شهر مايس عام ١٩١١ التمس من جلالة الملك جورج « اعفاءه من عبء لم يعد قادرا على تحمله »[١] .

وفي نفس اليوم نودي بزوج اخته السيد خليفة بن حارب بن ثويني سلطانا على البلاد .

وكان السيد خليفة خير السلاطين المتأخرين واقواهم شخصية وكان رضي الخلق طيب الطبع كريما ومحبا لرعيته ومحبوبا منهم وقد اكسبه حكمه الطويل ١٩١١ — ١٩٦٠ خبرة وحكمة وتفهما للأمور .

وفي العقد الأخير من حكمه بدأت في البلاد حركات عنصرية مريبة بدأها السواحليون والزنوج وتهدف في مجموعها إلى التخلص من العنصر العربي في البلاد واعتباره عنصرا دخيلا على الجزيرة .

ولم يتفق العرب على رأي موحد في هذا النزاع بل تفرقوا شيعاً واحزابا حسب ما تدفعهم اليه مصالحهم الذاتية وانانياتهم الشخصية فكانت النتيجة الوبال الوخيم والقضاء المبرم عليهم .

وقد مات السلطان السيد خليفة فخلفه ابنه السيد عبد الله وظل حوالي العام فخلفه ابنه جمشيد بن عبد الله .

---

(١) توفي السيد علي في باريس عام ١٩١٨ .

ولا يتسع المجال هنا لشرح التطورات السياسية في هذا الجزء من العالم في هذه الفترة ويكفي ان نعلم ان بريطانيا انسحبت من الجزيرة في شهر ديسمبر (كانون الأول ١٩٦٣) واعلنت زنجبار مملكة مستقلة وبعد خمسة اسابيع انفجر بركان الحقد وقام الزنوج بثورة استهدفت القضاء على كل ما هو عربي. فاستطاع السلطان جمشيد وبعض حاشيته أن يفروا من النهاية الفاجعة وبذلك انتهى حكم الالبوسعيد في زنجبار وحكم العرب فيها فقد وضع الزنج السيف برقاب اشراف العرب واقتادوا النساء العربيات نحو الأسر والذل والاغتصاب وباعوهن بسوق النخاسة بأبخس الاثمان بيع الرقيق فسبحان مغير الأحوال !!.

ورحم الله محي الدين القرطبي حين نعى الاندلس فقال :

لكل شيء اذا ما تم نقصـــان فلا يغر بطيب العيش انسان

• • •

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر تبكي وهي عيدان
على ديار من الاسلام خاليـــة قد اقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد أمست كنائس ما بهن الا نواقيس وصلبـان
فلو رأيت بكاهم عند بيعهـــم لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب طفل وام حيل بينهمـــا كما تفرق أرواح وأبـــدان
وغادة ما رآتها الشمس بـــارزة كانما هي ياقوت ومرجـان
يقودها العلج عند السير صاغـــرة والعين باكية والقلب حيران
بمثل هذا يذوب القلب في كمـــد ان كان في القلب اسلام وايمان

نعم بمثل هذا يذوب القلب في كمد والنفس في حسرة والعقل في حيرة اذ يجد بعض الدول العربية تسارع إلى الاعتراف بالوضع الجديد بعد ٢٤ ساعة فقط وكأنما كانت معه على ميعاد.

فياويلمها خطة ويلم فاعلها.

(٣)

وبعد هذه الالمامة السريعة بتاريخ القوم والبلاد نعود إلى الكلام عن المؤلفة وحياتها. وقد بان لنا ان المؤلفة هي السيدة سالمة ابنة السيد سعيد سلطان عمان ومؤسس حكم البوسعيد في زنجبار. وكان كما رأينا عاهلا عربياً جليل القدر عالي المقام، وكان في بيته – كما تحدثنا ابنته في مذكراتها – أبا عطوفا على ابنائه رفيقاً بهم في غير لين شديداً عليهم في الحق وصارما معهم في واجبات التربية والتعليم وحسن الانضباط. ولكن وفرة مشاكل السياسة والحكم وكثرة الحروب والفتن واضطراره للانتقال بين شقى سلطنته لم تدع له الوقت الكافي للعناية الدائبة بأمر العشرات من بنيه وبناته. وتنمية روح الاخوة الحقة بينهم فأخذت الامهات القياد فكان ان غرسن في نفوس الاخوة والأخوات بذور الغيرة والحقد ونقلن إلى اولادهن جو التنافس والحسد السائد بين الضرائر والرابات وأرضعنهم روح النفرة والشقاق وتولى الاغوات والعبيد تربية الامراء والأميرات وتنشئتهم فتعهدوا بالرعاية والنماء ما غرسته الامهات في نفوس اطفالهن الابرياء من بذور الكراهية والبغضاء فنشأوا متباعدين يكره بعضهم بعضا ويكيد له ويمكر به شر الكيد وأسوأ المكر. لا يرعون لرابط الاخوة حرمة ولا عهدا.

وفي هذا المحيط نشأت كاتبتنا تحت ظل امها الشركسية وكانت كما تصفها لنا صلبة الرأي قوية العزيمة كما كانت كثيرة الورع والتقوى طيبة الخلق وديعة صبورا سموحا تتقبل الامور باستسلام تام للقضاء والقدر وكانت – كما يجب أن تكون – شديدة الحنو على وحيدتها وافرة الحب لها ولذلك كانت عاطفة الامومة تطغي عندها على صلابتها وقوة شكيمتها فلا تصمد كثيراً امام رغبات ابنتها وطلباتها أو لعلها لم تشأ ان تكون وحيدتها أقل دلالا من بقية بنات السلطان وبنيه.

ويبدو لنا أن المؤلفة قد ورثت عن امها قوة الارادة وصلابة العزيمة، ولكنها لم ترث عنها الوداعة والطيبة. فقد كانت في طفولتها ميالة للعب والانطلاق كثيرة النشاط جمة الحيوية عنيدة في رأيها، مولعة باتيان الغريب من الأعمال وكأنها تريد ان تثبت بروزها بين الآخرين وأن تجلب الأنظار اليها وتشد الاهتمام اليها.

فهي تركب الخيل وتحمل السلاح وتبارز بالسيف، وهي تصعد الاشجار العالية وتتعلم الكتابة سراً وتقوم بغير هذا وذاك من أعمال الشيطنة والشقاوة الطفولية، ولعل طباعها هذه هي مفتاح شخصيتها التي تفسر لنا تصرفاتها في مستقبل حياتها والتي تكمن وراء ما تعرضت له من أحداث انتهت بها إلى الغربة والتشرد .

وقد نشأت مؤلفتنا في هذه البيئة ، وكان لها من حماية أبيها ورعاية أمها ما يكبح جماح طبعها ويعصمها عن الشطط . ويبدو لنا من كتابها اعجابها الشديد بأبيها السلطان ، واكبارها الوفير له فهي لا تنقل عنه الا الجوانب الخيرة والصور الزاهية جاهلة أو متجاهلة الجوانب الاخرى التي لا تجري هذا المجرى والتي يذكرها التاريخ عنه .

وهي شديدة الحب والاعزاز لامها حتى جاءت صورتها في هذه المذكرات مثال الطيبة والخلق الحميد، وهي بعد ذلك تخص بالمدح والثناء اثنين من افراد عائلتها هما اخوها ماجد الذي تولى السلطنة بعد ابيه (١٨٥٦ — ١٨٧٠) واختها خولة . وقد وصفت اخاها ماجد بانه مثال السماحة والطيبة وسمو الاخلاق وهو الوحيد من أفراد عائلتها الذي لم يتنكر لها رغم انها جحدت معروفه وتآمرت عليه ولكنه مع هذا لم يبخل عليها بالصفح والغفران .

أما أختها خولة فقد سيطرت على مؤلفتنا بحسنها الفائق وجمالها الفتان وبقوة شخصيتها وصرامتها، وكانت عاملا من عوامل نكبتها فقد تكشف هذا الحسن الخارق عن روح حاقد وغل دفين .

وقد توفي السلطان سعيد ولم تتم مؤلفتنا الثانية عشرة من عمرها، ثم تلته امها بعد بضع سنوات فظلت بعدهما وحيدة نفسها ليس لها من يرعاها ويوجهها غير اختها خولة، وقد ترتب على وفاة السلطان ظهور تغييرات جديدة بين افراد عائلته ونمط حياتهم فقد تغيرت ابعاد الصورة القديمة وتغيرت ادوار الافراد فيها وظهرت للسلطان الجديد حاشية جديدة احتلت مقام الصدارة محل الحاشية القديمة وصارت نساء السلطان سعيد اللواتي كن يمارسن السلطة عن طريق زوجهن مجرد ارامل لا حول لهن عند السلطان الجديد، وهكذا الامر مع الأبناء والبنات الذين فقدوا

صفتهم هذه ولم يعودوا غير اخوة طماعين في العرش . وكان لهذه التعيرات أثرها المذهل في نفس فتاتنا المراهقة التي لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد، فاشتركت بمحض الصدف — أو هكذا تدعي — وبتأثير من اختها خولة في مؤامرة مع أخيها برغش ضد السلطان الجديد ماجد « أخيها الحبيب » — كما تصفه دوما .

وقد نالها من هذه الحركة الرعناء الارهاق والقلق وخسران الصحة والمال وجفوة الأهل والأصحاب فنزحت إلى املاكها في الريف متعبة نادمة وعاشت فيه فترة مبعدة منفية ثم عادت إلى المدينة وصالحها أخوها ماجد وصفح عنها، فعادت بينهما علاقات يمكن وصفها « بالرسمية » دون ان يعود اليها ما كان يربطهما منذ طفولتهما من اخاء عميق وود صاف متين . ولكن « عودة العلاقات » هذه اثارت ضدها ضغينة شركائها في المؤامرة وعلى رأسهم برغش وخولة، وكان تأثير الأخيرة عليها كبيراً، والظاهر انها وهي لما تزل في حدود الثامنة عشرة من عمرها قد حارت في أمرها ولم تعد تعرف ما يجب أن تعمل وكيف تتصرف فاعتزلت أهلها وأصدقائها وفي غمرة هذا الحال النفسية العصيبة والقلق الفكري التقاها تاجر الماني شاب يعمل في زنجبار فتعلق به قلبها وبادلها الحب واتفقا على الزواج، ولعلنا نجد في هذا التصرف الغريب اثرا من نحيزة طبعها المتميز بالاتيان بغرائب الأمور واصطياد أوابد الافعال في محاولة لاثبات وجودها وتوكيد شخصيتها بعد الذي لقيته من الاهمال والجفاء . واذ لم يكن زواجهما ممكنا في زنجبار فقد هربت منها إلى عدن حيث لحق بها صاحبها بعد شهور ثم سافرا معا إلى المانيا حيث ظنا ان المقام سيستقر بهما هناك ويحالفهما الحظ وهناء العيش .

لكن الأقدار كانت لهما بالمرصاد، فقد توفي زوجها بعد وصولهما بثلاث سنوات في حادث اصطدام تاركا لها اطفالاً ثلاثة وتبعة ثقيلة انحطت على كاهلها . وكانت ضربة القدر الثانية وفاة اخيها السلطان ماجد الذي كانت تطمع في ان يعينها في مصيبتها أو أن يسمح لها بالعودة إلى بلادها. وقد تولى عرش السلطنة بعده أخوها برغش الذي كانت شريكته في المؤامرات والثورات ضد ماجد، لكنه لم يغفر لها مصالحتها مع ماجد . وعادت ثانية وحيدة مفردة في بلاد غريبة عنها وبين أناس لم تألف سجاياهم وطبائعهم تحمل على كاهلها عبء تنشئة ابنها وابنتيها .

ولم تذكر لنا المؤلفة شيئاً كثيراً عن حياتها في المانيا بعد وفاة زوجها وعن تجاربها وموارد رزقها ، ولكن يبدو لنا من الاشارات العابرة انها مرت بتجارب قاسية ولاقت الآما كثيرة فهي حين تمر بذكر هذه الأحداث نشعر بما تحسه من مرارة وغصة، ولا نستبعد انها حملت معها من زنجبار مبالغ معقولة من المال بعد أن باعت هناك قبل السفر كل املاكها، كما حملت معها مقدارا لا بأس به من حليها وجواهرها . وقد استعانت بهذا المال في تربية اولادها واعاشتهم ولا بد انها تعرضت في المانيا إلى بعض أعمال النصب والاحتيال فقد خسرت اموالها ثم مرت بعد ذلك بظروف معاشية صعبة جدا [1] . وكانت هذه الظروف وحنينها الدائم إلى بلادها مصدر الحاحها للعودة إلى زنجبار لتستقر وأولادها فيها أو على الأقل لتسترجع ثرواتها وأموالها .

ولكن اخاها السلطان الجديد السيد برغش ١٨٧٠ – ١٨٨٨ كان قاسياً غليظ القلب شديد البغض لها لسبب صلحها مع أخيهما السلطان السابق ماجد بعد مؤامرتهما عليه، ناقما عليها تنصرها وزواجها من أجنبي . لذلك لم يسمح لها بالعودة .

لكن الأميرة بعنادها ودأبها حققت رغبتها بزيارة زنجبار فزارتها عام ١٨٨٥ زيارة قصيرة اثارت قلق الانكليز والسلطان ففرضا عليها رقابة صارمة وحصارا محكماً، واثارت لدى اهل الجزيرة حماسا وفضولا .

وفي هذه الفترة بالذات ازداد النفوذ البريطاني في زنجبار واشتدت قبضته على مقاليد الأمور كما رأينا من قبل، وفي هذه الفترة بالذات ايضاً اشتد التنافس بين بريطانيا والمانيا على استعمار افريقيا الشرقية واستغلال ثرواتها . وكانت كلتا الدولتين قد وجدتا مواضع قدم لهما في القارة السوداء وكانتا تحاولان الزيادة والامتداد .

ويبدو لنا من سياق القصة وسير الأحداث ان الحكومة الالمانية قد اولت هذه الأميرة العربية المشردة بعض العناية والاهتمام، حتى تهيأ لها ان تحصل على لقب

---

(١) كوبلاند – استقلال افريقيا ص ٢٣٦ لندن ١٩٣٩ .

« برنسيس » وان تكون موضع عطف الامبراطور الالماني نفسه ومستشاره بسمارك[1] ولعلنا لا نسيء الظن اذا ما ذهبنا إلى أبعد من هذا وقلنا ان الحكومة الالمانية ربما استغلت وجود هذه الأميرة على أرضها اداة في التنافس الاستعماري على افريقيا بين الامبراطوريتين، ولربما انساقت الأميرة إلى هذا المصير دون وعي أو ادراك منها لما يراد بها، أو ساعدت فيه مدفوعة برغبتها الشديدة في العودة إلى بلادها أو الانتقام من أخيها الحاكم في زنجبار أو لمجرد حب البروز والأتيان بغرائب الأفعال لاثارة الاهتمام بها. وهو – كما رأينا – طبع أصيل فيها.

ولعل هذا هو السر الكامن وراء رفض الانكليز طلبها بالتوسط لها بالصلح مع أخيها السلطان ووراء رفض السلطان نفسه – وخلفه الانكليز – السماح لها بالرجوع إلى وطنها وهو نفسه سر الارتياب والقلق الذي ساور السلطات الحاكمة في زنجبار عند زيارتها المفاجئة لزنجبار – وهو الآخر عمل من أعمال الفجاءة والتحدي – في حماية الأسطول الالماني. فلم تكن زيارة الاسطول الالماني هذه زيارة ود ومجاملة بل كانت مناورة عسكرية تهدف إلى تخويف السلطان وتهديد الانكليز ليرضخا لمطالب الالمان، لهذا كان وجود اخت السلطان مع الاسطول يحمل في طياته معنى الاذلال والاهانة للسلطان الذي لو تعرض لها بأي سوء فان الحملة الالمانية تجد مبررا للتدخل بحجة حماية مصالح احد الرعايا الالمان.

لكن هذه الزيارة على ما يظهر لم تحقق غرضاً سياسيا ملموسا للحكومة الالمانية ولا نفعا شخصيا للأميرة. ولعل الالمان قد اهملوا أو قللوا من اهتمامهم بشأن هذه

---

(١) كتبت مرة إلى اخيها السلطان برغش تنصحه بفك ارتباطه مع بريطانيا ومصادقة الالمان جاء فيها:

« أخي أريدك ان تفهم ان البريطانيين يرغبون في تحطيم اسمك وسلطانك وهم ينتظرون الوقت المناسب لابتلاع زنجبار كما ابتلعوا مؤخرا مصر.

ان حاكم المانيا وكل عائلته يعطفون عليّ وقد ذهبت لزيارتهم عدة مرات فاذا تريدني ان اعمل لك شيئاً مع الامبراطور الالماني فاني اقدر أن اذهب اليه شخصيا واكلمه عنك ... »

كوبلاند: استقلال افريقيا ص ٤٣٧ لندن ١٩٣٩.

الأميرة بعد أن ساد الود والتفاهم بين الحكومتين الانكليزية والالمانية في السياسة الخارجية .

• • •

وهنا تنتهي هذه المذكرات الشيقة فلم نعد نعرف بعدها عن مصير هذه المرأة المغامرة شيئاً الا ما يتناثر من اخبارها هنا وهناك .

ومن هذه الأخبار ان مكتبة هامبورج في المانيا تحتفظ بأوراق الأميرة سالمة وفيها رسائلها إلى أصدقائها أو أجوبة هؤلاء الأصدقاء على رسائلها، وان هذه المجموعة ما تزال تعتبر سرية [١] .

وكل الذي نعرفه بعد هذا ان ابنها سعيد رودولف روث الف كتابا عن جده السلطان سعيد ونشره بالانكليزية في لندن عام ١٩٢٩، وقبل هذا وفي صيف عام ١٩٢٠ زار لندن السيد خليفة بن حارب بن ثويني سلطان زنجبار آنذاك فأقامت له الجمعية الأسيوية حفلة تكريم القي فيها سعيد الحفيد هذا محاضرة قيمة عن تاريخ البوسعيد في عمان وزنجبار ومن غرائب الصدف ان يكون المحاضر هو الحفيد الأول للسلطان سعيد ويكون السلطان المحتفي به هو الحفيد الثاني

وجاء في كتاب « جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار » وهو كتاب مخطوط [٢] ان السلطان خليفة زار لندن مرة اخرى عام ١٩٣٧ وكان معه مؤلف المخطوطة فزاره سعيد بن عمته ورد السلطان له الزيارة في بيته، وقدم سعيد روتي للسلطان قهوة بنية ومكثا يتحدثان طويلا،.. « وفرجنا على محله ورأينا معه كتباً عربية وصور سادات عرب عمان وزنجبار... ونظرنا في مخلفات والدته : مكحلة فضة وشال اخضر وفنجان ذهب وفنجان صيني ووجدنا في بيته كتاب تحفه الأعيان في سيرة اهل عمان وغيرها من الكتب العربية »، ثم يستطرد مؤلف المخطوطة إلى القول « واخبرنا ان عمره ٦٨ سنة وان والدته توفت منذ ١٥ عاماً » .

---

(١) ادل الينا بهذه المعلومات الأخ الزميل الدكتور محمد مرسي عبد الله مدير مكتب الوثائق والدراسات في ديوان سمو رئيس دولة الامارات العربية المتحدة في أبوظبي .

(٢) هو كتاب حققه مترجم هذه المذكرات ويأمل في نشره قريباً .

وعلى ما يثير ذكر مخلفات المؤلفة من شجى وحنين فان الذي يعنينا من هذا الخبر هو التواريخ الواردة فيه لنصل منها إلى تاريخ احداث الكتاب .

وأهم ما يعنينا من هذه التواريخ هو تاريخ ميلادها وتاريخ رحيلها من عمان وتاريخ وفاتها . فأما تاريخ ميلادها فنستطيع تخمينه بين سنتي ١٨٤٤ و١٨٤٥. نستدل على ذلك من قولها ان عمرها كان في حدود التاسعة حين غادر ابوها زنجبار في رحلته الأخيرة وكان ذلك في الرابع من شهر مايو عام ١٨٥٤، وانها لم تكن قد أتمت الثانية عشرة من عمرها عند وفاة ابيها في آخريات عام ١٨٥٦.

أما تاريخ خروجها من عمان فقد كان يوم ٢٦ آب ١٨٦٦ وهو ما اتفقت عليه الروايات وما ايدته المؤلفة حين ذكرت ان عودتها إلى زنجبار كانت بعد تسع عشرة سنة من مغادرتها لها، وعلى ذلك نستطيع القول انها كانت عند خروجها من زنجبار في حدود العشرين من عمرها، وانها كانت في حدود الأربعين من العمر حين عادت إلى زيارة زنجبار عام ١٨٨٥ .

أما وفاتها فيستدل من رواية ولدها انها كانت حوالي عام ١٩٢٢ وكانت في حدود الثمانين من عمرها .

وعلى هذا تكون المؤلفة قد عاشت عمراً طويلا حافلا بالاحداث فقد تتبعت ولا شك أخبار مسقط وزنجبار وتقلب الاحوال فيهما، وسمعت بوفاة اخيها برغش وبالمصير الأليم الذي حل بابنه خالد ولا نعلم شيئاً عن طبيعة علاقتها باخوانها السلاطين وابنائهم من بعدهم، فلعلها ان تكون قد التقت مع السلطان السيد خليفة في زيارته إلى لندن عام ١٩٢٠ وفي زيارته الاولى عام ١٩١١ والتقت بمن سبقه من سلاطين زنجبار من اخوتها وابناء اخوتها ممن اعتادوا على زيارة لندن بين حين وآخر .

كما شهدت في اخريات ايامها انهيار المانيا الامبراطورية وتشرد اصدقائها اعضاء عائلتها المالكة . ولا نعلم شيئاً عن هجرة ابنها إلى لندن وما اذا كانت قد هاجرت معه ام ظلت في المانيا . وكلها أمور تستحق البحث والاستقصاء .

« ٤ »

ونتنقل الآن إلى البحث عن الكتاب وتاريخه :

نشرت هذه المذكرات أول مرة في اللغة الالمانية في برلين عام ١٨٨٦ . وتعترف المؤلفة في مقدمتها انها انتهت من كتابة فصول الكتاب قبل ذلك بتسع سنوات ولم تضف اليه بعد ذلك الا فصله الأخير عن سفرتها الأخيرة إلى زنجبار ، كما تعترف المؤلفة ايضاً انها لم تكن تنوي طبع هذه المذكرات ونشرها ولم تفعل ذلك الا بالحاح من أصدقائها وان الهدف الأول لها من كتابة هذه المذكرات اطلاع أولادها على قصة حياتها وظروف نشأتها وتاريخ عائلتها وأحوال بلادها .

ويخيل الينا انها وقد فرغت من اعباء تربية أولادها بعد عشرين حولا قضتها ولا شك في ألم وعذاب وجهاد مستمر من أجل تنشئتهم وتعليمهم قد مالت إلى شيء من الراحة بعد النصب وتيسر لها بعض الفراغ في الوقت فثارت في نفسها كوامن الحنين والاشتياق إلى بلدها ومرابع طفولتها والتي لم تكن تجد مجالا للظهور ايام العمل والجهاد فلم تجد ما تبل به شوقها وتشغل به حيويتها العارمة ونشاطها الوافر الا الانكباب على كتابة هذه المذكرات، ثم رضيت بنشرها على الملأ تذكيرا لبني قومها بها وبوجودها على طريقتها في الظهور والبروز عن طريق المفاجآت والتحدي ولربما كانت حاجتها إلى بعض المال سبباً آخر في نشر هذه المذكرات .

ومهما يكن دافعها إلى الكتابة والنشر فقد احسنت وأجادت وتركت لنا ذكريات ممتعة واخبارا طريفة ومادة قيمة عن الحياة وتقاليدها في القرن الماضي في ذلك الصقع النائي الذي لا نملك من أخباره الا ما نقله الغربيون لنا . ولا نملك في هذه الحال الا الاعجاب بقدرة هذه المرأة وحيويتها ونشاطها فقد استطاعت أخيراً ان تنجح في ما كانت تحاوله طيلة حياتها وهو خلود اسمها وبروز شخصيتها .

وقد تميز اسلوب هذه المذكرات بالسهولة والبساطة وتميز عرضها بالصدق والعفوية وهي لا تخلو من روح ساخر خفيف ومن قسط من القدرة على السرد القصصي ، كما وانها تتميز بصور شعرية رائعة ورؤى طفولية حلوة وخاصة حين

تسترجع المؤلفة ذكريات طفولتها وصباها وأخبار صديقاتها ولداتها. وحين تتكلم عن والديها وعن أخيها ماجد واختها خولة .

ويحس كاتب هذه السطور بصدق المؤلفة في عرضها لصور الحياة الاجتماعية في زنجبار في القرن الماضي كوصف البيوت والزيارات وحياة الجواري والضرائر وطرق الطهي والطعام وسيطرة الاغوات والعبيد وغير ذلك. بما يجده من شبه وتناظر كبيرين بين وصفها هذا وبين نمط الحياة التي ألفها في طفولته في البيوتات الكبيرة في مدينة البصرة في مطلع هذا القرن، وقد يكون هذا نمطا عاما للحياة الشرقية عند وجهاء القوم في كل المدن العربية أو قد يكون أثرا من آثار العلاقات الوثقى بين البصرة وعمان على مر القرون .

ومما يجب الا يغرب عن البال ابدا ان المؤلفة كتبت هذه المذكرات للجمهور الالماني خاصة والغربي عامة. لتعريفه ببلادها واحوال بني قومها ولم يكن هذا الجمهور في القرن الماضي . وما نظنه بأحسن حالا الآن، على علم بأحوال الشرق وتقاليده وطقوس عباداته . لذلك جهدت المؤلفة في ايضاح ذلك وشرحه مما قد يراه القارىء العربي سردا مملا لأمور مألوفة لديه .

ومما يجب ان يذكر بالشكر والامتنان لهذه الكاتبة العربية انها رغم تنصرها وحياتها الطويلة في بلاد الغرب وتنكر أهلها لها فقد ظلت وفية مخلصة لأهلها وبلادها ودينها الأول، فخورة بهم دوما كما يظهر ذلك من ثنايا كتابها، فهي اذا ما اضطرت إلى ذكر شأن من شؤون الشرق مما لا يستسيغه الغربيون، كحجاب المرأة أو تعدد الزوجات أو تملك الرقيق مثلا، نراها تنبري للدفاع عن الفكرة وتبريرها دفاعا شديداً لا ينقص من نبل قصدها اتسامه احيانا بالبراءة والسذاجة .

وكان من أثر تربيتها الشرقية القويمة ومتانتها ان حياة الغرب لم تؤثر فيها فقد حكمت عليها الظروف للعيش بينهم كل حياتها ولكنها كما يظهر من كتابها لم تستسغ قط نمط حياتهم وتقاليد مجتمعهم .

وقد يقسو البعض في حكمهم على هذه المرأة فهي قد خرقت ولا شك تقاليد

قومها وأساءت إلى سمعة بيتها الكبير وهجرت بلدها وتركت دينها ولكن لعل لها عذرا وانت تلوم ! ويكفي انها دفعت ثمن خطيئتها حياة طويلة في الغربة والتشرد والكفاح المرير من أجل العيش لها ولابنائها. ولعل كتابة مذكراتها هذه ما هو الا مظهر ندامة وتكفير عما صنعت .

• • •

وقد صدرت هذه المذكرات في الالمانية اول مرة عام ١٨٨٦ وترجمت عام ١٨٨٨ إلى اللغة الانكليزية ثم تلتها بعد عام واحد ترجمة فرنسية، وأعيد ترجمتها إلى الانكليزية ثانية ونشرت في نيويورك عام ١٩٠٥ . وهذه الطبعة هي التي وقعت بين ايدينا أول مرة . ثم تفضل أخ زميل مفضال فأرسل لنا مشكورا نسخة مصورة من الطبعة الأولى[١] .

وعن هاتين الطبعتين ترجمنا ترجمتنا العربية هذه .

والترجمة الانكليزية الاولى اكمل وأوفى فقد وجدناها تسهب في الكلام عن بعض المواضيع التي تتجنب الترجمة الثانية الكلام عنها أو تختصره اختصاراً .

وقد جاءت الترجمة الأولى بـ ٣١ فصلا في حين جاءت الثانية بـ ١٦ فصلا، نتيجة ضم بعض الفصول إلى بعضها أو تفريقها عن بعضها وقد أبحنا لأنفسنا حدا وسطا فجعلنا ترجمتنا ٢٦ فصلا . وعدا عن هذه الفروق الشكلية وفروق طفيفة غيرها فان هنالك فرقا اساسيا بين الترجمتين هو أن الترجمة الثانية قد اغفلت تماما ذكر الفصلين العاشر والرابع عشر، على ما للفصل الأخير من أهمية بالغة في رسم ملامح جانبية لبعض أبناء السلطان وبناته .

والمترجمان — بعد — لم يتعرفا على الحياة العربية والاسلامية فجاءت بين سطور كتابيهما بعض الاخطاء في التعبير والاداء لا نظن ان الكاتبة وهي العربية الأصيلة تقع في مثلها . وقد ابحنا لأنفسنا ان نصحح هذه الاخطاء وان نستبدل بالالفاظ والتعابير الواردة في الترجمتين تعابير عربية اصح واصدق دلالة على المعنى المقصود

---

(١) هو صديقنا الدكتور محمد مرسي عبد الله مدير مكتب الوثائق والدراسات .

كقولنا صلاة الفجر بدل صلاة الصباح أو الوضوء بدل الاغتسال لاغراض الصلاة إلى غير ذلك من المصطلحات .

.كما استعملنا في الترجمة بعض الأمثال والحكم العربية التي يكثر الاستشهاد بها في لغتنا العربية لاعتقادنا ان المؤلفة وهي العربية المولد والنشأة والتي تيسر لها ان تحفظ من القرآن الكريم ثلثه، لا بد وانها كانت على اطلاع على هذه التعابير الشائعة ولا بد وانها قصدت اليها في نصها الالماني الأول، فأما ان القدرة قد خانتها على ترجمتها بدقة، واما ان المترجمين التالين لها أخذوا المعنى ووضعوه بلغاتهم في قوالب اخرى فضاع أصله العربي .

وكان بودنا ان نستقصي تاريخ هذه المؤلفة وسيرة حياتها استقصاء كاملا، لولا ضيق فسحة الوقت وكثرة ضغط العمل وندرة هذه المراجع وبعدنا القاصي عن مظان وجودها في المتاحف ودور الكتب الكبرى، وعن غيرها من مصادر البحث والدراسة التي يتيسر فيها الاطلاع على هذه النصوص النادرة .

ولعلنا نستطيع ان نكمل هذا النقص اذا ما اسعفتنا ظروف أيسر وموارد أغزر وفراغ أوفر .

وعسى ان يتم ذلك في وقت قريب ان شاء الله تعالى ...

عبد المجيد القيسي

أبو ظبي في ١ / ٨ /١٩٧٤

مقدمة المؤلفة

انهيت منذ تسع سنوات كتابة قصة حياتي هذه، وكنت قد قررت كتابتها ليقرأها من بعدي أولادي حين يكبرون، فلم يكونوا في ذلك الوقت في سن تسمح لهم أن يعرفوا شيئاً عن ماضي حياتي واصل منبتي وعن وطني زنجبار وقومي العرب . وكنت في حال من الوهن والسقم والارهاق، لم أكن اتصور معها بقائي على قيد الحياة امدا يكفي لأن أروي لهم بنفسي سيرة حياتي .

ولهذا وذاك لم يكن نشرها يخطر لي على بال وما وافقت على نشرها مؤخرا الا نزولا عند رغبة الأصدقاء والحاحهم . ولم اضف اليها جديدا سوى الفصل الأخير عن زيارتي الأخيرة لزنجبار .

فعسى أن يكون كتابي هذا رسول صداقتي ومودتي إلى جمهور جديد من الاصدقاء القراء الذين لم يسعدني الحظ بالتعرف اليهم وان تحظى قصتي مكتوبة بالتقدير والفهم الذي حظيت به صاحبتها وهي تحياها، — تشقى أو تسعد بها على مسرح الحياة .

البرنسيس اميلي روث
أصلا
السيدة سالمة بنت سعيد بن سلطان

برلين ١٨٨٦



سلطان عمان وزنجبار ١٨٠٤ - ١٨٥٦

الفصل الأول

بيت الموتني

في بيت الموتني [1] أقدم قصور أبي في جزيرة زنجبار خرجت إلى هذه الدنيا واكتحلت عيناي بنورها لأول مرة . وفيه عشت أسعد أيام طفولتي وأجملها حتى بلغت السابعة من عمري .

ويبعد هذا القصر زهاء الخمسة أميال عن مدينة زنجبار ويقع في مكان ساحر على شاطىء البحر ، ويقوم بناؤه وسط ساحة واسعة الأرجاء بعيدة الأطراف تنبسط بعدها حدائق غناء تزدهر فيها أجمل الورود رونقاً وأبهاها الوانا ثم تحيط بها بساتين كثيفة متشابكة ترتفع فيها سامقة شاهقة أشجار النخيل والمانجو والنارجيل وغيرها من الاشجار الاستوائية الضخمة العود الفارعة الطول .

وقد أخذ هذا القصر اسمه من نهر الموتني ، وهو نهر صغير ينبع في مكان غير بعيد عن القصر ثم يجري نحوه ويخترق بساتينه ثم ما يلبث ان يتفرع داخلها إلى جداول صغيرة متعددة تنساب صافية رقراقة إلى مختلف الاتجاهات تحت ظلال الاشجار الكثيفة الشاهقة أو في مروج الحديقة التي طرزتها الورود والازهار مختلف الالوان ثم تنتهي مياهه جميعها لتصب في ذلك الخضم الأزرق الهادىء الجميل الذي يفصل زنجبار عن القارة الافريقية .

---

(١) ابتدأ السيد سعيد في بنائه عام ١٨٣٢ ويقال انه كان موجودا من قبل وقد اشتراه السيد سعيد أو صادره من صاحبه ثم شرع يغير فيه ويضيف اليه . وقد هجره سكانه بعد وفاة السلطان فتهدم بناؤه ، وقيل ان السيد برغش بن سعيد حفر فيه كثيراً في أمل الحصول على خزائن أبيه . وهو اليوم اطلال متهدمة بعد ان ظل زمناً مخزناً لبعض الحوائج الحكومية .

وكان القصر مكونا من العديد من الأجنحة والبنايات التي أضيف بعضها إلى البعض الآخر في أزمنة مختلفة متباعدة فجاءت متباينة في التصميم والطراز وطريقة البناء مما أفقد المنظر العام للقصر جمال المنظر وحسن الاتساق. وكان مما يشده الوالج الجديد إلى هذا القصر العدد اللامتناهي من المسالك والممرات المتعرجة المتقاطعة التي لا يسلم من التيه في تعرجها وتشابكها الا من طال سكناه في القصر أو كثر تردده عليه. وقد استحدثت هذه المسالك لتصل بين أجنحة القصر المتباينة المتباعدة.

وكانت مخيلة الطفولة تصور لي وكأن أجنحة القصر وأقسامه ودهاليزه وممراته من الكثرة والتنوع بحيث لا يحصرها عدد ولا احصاء. وقد غابت عن ذهني الآن أشكالها ومواقعها الا واحدا منها ما زلت أذكره بكل وضوح وهو جناح الاستحمام.

ويتكون هذا الجناح من أكثر من اثنتي عشرة غرفة تصطف منفردة متجاورة في طرف بعيد من ساحة القصر حتى اننا لبعدها كنا نضطر إلى استعمال المظلات اذا ما رغبنا في التنعم بمتعة الاستحمام في الايام المطيرة. وكان ما كنا نسميه « الحمام الفارسي » – وهو في الحقيقة حمام تركي – في معزل عن البقية وكان في الواقع هو الحمام الوحيد من نوعه في زنجبار من حيث الهندسة والبنيان.

وكان هذا المستحم مراح القوم ومغداهم لا تنقطع عنه وفود الرائحين والغادين منذ الساعة الرابعة صباحا حتى منتصف الليل، فيقصده كل فرد من سكان القصر ومنهم من اعتادوا ان يقضوا فيه الساعات الطوال في اللهو والنوم والمرح فمنه يصرفون أعمالهم وفيه يؤدون صلواتهم ويقومون بما يترتب عليهم من واجبات الكتابة او القراءة ويتناولون أثناء ذلك كله ما يتيسر من الطعام والشراب.

والداخل إلى احدى غرف الاستحمام هذه وكلها – عدا الحمام الفارسي – على طراز واحد، يجد دكة على يمينه وثانية على شماله وقد فرش على كل منهما حصير نظيف دقيق الصنعة يستعمل للجلوس والصلاة. وليس في الغرفة شيء من مظاهر الترف والبذخ كالسجاد والرسوم فهي أشياء مكروه وجودها حيثما يؤدي المسلمون صلاتهم. وصلاة المسلمين تؤدي في أي مكان وفي منتهى البساطة ولا

يشترط الا ان تكون البقعة التي تؤدى فوقها الصلاة نظيفة طاهرة، كما ويفترض ان يضع المصلي على رأسه طرحة نظيفة طاهرة، يفضل ان تكون بيضاء اللون وان لا تستعمل — حرصا على استمرار نظافتها — لغير أغراض الصلاة . لكن الواقع ان هذه القاعدة الأخيرة لا يتقيد بحذافيرها الا غلاة المتدينين .

ومن هذا المكان يدلف المرء من فتحة واطئة صغيرة إلى مكان أوسع يحجبه عن صفاء السماء الزرقاء قبة زجاجية شفافة، ويضم المكان حوضين كبيرين متقابلين سعة الواحد منهما اربع ياردات طولا وثلاث عرضاً وينزل المستحم درجتين حجريتين قبل أن يصل إلى قعر الحوض حيث يغطي الماء الرجل المتوسط الطول حتى كتفيه .

وكل غرفة من هذه الغرف مستقلة عن الأخرى وتفصل بينهم قناطر حجرية مقوسة تتسلقها النباتات والأعشاب ولكل غرفة روادها المعينون من فئة من فئات القصر، والويل كل الويل لمن يتخطى حدوده فقد كانت الطبقية معلما بارزا في بيت الموتني يلتزم بها الجميع كبارا وصغارا .

ولم يكن هذا كل ما في جناح الاستحمام بل كانت هناك اشجار البرتقال — وهي بارتفاع اشجار الكرز في المانيا — تملأ الساحة أمام الجناح بشكل كثيف، وكم كنا نحن الأطفال الصغار نجد بين أغصانها العطوفة الحانية ملجأ لنا وملاذا يخفينا عن رقابة مربيتنا الصارمة المرعبة .

وكان هذا المكان يعج بالناس والحيوان معا يتعايشون بمحبة ووئام لا يعكر أحد الفريقين صفو الفريق الآخر مطلقاً، فكانت هناك الغزلان والنعام والببغوات والطواويس والغرانيق وديوك الهند والروم والبط والوز والغراغر تتهادى في سبيلها بألوانها الزاهية أو ريشها الملون حرة آمنة، وكنا جميعا صغارا وكبارا نحترم هذه الصداقة بين الفئتين فكنا نلاعب هذه الحيوانات ونطعمها بمحبة ووداد، وكانت متعتنا نحن الصغار في أن نتحرى عن البيض التي تتركه الطيور — وخاصة منه بيض النعام الكبير الحجم — ونجمع ما تيسر منه لنقدمه إلى كبير الطهاة ليعمل منه أطباقا شهية وليكافئنا جراء جهدنا هذا بأصناف الحلوى والشكولاته .

وكان لنا نحن الأطفال الذين جاوزنا الخامسة من أعمارنا درسان في ركوب الخيل كل يوم ، أولهما في الصباح الباكر وثانيهما في المساء، وكنا نمارس هذه الرياضة المحببة لنا برفقة أحد الخدم وفي هذه الساحة نفسها . ولكن دون ان نعكر صفو الحياة على أصدقائنا الحيوانات فيها . وكان اذا ما برّز أحدنا في هذه الرياضة منحه ابونا مطيا خاصاً به وكان للبنين منا حق اختيار احدى الخيول العربية العتاق التي تزخر بها اصطبلات السلطان وكانت البنت تمنح بغلا عمانيا أبيض مزركشا بالزينة الغالية ومثقلا سرجه بالحلى النفيس .

وعدا عما في ركوب الخيل من رياضة للجسم فقد كانت دروس الفروسية تسلية ممتعة لنا في بلد تنعدم فيه المسارح والحفلات ، كما كانت السباقات العامة للخيل نادرة فيه جدا وان جرت فمن النادر الا تنتهي بحادث مؤلم أو كارثة محققة .

وقد كاد سباق الخيل مرة ان يكلفني حياتي ، ففي غمرة حماسي وأنا أحاول أن أسبق أخي حمدان غفلت عن أمري فوجدت نفسي فجأة أمام جذع طويل بارز يسد عليّ الطريق ويكاد ان يحطم رأسي ، ولو لم ارم في غمرة الفزع والذهول بنفسي أرضا لما نجوت في اللحظة الأخيرة من كارثة محققة .

• • •

ومن المظاهر المتميزة في بيت الموتني كثرة السلالم وغرابة تصميمها، فاما عن كثرتها فحدث ولا حرج . وقد نجد تبريرا لذلك في سعة القصر وتعدد ابهائه وأجنحته . أما وجه الغرابة فيها فهو علوها غير المتناهي وانتصابها الشاقولي المخيف ثم ارتفاع المسافة بين درجات السلم الواحد حتى ليخيل الي انها بنيت للجن أو العمالقة . فاذا كتب لك أن ترقى احداها فانك تصعد وتصعد عموديا دون عطفة في السلم أو مكان للاستراحة فيه ودون ما جدار للاستناد عليه، حتى تنقطع انفاسك وتنهار قواك . اما اذا استعنت بالدرابزين الخشبي فستجده واهيا ركيكا يكاد أن ينهار بين يديك، فاذا انتهيت منه بعد هذا كله سالما فقد وجب عليك الحمد لله حمدا كثيراً . واذا هان الصعود فان النزول عليها أكثر

مشقة واكثر رعبا، فالواقف على رأس السلم العمودي الانحدار يصيبه الدوار ولا شك اذ يجد الارض عنه بعيدة نائية وهو لعمودية السلم لا يستطيع ان يتبين درجاته امامه أو تحت قدميه . واشبه ما يكون حاله بمن يحاول أن يرمي بنفسه إلى البحر من صارية شاهقة الارتفاع في مركب شراعي .

وكانت درابزينات السلالم كما قلت من الخشب وكانت جميعها لكثرة استعمالها واهية مضعضعة لا ينفع فيها التصليح المستمر .

ومن الصور التي لا أنساها صورة الفزع الهائل التي تملك سكان جناحنا حين استيقظوا صباح أحد الأيام ووجدوا ان جهتي الدرابزين في سلمنا قد انهارتا أثناء الليل . وما زالت حتى اليوم أعجب كيف مر الأمر بسلام مع كثرة الصاعدين والنازلين على ذلك السلم في كل دقيقة من دقائق الليل والنهار .

ولم يكن علم الاحصاء معروفا في زنجبار ، لذلك فلا أحد يعرف بالضبط عدد السكان في بيت الموتني . ولكن اذا كان لي أن أجازف بتقدير هذا العدد فما أظنني مبالغة أبدا اذا ما قدرت عددهم بألف نسمة على الأقل . وليس هذا فحسب فأن بيت الساحل وهو قصر أبي في المدينة كان في الواقع أكثر ازدحاما من بيت الموتني ولا يستغربن القارىء هذا العدد فان ضخامته ستتضاءل امام عينيه اذا أخذ بالحسبان ان من مظاهر السيادة والامارة في الشرق أن يحيط الناس أنفسهم بأفواج من الخدم والعبيد .

• • •

وكان من عادة ابي ان يقضي في البيت الأول ثلاثة ايام من كل اسبوع ويقضي الأربعة الأيام الباقية عندنا في بيت الموتني حيث كان يحتل فيه الأجنحة الكبرى المطلة على البحر وتشاركه سكناها زوجته الشرعية الوحيدة وهي احدى قريباته البعيدات .

وكان ابي السيد سعيد يحمل لقبي امام مسقط وسلطان زنجبار . والامامة لقب

ديني لا يمنح للسلاطين لكننا ورثناه عن جدي الأكبر الامام احمد بن سعيد وظل اللقب وراثياً في أسرتنا يحق لكل ابن من أبنائها ان يلحقه باسمه [1] .

ولأني كنت من أصغر اطفال السيد سعيد فلم تتسنى لي رؤيته الا في شيخوخته وعلى هذا فاني لا أتذكر صورته الا بلحيته البيضاء الوقور، وكان طويل القامة نحيل القوام وقور السمت مهيبا. وكانت تقاسيم وجهه تطفح بالرقة والحنان ولكنها في الوقت نفسه تفرض الهيبة والاحترام. ورغم انه كان من رجال الحرب والقتال ويجد متعته بالغزو والفتوح فقد كان لنا جميعاً مثلا أعلى والدا وأميرا. وكانت العدالة مبتغاه والمساواة في المعاملة ديدنه وقد فرضها في بيته وبين رعيته، وكان لا يتأخر عن ايقاع العقاب بأعز أبنائه اذا ما ثبت تقصيره حتى واو اشتكاه اصغر الخدم.

وكان امام الخالق مثال الخشوع والورع والتقوى كما كان – على العكس من كثيرين غيره من الملوك والسلاطين – بسيطا متواضعا بعيدا بطبعه عن التعالي والكبر والجفاء ولكم كنا نشهده ممتطياً جواده متجها إلى دار أحد عبيده ليهنئه وأهله بالأفراح أو ليواسيهم في الأحزان وليغدق عليهم مع هذا أو ذاك الهدايا والعطاء الجزيل.

وكان من عادة ابي ان يناديني « بيبي » اي السيدة العجوز وذلك لاني كنت مغرمة بنوع من حساء الحليب وهو الأكلة المفضلة للعجائز الدرداوات [2] .

• • •

---

(١) الواقع ان السيد سعيد لم يكن يحمل ايا من اللقبين رسمياً. فاما لقب امام فهو ليس وراثيا، وقد حمله من عائلة الا لبوسعيد مؤسسها أحمد بن سعيد اذ بويع بالا مامة ثم انتقل اللقب إلى ابنه سعيد دون أن يعترف له احد بذلك، فلما انتقل الحكم إلى السيد سلطان اتخذ لقب السيد له وورثه ابناؤه عنه، ودون أن يعني هنا النسب إلى رسول الله (ص). ولم يحمل لقب الامام بعد ذلك من عائلة الالبوسعيد الا عزان بن قيس (١٨٦٨ – ١٨٧١) ولفترة قصيرة ولكن يلاحظ ان الاوربيين – رسميين وغير رسميين – كانوا يطلقون لقب الامام على حكام مسقط في حين لم يكن يعنى الحكام بهذا اللقب كثيراً.

أما لقب سلطان فلعل السيد سعيد اخذه بعد انتقاله إلى مسقط ثم ورثه ابناؤه عنه. ولم يحمل أي من سلاطين زنجبار لقب الامام.

(٢) الدرداوات جمع درداء أي التي فقدت اسنانها.

أما أمي فقدْ كانت شركسية بالولادة، عاشت طفولتها مع ابويها واختها وأخيها عيشة هادئة آمنة في احدى مزارع أبيها، لكن حبل الأمن ما لبث أن اختل ونشبت الحرب فجأة وامتلأ المكان بأفواج المغيرين فالتجأت عائلتها الصغيرة إلى مكان تحت الأرض كما كانت تصفه أمي وهي تعني على الأرجح القبو أو السرداب ولم يكونا معروفين في زنجبار يومئذ، لكن الغزاة المغيرين اكتشفوا المخبأ واقتحموه وقتلوا الوالدين وتناهبوا الأطفال الثلاثة الصغار وحملوهم على ظهور خيولها . ولم تسمع أمي منذ ذلك الحين شيئاً عن اختها وأخيها، ولم تكن كثيرة الكلام عنهم . والواقع انها لا تذكر من الحادث وما قبله الا أطيافا شاحبة فقد كانت آنئذ طفلة صغيرة في حدود الثالثة أو الرابعة من العمر، ولكنها اذا ما ذكرت أهلها اكتسب صوتها نبرة شجو وحنين تكشف للسامع توا عما يضطرم في حنايا ضلوعها من حزن عميق وآسى دفين لم يبددهما مرّ السنين .

ولا بد أن أمي دخلت بيت ابي وهي في سن صغيرة جدا لا تتجاوز السابعة فقد خلعت اولى أسنانها اللبنية في بيته، وفيه نشأت وترعرعت رفيقة لاثنتين من اخواتي كن يقاربنها عمرا، ومثلهن ومعهن تعلمت القراءة والكتابة وهو أمر ذو بال في مجتمعنا ظل في مستقبل ايامها يميزها عن نظيراتها من سراري أبي اللواتي كن يدخلن عصمته بعد سن السادسة أو الثامنة عشرة حيث يكن قد فقدن الطموح للتعلم أو يأنفن من مشاركة الاطفال بالجلوس على مقاعد الدراسة .

ولم تكن امي جميلة ولكنها كانت طويلة القامة قوية بنيان الجسم، وكانت بيضاء البشرة ذات عينين سوداوين جميلتين وشعر أسود ناعم طويل ينسدل حتى ركبتيها . وكانت رقيقة الطبع حلوة الخلق ذات نفس سمحة طيبة ولهذا كانت ظاهرة البساطة والتواضع منظرا ومخبرا . ولم يكن يستهويها في الحياة شيء مثل عمل الخير وبذل العون للسائل والمحتاج . وكثيراً ما كانت تزور المرضى من سكان قصرنا بل وكانت تحرص على تمريض البعض منهم بنفسها ان اقتضى الحال ذلك . وما زلت أذكر صورتها وهي تنتقل من مريض إلى آخر وفي يدها كتاب الله تقرأ منه عليهم ما يشجعهم أو يواسيهم أو يسليهم وتدس لهم ما تيسر من الهدايا والعطاء لتدخل على قلوبهم البهجة والسرور .

وقد أكسبها طبعها الرضي وسجيتها السمحة صداقات الكثيرين من سكان بيت الموتني رجالا ونساء وهو أمر يندر حدوثه لامرأة في قصور الحريم العربية .

وكانت امي ربة بيت ماهرة دقيقة في اداء واجباتها حسنة الذوق والترتيب محبة للنظام وكانت لها مهارة ملحوظة في أعمال الابرة والتطريز ، ولكن لم تكن لها هوايات ثقافية متميزة غير الدأب المتواصل على قراءة القرآن وهو كتابنا السماوي المقدس . وفي الحق اني لم أشهد طيلة حياتي امرأة أكثر منها تقى وورعا وايمانا بالله وطاعة له . واني لاذكر الآن احدى الليالي المقمرة شديدة الريح وقد شبت فيها نار قوية في جناح الاصطبلات ، وكان أبي وكبار اخوتي غائبين عنا فارتبك الخدم وحاروا في أمرهم فاشتد لهيب النار وهددت بالامتداد إلى القصر وبلغ الذعر بأحدهم ان انذرنا خطأ بأن النار قد علقت في القصر فعلا ، وطلب الينا الخروج منه طلبا للنجاة فلم يكن من أمي الا أن حملت كتاب الله في يمناها وحملتني في يسراها وخرجت من ابهاء القصر غير حافلة بما تركته خلفها من نفائس المال والمتاع .

أما بالنسبة لي ، فقد كانت أبدا ودوما الأم الطيبة المحبة الحنون . وكنت وحيدتها وكل أملها في الحياة بعد ان فقدت طفلتها الأولى قبل مولدي بقليل ، وان لم يمنعها هذا من انزال العقاب عليّ حين يبدر مني ما يستحق العقاب...

• • •

وكان لأمي مقام ملحوظ عند ابي السلطان . فكان لا يرفض لها طلبا وان كانت هي من جانبها وبطبيعتها قليلة الطلبات لنفسها وان تقدمت اليه بشيء منها فليس لنفسها وانما مما يكلفها به الآخرون . وكان ابي يقدر لها هذه الميزة . وكان من مظاهر تقدير السلطان لها نهوضه اليها من مقعده وتقدمه اليها خطوة او اثنتين وهو امتياز ذو دلالة كبيرة على الحب والتقدير لا يحظى به الا البعض القليل من زوجاته الكثيرات .

وعلى قدر ما أتذكر . فلم يكن لابي السلطان طيلة حياته أو منذ مولدي على الأقل الا زوجة شرعية واحدة . اما الاخريات وقد ترك منهن عند وفاته خمسا

وسبعين فقد كن من الجواري والاماء اللواتي كان يشتريهن أو يتملكن بين الحين والآخر . وكان لفظ الزوجات يطلق عليهن تجاوزا ومن باب التعميم ولا يقصد به على كل حال معناه الشرعي الدقيق .

وكانت زوجته الوحيدة هذه، هي عزة بنت سيف من فرع بيتنا المالك في عمان وكان لها الحكم المطلق والكلمة العليا في بيته . ورغم ضآلة حجمها وقلة حظها من الجمال فقد كانت لها السيطرة المطلقة على زوجها بحيث انه يتبنى عن طيب خاطر كل آرائها وطلباتها . وكانت معاملتها لزوجاته الاخريات ولأولاده جميعا تتسم بالعجرفة والتشامخ وتسقط الاخطاء، وقد كنا نحمد الله على انها كانت عقيما، فلو انها رزقت بطفل لزاد علينا ولا شك عتوها وجبروتها . ولقد كنا، نحن أبناء السلطان وكان عددنا عند وفاته خمسا وثلاثين— جميعنا من أبناء الجواري وعلى هذا فقد كنا متساوين في كل الحقوق لا تمييز بيننا البتة بسبب الدم أو اللون .

وكانت عزة تختص وحدها بلقب السيدة — ويقابلها كلمة بيبي في اللغة السواحلية وهو يساوي لقب « الأميرة » أو يعنيه ولا يطلق الا على سليلات البيت المالك، ولكنها إلى جانب ذلك كانت تحظى بالمقت الشديد لها والخوف الكثير منها من جميع من في البيت من كبير أو صغير في السن أو المقام ولا أذكر احدا في بيتنا شذ عن هذه القاعدة . واني لاذكر اليوم مقدار عبوسها وشموخها حين تمر من امامنا دون ان ينطلق فوها بكلمة أو تحية ودون أن تنفرج شفتاها عن بسمة أو يختلج عضو في وجهها بالبشر أو الرقة ... واذكر عظم الفارق بينها وبين أبينا الشيخ الرقيق العطوف، الذي لم يكن يمر على احد سواء كان من علية القوم أو من أدنى الخدم الا ووجد كلمة طيبة أو تحية حلوة يلقيها اليه بكل ابتسام وبشر .

وكانت رابتي [1] المتعاظمة المتكبرة تعرف كيف تفرض على الجميع مقامها وهيبتها فما كانت تأذن لاحد بالمثول امامها الا أن تستدعيه هي . كما لم تكن تسمح لاحد ان يطيل المكوث عندها ولا اذكر انها خرجت مرة إلى ساحة القصر

---

(١) الرابة — زوجة الأب .

الا محاطة بالعديد من المرافقات والخدم اللهم الا حين تذهب مع أبي إلى جناح الاستحمام لينفردا هناك وقتا طويلا بعد ان يخلى المكان من كل احد . اما داخل القصر فان على من يصادفها ان يقف جانبا ليخلي لها الطريق وكأنه جندي صغير وقد صعق اذ وجد نفسه فجأة في حضرة القائد العام . وقد استطاعت بهذا الاسلوب ان تفرض نفسها على الجميع وفوق الجميع وان تحفظ لها المقام السامي الذي تريده لنفسها . ولكننا – نحن الصغار – لم نكن نعدم وسيلة لاظهار تمردنا عليها ، فقد كان العرف الجاري في بيتنا ان نذهب – كل الأخوة والأخوات – اليها مبكرين صبيحة كل يوم لنلقي اليها بتحية الصباح ولكننا لكرهنا لها كنا نتعمد التأخير في الذهاب اليها حتى يحين وقت الافطار الذي كان يقدم عادة في جناحها ، وبهذه التصرفات الطفولية وأمثالها استطعنا ان نقلل من الهالة التي كانت تريد ان تحيط بها نفسها . ومع كل هذا فان الحق يقتضيني أن أعترف ان وجودها لم يكدر كثيراً صفو الحياة وجمالها في بيت الموتني .

• • •

وكان بعض كبار اخوتي واخواتي يسكنون معنا في بيت الموتني وكان منهم من يكبرني بأجيال ومنهم من يؤهله عمره أو عمرها لأن يكون جدي أو جدتي. فمن ذلك مثلا ان علي بن سعود بن اختي الكبرى زينة كان يكبرني بعشرات السنين ولما رأيته لأول مرة وكنت دون السادسة من عمري كان الشيب قد تسلل إلى لحيته وكان ابنه اكبر مني بسنوات وكانت اختي زينة قد عادت إلى السكن بدار ابيها بعد ان استشهد زوجها في احدى حروب أبي .

وخلافا للرأي الشائع في هذه البلاد فلم يكن في بلادنا تفضيل للبنين على البنات ولا أذكر انني شهدت في حياتي أبا أو أما فضلوا ابنا لهم على بناتهم لمجرد كونه ذكرا . فهذا الوهم الشائع في الغرب لا أساس له البتة ، واذا كان المشرع قد ميز البنين ببعض الحقوق في بعض الحالات – كحالة الميراث مثلا – فان هذا التمييز القانوني لا وجود له البتة في المعاملة البيتية للأطفال . ولكن كما يحدث هنا في المانيا أو في غيرها من بقاع العالم يحدث في ذلك البلد الشرقي

أيضا، وذلك بأن يختص احد الأبوين أو كلاهما – وبالسر لا بالعلن – أحد اطفالهما – ابنا او بنتا – بنوع من الحب والرعاية يفوق ما يخصان به أولادهم الآخرين وهذه كما أراها عاطفة انسانية طبيعية لا غبار عليها.

وهكذا كان الحال مع ابي، فقد كان طفلاه المفضلان اثنتين من بناته وهما اختاي شريفة وخولة، وفي مرة من المرات كنت العب مع أخي الحبيب حمدان فأصابني منه دون قصد سهم لم يسبب لي والحق الما كبيرا، وحال ما وصل الخبر إلى علم ابي – ولا أعلم كيف – ناداني قائلا :

– سالمة ابعثي لي بأخيك حمدان إلى هنا.

ولما وصل اليه حمدان كان جزاؤه منه تأنيبا قاسيا ظل يذكره على مدى الأيام.

• • •

وكان أطيب مكان لنا في بيت الموتني هو المنظرة وكان اسمها الشائع بيننا هو البنجلة ولعله اسمها باللغة السواحلية. وتقع امام القصر قرب شاطىء البحر، وكانت بناء دائري الشكل مفتوحاً من جميع اطرافه عظيم السعة بحيث تتسع مساحته لأية حفلة بالو تقام فيها لو ان هذا النوع من اللهو كان معروفاً عند قومنا. وكانت البنجلة بسقفها المرفوع فوقها كالخيمة تشبه إلى حد ما ارجوحة الخيل في مدن الألعاب، وكانت أرضيتها وسقفها ودرابزيناتها كلها من الخشب الثمين اللماع.

ولم يكن في البنجلة من الاثاث والمتاع شيء سوى العدد العديد من كراسي الخيزران ولعلني لا أبالغ اذا قلت انها تبلغ عدة عشرات. وسوى منظار مكبر (تلسكوب) منصوب في طرف القاعة من جهة البحر كنا نستعمله للفرجة والتسلية، وكان منظر البحر من هذا المكان رائعاً آخاذا.

وكان من عادة السلطان ان يقصد هذا المكان مرتين أو ثلاثا في اليوم لتناول القهوة فيه ومعه زوجه عزة بنت سيف والبالغون من ذريته ومن يتيسر من أمهات أولاده.

ولانتظام أوقات حضوره إلى هذا المكان فقد كان مقصد أفراد العائلة ممن يريدون أن يكلموه في امورهم الخاصة وعلى انفراد.

وكان يحلو لابي العزيز ان يتمشى في هذا المكان فكان يقضي فيه الساعات الطوال اطراف النهار يقطعه جيئة وذهابا مقطب الحاجبين غارقاً في تأملاته وأفكاره، وكان يضلع بعض الشيء في مشيته من أثر شظية مدفع اصابته في احدى حروبه واستقرت في احدى فخذيه واثقلت مشيته وكانت تعاوده منها بعض الآلام أحياناً (١) .

وكان المركب الرحماني، مركب والدي الخاص، رابضا امام البنجلة طوال العام ولم تكن له في الظاهر من وظيفة الا ايقاظنا بمدافعه الهادرة في ليالي رمضان لتناول السحور، آخر وجباتنا الليلية، والا تزويدنا بالرجال الذين يجدفون لنا القوارب الصغيرة كلما أردنا القيام بجولة بحرية صغيرة .

وكانت هناك صارية شاهقة العلو تنتصب أمام البنجلة وترتفع عليها أعلام الاشارات البحرية التي ترشد السفن في قدومها واقلاعها، والتي تستعمل أيضاً لاستدعاء بحارة المراكب ونوتية السفن والقوارب .

أما بالنسبة إلى جناح المطابخ فكان شأنه شأن المطابخ في بيت الساحل يعج بالعاملين فيه من مختلف الجنسيات وكانت اطباق طعامنا الشائعة تتنوع بين العربية والتركية والفارسية والروسية تنوع الافواج العديدة من سكان هذين القصرين .

ولكن تعدد الجنسيات لم يؤثر على اللباس فقد كان الزي العربي هو الزي الوحيد الذي يجب الظهور فيه في بيت المتوني، فاذا ما وصلت القصر شركسية بثيابها الوطنية المزركشة أو حبشية بزيها الفضفاض ذي الالوان الصارخة، كان عليهما ان يستبدلا بهما خلال ثلاثة ايام لباسا عربياً تقدمه لهن احدى أمينات القصر .

وكما أن من مظاهر الجاه هنا ان تظهر المرأة بالقبعة والقفاز . فان من مظاهر الحياة في بلادنا ان تتزين المرأة بالحلي والمصوغات، والواقع ان الزينة بالحلي عندنا

---

(١) اشتهر السيد سعيد بالجرأة والاقدام وبكثرة الحروب والمعارك . وقد اصيب من جراء ذلك عدة مرات ببعض الجراح كان أهمها اصابته بشظية مدفع في معركة بني بو علي عام ١٨٢١ وهي التي تشير اليها المؤلفة وكان التهاب هذا الجرح من اسباب وفاته .

أمر شاسع إلى حد ان الشحاذات بضعن عليهن حليهن ومصاغهن وهن يقفن في منعطفات الطرق يستجدين المارة .

وكان ابي يحتفظ في قصريه في زنجبار وفي قصره في مسقط بعمان بكنوز رائعة من الذهب واللؤلؤ والجواهر ، فالى جانب العملات الذهبية من جنيهات انكليزية وفرنسية واسبانية ونمساوية فقد كانت خزانته تعج بالمجوهرات النسائية النادرة المثال والنفيسة الصنع من أصغر الأشياء إلى التيجان المرصعة بدرر الماس والأحجار الكريمة، وكانت هذه الكنوز محفوظة للأهداء والعطاء . وفي نطاق العائلة، وعدا عن هدايا الضيوف والزوار والأغراض السياسية ــ فاذا ما زادت العائلة فردا جديدا، زوجة جديدة كانت ام مولودا جديداً، انفتحت أبواب خزائن الكنوز لتخرج منها الهدايا النفيسة الثمينة التي تليق بالمناسبة وبمقام القادم الجديد .

وكان من عادة السلطان اذا ما ولد له طفل جديد ان يزوره وأمه في اليوم السابع حاملا اليهما نصيبا مجزيا من هذه الهدايا ويكون حظ المولود في الغالب أجزل من حظ الوالدة . وكذلك كانت عادته مع زوجاته الجديدات فكن يمنحن نصيبهن من الذهب والجوهر والمال حال وصولهن القصر كما ويخصص لهم كبير ناظري القصر السكن والخدم والضروريات الأخرى .

ورغم أن والدي كان يتوخى منتهى البساطة في ملبسه ومظهره فقد كان شديد التدقيق والحزم مع افراد عائلته في هذه الناحية فلم يكن ليسمح لاحد من سكان القصر سواء كان من الخدم ام الأولاد أو الزوجات أن يظهر امامه في غير كامل زيه وزينته .

وقد كانت العادة لنا، نحن البنات الصغيرات أن تجدل شعورنا على شكل ضفائر صغيرة قد تبلغ العشرين عددا في بعض الأحيان ثم تربط هذه الضفائر بأشرطة رفيعة ملونة، ثم تجدل نهاياتها في ضفيرة واحدة تتدلى من وسطها على قفانا القطع الذهبية الدقيقة الصنع والمفصصة بالأحجار الكريمة والجواهر النفيسة، وكانت التسريحة الأخرى، وهي الأجمل والأليق، ان تترك الضفائر ونهايات

الأشرطة مدلاة على ظهورنا دون ضفر ويعلق في نهاية كل منها قطعة ذهبية قد حفرت عليها آية قرآنية ، وكانت هذه الحلي ترفع عن رؤوسنا أثناء النوم ثم تعاد إلى مكانها في صبيحة اليوم التالي .

وكان من تمام الزي الرسمي لنا، نحن البنات الصغيرات، وحتى نبلغ سن الحجاب، ان نرتدي فوق فساتيننا المعتادة قميصاً فضفاضاً يغطي أجسامنا بصنع من قماش شفاف يطرز أحياناً بخيوط من الذهب والفضة فيكشف عن جمال الفستان ولكنه يحجب مفاتن الجسم التي يظهرها الفستان عادة .

وفي صبيحة أحد الايام غافلت مربيتي وتسللت من غرفتي خلسة دون ان أضع هذا القميص قاصدة مجلس والدي طمعا في كميات الشيكولاته الفرنسية التي اعتاد أن يوزعها على اطفاله كل صباح . ولكني بدلا من ان اتسلم الحلوى المرتقبة فان والدي أومأ الى احد الخدم لاخراجي من الغرفة وقد حملني هذا الخادم وأعادني من حيث أتيت إلى مربيتي المرعبة . ومن يومها تعلمت ان لا اظهر في الحضرة الأبوية الا بكامل زينتي ولباسي .

• • •

وكان من بين صديقات امي الحميمات اختي زجان وهي حبشية الأم وتقارب امي عمرا وأثنتان من زوجات ابي هما مدينة وسارة وكانتا شركسيتين مثل امي وقد جاءتا من نفس البلد الذي جاءت امي منه . وكان لسارة طفلان يكبرانني سنا هما ابنتها الكبرى خديجة وابنها الاصغر ماجد . وكانت امهما شديدة الحب لهما كثيرة التعلق بهما، كما كانت تغمرني بحب وحنو وافرين وكانت امي من جانبها تختصهما بالحب والرعاية لا تفرق بيني – أنا ابنتها الوحيدة – وبينهما، فنشأنا نحن الأطفال الثلاث وكأننا اخوة أشقاء .

وكانت سارة ضعيفة البنية معتلة الصحة تتوهم دوما ان ايامها في هذه الدنيا لن تطول، وكانت كثيرة الهم على مصير طفليها من بعدها . ولهذا فقد تعاهدت وأمي على انه اذا ما اخترمت المنية حياة احداهما فان الباقية منهما على قيد الحياة ترعى اطفال الراحلة رعايتها لاطفالها كما كان شأنهما في حياتيهما .

وحين حان الاجل ورحلت سارة عن هذه الدنيا كان ابناها قد بلغا من العمر سن الفتوة والادراك بحيث لم يعودا بحاجة إلى رعاية خاصة، ومع هذا فقد وفت أمي بوعدها لصديقتها فأسبغت على خديجة وماجد مثل ما كانت تسبغه عليّ من رعاية واهتمام.

• • •

وكانت العادة في عائلتنا ان يبقى الأمراء – اي الذكور من ابناء ابي – تحت رعاية امهاتهم حتى يعلن عن بلوغهم سن الرشد في الثامنة عشرة أو العشرين من أعمارهم. وكان هذا الاعلان يتأخر حينا أو يتقدم تبعا لسلوك الامير ومقدار نضجه وحسن تصرفه وتبعاً لرضى الوالد عنه ويتم بمراسم تقليدية يترأسها السلطان وكبار القوم من وزراء وقضاة.

وكان الاعلان عن بلوغ الامير مرحلة الرجال امتيازا يتلهف عليه الفتيان في بلادنا كما هو الحال في كل بلاد العالم على حد سواء، فهو يعني بلوغ الفتى مرتبة الرجال وفي عائلتنا كان يعني إلى جانب ذلك استقلال الامير في اموره وتملكه دارا مستقلة لسكناه يتبعها العديد من الخدم والحشم وعدداً من خيار الجياد عدا عن مكافأة شهرية مجزية تجري عليه طول الحياة.

وعلى هذا المنوال منح ابي اخي ماجدا هذا الامتياز وقد استحقه قبل السن المعتاد لدماثة خلقه وحسن تصرفاته. فقد كان مثال التواضع والخلق الكريم وقد كسب بأخلاقه الرضية وطبعه السليم وعطفه الوافر محبة الجميع واحترامهم.

وبالنسبة لنا، امي وأنا، فما كان يمر اسبوع واحد الا ويركب الينا في حاشيته (فقد كان كأمه الراحلة يسكن بيت الساحل) ليؤدي التحية إلى أمي ويتفقد أحوالنا ثم ينتقل ليشاركني العاب الطفولة وكأننا طفلان في سن واحد رغم انه يكبرني باثني عشر عاما.

وفي أحد الأيام وصل الينا ماجد وعليه علائم السعادة والغبطة وأنهى إلى أمي بشرى رضاء الوالد عنه. فقد أعلن الوالد بلوغه سن الرشد ومنحه حرية التصرف

ووهبه دارة خاصة به . وقد توسل إلى أمي ان ننتقل للسكن معه واخته في دارته الجديدة . كما أرسلت خديجة رسالة إلى امي بهذا المعنى .

ورغم تقدير امي لاريحتيه ودعوته ورغم ما تحمله من المحبة والود له ولخديجة فانها رفضت أن تلبي رجاءه دون علم السلطان وموافقته ووعدته ان تفاتح والده بالأمر . ولكن ماجد اختصر الطريق ووفر على أمي هذه المتاعب فذهب لتوه إلى السلطان (كان يومها في بيت الساحل) وفاتحه بالأمر واقنعه بفكرته فأقره أبوه عليها . ثم ما لبث ان عاد الينا في اليوم الثاني حاملا الأذن المنتظر. وهكذا اصبح انتقالنا من بيت الموتني امرا مقضيا . وقد ظل ماجد ذلك اليوم يبحث الأمر مع أمي وقتا طويلا حتى استقر رأيهما على تأجيل الانتقال أياما معدودات ليتيسر فيها لنا جمع متاعنا وله ولخديجة تهيئة السكن الجديد واعداده لقدومنا .

الفصل الثاني

بيت الواتورو

لم تكن النقلة من بيت الموتني هينة على أمي، فعدا عن كونها عزوفا بطبعها عن التغيير والتجديد، فقد تعلق قلبها بهذا البيت الذي دخلته طفلة فصار منذ ذلك الحين كل دنياها وعالمها ففيه قضت كل أيام حياتها لم تخرج منه الا لماما ولزيارات نادرة قصيرة لا تتجاوز الساعات المعدودات على مدار العام. وقد الفت العيش في هذا البيت وأحبته كما أحبت أهله وأحبوها وشاطرتهم افراحهم ومآسيهم ومحضتهم صفو الود والولاء، وكان يعز عليها أن ترحل عنهم وتفارق أصدقاءها في هذا البيت وهم كل أصدقائها في هذه الدنيا ولاسيما صديقتاها المفضلتان مدينة وزجان.

ولكن أمي ضحت بكل هذه المشاعر ووأدت عواطفها الشخصية ورضيت بالانتقال من بيت الموتني اعتقادا منها – كما اعترفت لي فيما بعد – انها قد تكون في المكان الجديد اكثر نفعا لخديجة وماجد أولاد صديقتها الراحلة سارة. وأقدر – من ثم – على الوفاء بعهدها لها.

ولم يكن حزن أهل الدار على فراق أمي بأقل من حزنها على فراقهم فما ان شاع خبر رحيلنا عنهم حتى بدأ العتب يأتيها من كل صوب والأسئلة تنهال عليها من كل صديق وصديقة «أحق انك مللت العيش معنا يا جيليفدان» (وكان هذا اسمها) وقررت الرحيل عنا؟ ما الذي غير قلبك نحونا؟» إلى آخر هذه الأسئلة. وكان رد أمي اليهم ان النقلة لم تتم بأرادتها وانما هي قضاء من الله لا مندوحة عنه.

ولربما تصدم كلمة «قضاء من الله» تفكير بعض القراء فيمطون شفاههم

سخرية أو يهزون اكتفافهم استخفافا بالفكرة وكاتبتها . وهؤلاء ولا شك ممن اغلقوا أبصارهم وبصائرهم دون عظمة الخالق المتجلية في الأرض والسماء وتجاهلوا ارادته العليا معتقدين ان الصدفة لا غيرها هي التي تقرر مصائر الانسان.

ولكن من الواجب أن يذكر هؤلاء القراء ان صاحبة هذه المذكرات انما تروي هنا ذكرياتها عن الحياة العربية في البيوت العربية حيث لا وجود هناك البتة لكلمتي الصدفة والطبيعة، كما يجب ألا يفوت هؤلاء القراء ان الكاتبة قد ولدت ونشأت على دين الاسلام، والمسلم يؤمن بأن الله ليس هو الخالق والحافظ والقابض فحسب بل هو العلي المهيمن المدبر ايضا وانه لا يكون شيء الا ان يشاءه وان ارادته - لا ارادة الانسان - هي العليا والسائدة في كل الأمور صغيرها وكبيرها .

ورغم لوعة الحزن واكتئاب الفؤاد فقد انهينا في بضعة الأيام المحددة استعداداتنا للسفر وأخذنا ننتظر عودة ماجد ليشرف بنفسه على رحلتنا . وكان يتملكني في هذه الفترة شعوران : شعور بالحزن لفراق لداتي ورفاق طفولتي وبالاخص أخي حمدان وأختي رولاب وشعور آخر بالفرح للخلاص إلى الأبد من معلمتنا الشديدة القسوة المرعبة الملامح .

وكان جناحنا خلال هذه الأيام أشبه ما يكون بخلية نحل كبيرة يعج بالزوار المودعين بين غاد ورائح، وكان كل مودع يحمل معه من هدايا الوداع ما يتناسب مع مقامه ودرجة عاطفته نحونا . وهدايا الوداع عادة شائعة عريقة في بلادنا يقدمها الناس إلى اصدقائهم عند السفر بل وحتى عند انتهاء الزيارات القصيرة . وما من أحد يستطيع اقناع العربي بالامتناع عن تقديم هديته إلى صديقه المسافر مهما قلت قيمتها . وأذكر بهذه المناسبة انني - وكنت لما أزل طفلة صغيرة - ذهبت مرة مع امي وجمع من النساء في نزهة إلى احدى المزارع ، ولما أوشكنا على مغادرة المكان وركوب زوارقنا للعودة إلى بيت الموتني أحسست بيد تربت على كتفي بلطف فلما التفت ورائي وجدت زنجية عجوزا تحمل بيدها صرة صغيرة ملفوفة بورق الموز قدمتها الي قائلة بهمس « انها لك يا سيدتي الصغيرة وهي أول شيء

ينضج في مزرعتي ، ولشدة فرحي اسرعت بنزع الأوراق لأجد داخلها رأس ذرة حديث الجني . ولم أكن أعرف هذه الزنجية العجوز ولكني علمت بعدئذ انها كانت من خادمات أمي . ولقد كانت هذه الهدية موضع فرحتي وابتهاجي وما زلت استرجع ذكراها بالغبطة والسرور .

• • •

وأخيراً وصل الينا ماجد وأعلن ان سفرتنا ستكون في مساء اليوم التالي وأن اوامر أبي قد صدرت إلى قبطان الرحماني ليرسل الينا مساء الغد مركبين شراعيين يخصص الأول لركوبنا والثاني للحراسة ونقل الحاشية والمتاع .

وكان يوم رحيلنا مليئا بالحركة ووداع الأصدقاء . ومن حسن الحظ فقد كان أبي في بيت الموتني يوم رحيلنا، ولربما تعمد المجيء اليه ليودع امي ويشرف بنفسه على امور الرحلة . وعلى كل حال فقد ذهبنا إلى البنجلة للتشرف بلقائه فيها، وقد كان فيها فعلا وكان كعادته غارقاً في أفكاره وهو يذرع المكان جيئة وذهابا ولكنه ما أن رأى أمي مقبلة عليه حتى تقدم نحوها واستقبلها هاشا باشا ثم انغمسا في حديث ودي هامس امر السلطان خلاله احد القوم ان يقدم لي الشربت وبعض الشيكولاتة ولربما فعل ذلك ليقطع عنه سيل أسئلتي المتتابعة عن السفرة وما اليها والتي كان يضطر من اجل اجابتي عنها إلى قطع حديثه مع أمي .

ويستطيع القارىء — طبعا — ان يتصور مقدار انفعالي وفضولي حول سفرتنا المرتقبة وعن بيتنا الجديد وعن المدينة والحياة فيها بصورة عامة ، فلم أكن حتى ذلك اليوم قد رأيت المدينة الا مرة واحدة فقط ولفترة قصيرة جدا انقضى أكثرها بالسلام على العدد الكثير الذي كان ينتظرنا من الاخوة والأخوات وزوجات الأب

وبعد وداع السلطان انتقلنا إلى جناح صاحبة الحول والعظمة عزة بنت سيف ، حيث تنازلت بالوقوف على قدميها حين استقبالنا ووداعنا ، وكان هذا منها شرفا كبيراً لنا اذ ان عادتها ان تستقبل زوارها وتودعهم وهي جالسة في مقعدها . وزادتنا شرفا اذ سمحت لنا أن نمس أناملها الدقيقة بشفاهنا . قبل أن ندير اليها ظهورنا ... للمرة الأخيرة وإلى الأبد .

وبعد انتهائنا من وداع السيدة الكبيرة أخذنا نتنقل بين الأبهاء والاجنحة صعودا ونزولا لنودع ساكنيها من أصدقائنا، ولكننا اذ لم نجد الا البعض القليل منهم فقد قررت أمي معاودة زيارتهم وقت الصلاة حيث يمكن رؤيتهم جميعاً على وجه التأكيد.

وفي الساعة السابعة مساء القى المركب الكبير المعد لنقلنا مراسيه امام البنجلة، وكان من مراكب أبي الخاصة ويقوده على ما أذكر عشرة ملاحين عدا النوخذة ومساعديه. وترتفع على صاريته راية ابي وشعاره وهو علم احمر اللون خال من كل شارة أو نقش. وفي نهاية المركب أعدت مقصورة للجلوس وهي عبارة عن مكان فسيح تمتد فيه المفارش الحريرية الأنيقة ويتسع لحوالي عشرة أشخاص وتغطيه مظلة واسعة ناصعة البياض لها أطراف تنسدل عند الحاجة على جوانب المكان اتقاء للريح أو المطر أو تأمينا للسرية والانفراد.

وبعد دقائق من وصول المركب جاءنا جوهر العجوز ليعلن لنا بدء الرحلة. وجوهر هذا من قدامى الرجال في خدمة ابي، وقد أمره ورفيقاً له بمصاحبتنا في السفرة والاشراف على راحتنا خلالها. وقد ظل أبي طيلة الوقت في البنجلة يشرف من بعيد على ترتيبات السفر.

واذ آن أوان الرحيل فقد ودعنا أصدقاؤنا وودعناهم بالقبلات التي تخالطها دموعنا الجارية وما زالت كلمات «الوداع... الوداع... مع السلامة» المنطلقة من حناجرهم التي خنقها الحزن والالم ترن في أذني حتى اليوم.

• • •

ولأن الماء كان ضحلا قرب الشاطىء فقد رسى المركب بعيداً عنه بعض الشيء، وكان لا بد للعبور اليه من اختيار احد سبل ثلاثة: فاما ان يحملك احد الملاحين على ظهره عابرا بك الماء واما ان تجلس على كرسي يحمله بك اثنان من أشداء الرجال فيخوضا الماء بالحمل النفيس الثقيل إلى المركب واما ان تعبر سيراً على لوح خشبي يمتد من اليابسة حتى حافة المركب وهذا ما اختارته أمي وكان

يسندها في سيرها أحد لخدم الكهول في حين رفعني بين ذراعيه خادم آخر ونقلني إلى مقصورة المركب إلى جانب أمي وجوهر .

وكانت النجوم اللماعة في السماء والفوانيس الملونة في المركب تنعكس ظلالها على سطح الماء فتضفي على البحر منظراً ساحرا خلابا . وما ان تحرك المركب حتى بدأ بحارته ترانيمهم الهادئة على ايقاع مجاديفهم في الماء، كما هي عادة الملاحين العرب . ولم نكد نترك الشاطىء حتى رحت في حضن امي في نوم عميق لا أدري أطال أم قصر ولكني أذكر اني أفقت منه فزعة مذعورة على أصوات كثيرة تنادي باسمي لم أستطع أن أتبين مصدرها . فلما فتحت عينيّ المثقلتين بالنعاس ادركت ان الرحلة قد انتهت واننا في سبيل مغادرة المركب .

وقد رسى المركب أمام بيت الساحل القائم كما يظهر واضحاً من اسمه على ساحل البحر، وكانت شرفته الكبيرة المطلة على البحر مضاءة بأحسن زينة بالفوانيس الملونة، وكانت مكتظة بجمع حاشد من النساء والأطفال كانوا في الواقع غرباء عليّ وان أدركت على التو انهم لا بد وان يكونوا اخوتي واخواتي وزوجات ابي قد تجمعوا لمشاهدتنا والترحيب بنا . وكان الاطفال منهم اصغر مني سنا وبالتالي فقد كان تلهفهم على التعرف بي اكثر من تلهفي اليهم، وحالما رأى هؤلاء الصغار وصول المركب وفي غمرة فرحهم بوصولي فقد اطلقوا حناجرهم الصغيرة بالنداءات التي أيقظتني من نومي .

وغادرنا المركب بنفس الطريقة التي صعدنا فيها اليه، وما ان وطأنا الأرض حتى انطلق اليّ اخوتي الصغار يحيونني بشوق ووداد لم أكن أتوقعه ويلحون علينا لمصاحبتهم إلى دورهم، الا أن امي اعتذرت لهم عن ذلك خشية ان يؤذي هذا التصرف خديجة التي كانت بدورها تنتظرنا في نافذة بيتها .

والحق ان قرار امي بمنعي من مصاحبة اخوتي على التو واللعب معهم قد حز في نفسي، فقد كنت تواقة إلى هذه اللحظة السعيدة التي طالما رسمت تفاصيلها في ذهني ولكنني لم أجرؤ طبعاً على مكاشفة أمي بأفكاري لانني أعلم علم اليقين انها ان قررت امرا فلن ترجع عنه، فرغم تفانيها المدهش في محبتها الوافرة لي، فقد

كانت شديدة الحزم صارمة العزم قوية الارادة لا تتساهل في الواجب ابدا، ولعلها قرأت أفكاري وأرادت ارضائي فوعدتني بزيارة قريبة إلى بيت الساحل حالما يعود ابي اليه .

وعلى هذا مضينا في طريقنا إلى بيت الواتورو ، بيت ماجد وخديجة ويقع بالقرب من بيت الساحل ويطل مثله على البحر ، وقد استقبلتنا اختي خديجة عند مدخل الدار بالعناق والقبلات ورحبت بنا ترحيبا قلبيا لا شائبة فيه ، ثم قادتنا إلى جناحها حيث دار الخدم علينا بأنواع المرطبات، في حين ظل ماجد وصحبه في غرفة الاستقبال ولم يدخل علينا الا بعد ان استأذنت له خديجة من أمي ، كما تقضي العادة بذلك . وما كان أروع سرور ماجد وأصدق عواطفه اذ تحقق له ان يضمنا في بيته .

وقد خصصت لنا في البيت الجديد غرفة واحدة فقط ولكنها واسعة المساحة كاملة الفرش والاثاث على الطراز العربي المألوف فكانت في الواقع تفي بكل متطلباتنا، وكان أبرز ما تتسم به مصاقبة احدى نوافذها لمنارة المسجد المجاور للبيت . وكان من عادة القوم — حتى أصحاب الثراء منهم — ان يكتفوا بغرفة واحدة . فالعادة هناك ان يرتدي الناس نفس الملابس ليل نهار ، وكانوا لفرط اهتمامهم بالنظافة والطهر يستطيعون الاستغناء عن غرف خاصة للنوم .

وكان الطراز المألوف في ترتيب البيت لدى علية القوم كالتالي :

يغطي السجاد الفارسي أو البسط الناعمة الدقيقة الصنع أرضية الغرف، وتقسم الجدران الناصعة البياض إلى فجوات مقوس أو مزخرف أعلاها ويفصل بين الفجوة والأخرى نتوء عريض من البناء، ويقطع الفجوة الواحدة عدد من الرفوف الخشبية خضراء اللون تصطف عليها أنفس آنية البلور والفخار وأثمنها . والعربي حريص على اقتناء امثال هذه التحف وتزيين غرفه بها، لا يبخل من أجلها بالمال فاذا ما استهوته أو راقت في عينيه مزهرية أنيقة أو صحن نادر من الفخار الصيني أو كأس دقيق الصنع من البلور فلا يهمه ما يدفعه ثمنا لها ذلك لان زينة الدار مقياس ثراء الرجل وعلو مقامه .

ويعتنى عناية خاصة بالنتوآت بين الفجوات فتوضع عليها المرايا، وهي تطلب من أوربا خصيصاً وحسب الاحجام والأبعاد، وتمتد المرآة من سقف الغرفة حتى مستوى الجلوس .

وتخلو الغرف عادة من الصور والتماثيل التي يحرمها المسلمون لان فيها تحديا أو محاكاة لعملية الخلق التي ينفرد بها الخالق وحده، وان كان التشدد في وضع الصور قد فقد حدته مع مضي الايام . ولكن النقص في الصور تغطية وفرة كبيرة في عدد الساعات التي توجد في كل بيت بأعداد كبيرة وانماط مختلفة وهي تعلق عادة في رؤوس المرايا أو توضع الصغيرات منها على الرفوف .

ويحرص الرجال على تزيين غرفهم بالاسلحة التذكارية الثمينة كالبنادق والسيوف والخناجر سواء منها العربية أم التركية أم الفارسية وتزداد قيمة هذه الاسلحة طبعا، ويزداد بالتالي افتخار العربي وتيهه بها ما اذا كانت مما غنمه هو أو آباؤه في الحروب.

ويقوم في غرفة النوم سرير كبير مصنوع عادة من الخشب الغالي ومزين بنقوش محفورة من صنع الهند . ويغطي السرير من جميع نواحيه بكلة من التول أو الموسلين الناصع البياض . وللسرير قوائم عالية ترفعه عن الأرض عاليا بحيث لا يستطاع الوصول إلى الفراش الا بالصعود على كرسي يوضع بجوار السرير أو بالاستعانة باحدى الخادمات ويستغل الفراغ الموجود تحت السرير لأغراض المنام أيضاً بالنسبة إلى مربيات الاطفال أو ممرضات المرضى .

ويندر وجود الموائد في البيوت العربية باستثناء سراة القوم، وعلى العكس من ذلك فان الكراسي متوافرة اعدادا وأنواعا . وكذلك لا وجود لخزانات الملابس ودواليبها في الغرف العربية ويستعاض عنها « بالسحارات » وهي صناديق كبيرة ضخمة لها أدراج متعددة وتحتوي على مخبأ سري لوضع النقود والحلي، وقد تجد في الغرفة الواحدة اعدادا من هذه السحارات مرصوفة إلى جدران الغرفة، وبعض هذه السحارات مصنوع في الهند من خشب نفيس تزينه النقوش المحفورة وبعضها من صنع محلي أو مجلوب من عمان ويمتاز بأصباغه البدائية المتناسقة وجميعها تقريبا

مزينة بمسامير نحاسية صفراء ذات رؤوس مدورة كبيرة وقد صفت على أشكال الأهلة والنجوم .

وثمة ظاهرة غريبة في بلادنا وهي ان النوافذ والأبواب تترك مفتوحة طول الوقت الا في حالات المطر ، ولهذا فان تعبير « التعرض لتيار الهواء » لا معنى له في تلك البلاد .

• • •

ولم يرق لي مكاننا الجديد أول الأمر ، فقد بدا لي بيت الواتورو ضيقا مملاً بمقارنته إلى بيت الموتني . وقد افتقدت في البيت الجديد لداتي واقراني من أخوة وأخوات وأصدقاء، كما افتقدت في البيت الجديد ساحات اللعب الكثيرة الواسعة في بيت الموتني ، وأكثر من هذا وذاك فقد افتقدت نهر الموتني الجميل الهادىء الذي كنت اسيّر في سواقيه العديدة زورقي الشراعي الجميل والعزيز إلى نفسي ، فليس في البيت الجديد أو حواليه نهر أو ما أشبه وكان الماء يأتيه من بئر في جانب القصر . ولطالما سألت أمي « متى نعود إلى بيتنا القديم ؟ وهل سنبقى هنا إلى الأبد ؟ وهل كتب على أن أسير قاربي في حوض الغسيل ؟ » ولاني كنت شديدة الكلف بهذا الزورق فاني لم اسمح لأمي الطيبة الحنون الذي تريد دوما أن تعطى الغير كل ما عندها، عندما طلبت الي قبل رحيلنا أن أهدي هذا الزورق الجميل إلى احد اخوتي في بيت الموتني .

وبالاجمال فقد مررت بتجربة نفسية جديدة لم أعرفها من قبل وأحسست بالضيق والضجر ، اما امي فقد كانت في احسن حالات طبعها الرضي دوما ، وقد انغمست مع خديجة في ادارة وشؤون الدار حتى لم أعد أراها في النهار الا لماما .

ومن الجانب الثاني فقد كان أخي الحبيب ماجد كثير الرعاية لي والاهتمام بأموري، فقد اصطحبني بعد وصولنا بأيام قلائل وطاف بي جميع أنحاء بيته يريني أقسامه ومحتوياته وكان يبدو مسرورا مزهوا به، ولكني لم أر فيه ما يثير اعجابي، فقد كان تعلقي واعجابي ببيت الموتني يغشيان على بصري وفكري، وكنت شديدة الالحاح على امي بالعودة اليه وإلى ملاعبي ولداتي الاحباء على

تلبي ولكني كنت اعلم انه طلب مستحيل التنفيذ من أمي وخصوصا وانها أصبحت فعلا ذات نفع وفائدة في البيت الجديد .

وقد سرني ان اجد في أخي ماجد شخصاً محبا للحيوانات ويقتني مجموعات نادرة منها، وكانت تعجبني منها مجموعة الأرانب البيضاء، وبقدر ما كانت مصدر انسي وابتهاجي فقد كانت مصدر ازعاج وتذمر لأمي وخديجة لما يسببونه للدار من أضرار . وكان لدى ماجد مجموعة من ديوك الصراع جمعها من مختلف أقطار الأرض لم ار مثلها عددا وانواعاً حتى في حدائق الحيوان في اوربا .

وقد اعتدت مصاحبته إلى زيارة الحيوانات وقد قبل بكل طيب خاطر ان اشاركه في هواياته ومسراته هذه، ولم يمض علي وقت طويل حتى جمعت لنفسي – نتيجة لطفه وكرمه – عددا من ديوك القتال خففت علي حياة الوحدة في بيت الواتورو وجعلتها اسهل احتمالا . وكنا في كل يوم تقريبا نأمر العبيد ان يطلقوا سراح الديكة من اقفاصها فنستعرض ابطالها ونشهد بعض النزالات بينهم قبل أن يعود بهم العبيد إلى الاقفاص ثانية .

وليس صراع الديكة بالهواية السخيفة، كما قد يبدو للبعض . فانه عرض مسل يشد انتباه المتفرج ويثير حماسه وينتهي في الغالب نهاية كوميدية مبهجة .

واشتدت بعد ذلك الألفة بيني وبين ماجد فأخذ يعلمني المبارزة بالسيف والرمح والخنجر، كما كنا نخرج إلى بعض المزارع لنمارس الرمي بالبندقية والمسدس رغم عدم رضى الوالدة التي لم تكن لتقر اعمال المبارزة والرماية وتخشي مغبتهما علي ولكني كنت أفضل هذه الهوايات الرجالية على قضاء الوقت الطويل في أعمال الابره والحياطة .

ولم أغفل في اثناء هذا كله دروس الفروسية، فقد امر ماجد عبده سروراً ان يستمر في تدريبي عليها . ومما زاد تعلقي بهذه الهوايات انها اقترنت بتحرري – موقتا – عن الدروس اذ لم يعثر في البيت الجديد على معلمة جديدة لي، فساعد هذا كله على انتعاش معنوياتي واستعادة بهجتي وزوال انقباضي الأول من بيت الواتورو شيئاً فشيئاً .

واذ لم يعد لأمي – كما قلت من قبل – وقت كثير لتخصيصه لي لانهماكها الزائد مع خديجة في شؤون الدار، فقد تعرفت إلى فتاة حبشية اسمها نورين وتوثقت علاقاتنا إلى حد كبير وقد تعلمت منها بعض مبادىء اللغة الحبشية التي نسيتها الآن كل النسيان.

على اننا لم نفقد صلتنا ببيت المونتي كلية، فقد ظللنا على اتصال دائم بأهله، نزورهم – ولكن لماما – فيستقبلنا اصدقاؤنا القدامى بأصدق عواطف الود والترحاب، الا أن صلتنا الدائمة بهم كانت عن طريق الرسائل الشفوية التي ينقلها العبيد بيننا وبينهم. والناس في الشرق لم يتعودوا على كتابة الرسائل حتى وان اتقنوا الكتابة والقراءة وانما يستخدمون عبيدهم لتبادل الأخبار بينهم سواء العائلية منها أم أمور الدولة المتعلقة بالحروب وتنقلات الجيوش أو المفاوضات، وقد قلت من قبل ان من مظاهر الرئاسة والجاه في تلك البلاد ان يمتلك المرء اكبر عدد ممكن من العبيد الذين يكون بينهم عدد من العدائين الممتازين الذين يستطيعون أن يطووا أطول المسافات في يوم واحد وهؤلاء هم نقلة الرسائل والأخبار من مكان إلى آخر حسب ما يأمرهم به سيدهم. ومن البداهة ان يحظى هؤلاء بعناية سيدهم ورعايته وان يخصهم بمعاملة خاصة في المآكل والمشرب تفوق ما يتمتع به اقرانهم العبيد الآخرون فعلى مقدار كتمانهم للأخبار ودقتهم في نقلها تتوقف خطط سيدهم ومشاريعه وبالتالي يتوقف مستقبله كله، ناهيك بما تمتلىء به جعبتهم من اسرار البيوت وأخبار العوائل. وكم أدت خيانة امثال هؤلاء بدافع الحقد والانتقام أو الرشوة والاغراء إلى هدم صداقات طويلة، وإلى حدوث كوارث وبيلة. وهذا ما أدى بالبعض من رجالات البلد إلى تعلم الكتابة والقراءة ليستغنوا بهما من امثال هؤلاء العدائين.

• • •

وقد كشفت لي حياتنا الجديدة عن مقدار كلف اختي خديجة بالحياة الاجتماعية واستقبال الزائرات، فقد كان بيتنا يعج بهم مثل خلية النحل، فلا يكاد يمر يوم واحد في الاسبوع دون ان يمتلأ الدار بأفواج الزائرات يصلن ابتداء من الساعة

السادسة صباحا ولربما استمر مكوث بعضهن إلى منتصف الليل . وكانت الخادمات يستقبلنهن عند وصولهن المبكر و يقدنهن إلى جناح خاص حيث ينتظرن هناك حتّى تستقبلهن ربه الدار في الساعة الثامنة أو التاسعة صباحاً وكن يقضين فترة الانتظار هذه بالنوم تعويضا عما فاتّهن منه نتيجة النهوض المبكر .

ومع أن علائق الود والتفاهم بيني وبين أخي ماجد كانت تزداد وثوقا وعمقا الا انني لم استطع ان أحس نفس العاطفة تجاه اختّي خديجة، فقد كانت اخلاق هذين الشقيقين متباينة تباينا كبيرا، ولم يكن من الصعب، لا على فحسب، وانما على كل من عرفهما من قرب، ان يلاحظ هذا الفرق بين الأخوين وان يعرف من منهما اكثر ودا وبشاشة واكثر استحقاقا للمحبة والاحترام . فعلى حين كان ماجد مثال الطيبة والتواضع والتسامح كانت خديجة حادة الطبع قاسية كثيرة التفقد للأخطاء والانتقاد لها محبة للسيطرة والظهور وكان كل ما ومن هو أجنبي يثير ريبتها واشمئزازها . وعلى الرغم من ضيافتها المشهورة فقد كانت تتضايق حين تطلب منها سيدة أجنبية موعدا للزيارة رغم ان امثال هذه الزيارات لم تكن تطول لاكثر من نصف ساعة أو أربعين دقيقة .

ومع هذا كله فيقتضي الحق ان اعترف بانها كانت ربة بيت نشطة مدبرة ذكية، دؤوبة على العمل لا تعرف الراحة والبطالة لحظة واحدة في اليوم، وكانت اذا توفر لها فراغ من الوقت اشغلت نفسها بتطريز ثياب أخيها ماجد أو خياطة الملابس لاطفال خدمها، وكنت اعرف ثلاث اخوة من هؤلاء الاطفال هم سالم وثاني وعبد الله وكان ابواهم يشتغلان في القصر، وكانوا لطافا محبوبين، ومع انهم كانوا اصغر مني سنا بكثير ولكن لعدم وجود من هم في مثل سني في البيت فقد نشأت بيني وبينهم صداقة متينة استمرت إلى أن تعرفت اخيرا على بقية اخوتي واخواتي في بيت الساحل .

• • •



مدينة مسقط في القرن السابع عشر، كما تخيلها الرحالة الهولندي جان ستريوس

الفصل الثالث

بيت الساحل

وأخيرا حل اليوم الموعود الذي كنت انتظره بأشد اللهفة والشوق، يوم ذهابي – مع أمي وخديجة – إلى بيت الساحل لنقضي فيه يوما كاملا هو يوم الجمعة، وهو يوم العطلة الأسبوعية عند المسلمين .

وقد تركنا دارنا مبكرين في حوالي الساعة الخامسة والنصف صباحا وسرنا ملتفين بعباءاتنا السود، ولم تكن الرحلة طويلة ولا الهدف بعيدا وانما هي خطوات قليلات تناهز المائة ثم كنا عند البوابة الكبرى لبيت الساحل حيث كان يقف عليها سعيد النوبي حارسا وهو عجوز عبوس قمطرير ضن علينا ببسمة حلوة أو كلمة طيبة في حين ابتدرنا بأنواع الشكوى وأصناف التذمر، ومدارها انه لم يزل منذ مطلع الفجر مستمراً في وقفته الرسمية هذه يستقبل الوافدات على القصر ويرد على أسئلتهن .

ولسعيد النوبي هذا – كما عرفت من بعد – دالة خاصة على سكان القصر، فهو من عبيد أبي القدامى الأوفياء، وقد هرم وابيضت لحيته الطويلة في خدمة مجيدة مشرفة لأبي، وقد تعمدت ذكر اللحية الطويلة لان من عادة العرب حلق شعر الرأس واطلاق اللحى، وكان أبي يخص خادمه هذا بعطف خاص ومعاملة متميزة ملحوظة لا لطول خدمته له فحسب بل وأيضاً لانه استطاع يوما ما ان يحول دون اقدام أبي على عمل متسرع كان سيندم عليه طول حياته لو لم يحبطه هذا النوبي الوفي، ذلك انه في لحظة من لحظات الغضب العارم شهر ابي سيفه ليفلي به شخصاً عزيزاً عليه اثار غضبه، ولكن هذا النوبي بوفائه وجرأته استطاع

أن يمسك السيف في يد أبي ويحول دون نزوله على رأس ذلك الشخص وبالتالي ان يحول دون وقوع الكارثة .

وقد حفظ له أبي جميل وفائه هذا وحباه بالمزيد من العطف والتقدير .

ولكن أين لنا نحن الصغار الأشقياء ان نقدر للعمر مقامه أو نلقى بالا إلى ماضي هذا الحارس العجوز وحسن بلائه ! ! لذلك فقد كان سعيد العجوز هدف شقاوتنا الصبيانية في ساعات اللعب الصاخب نركبه بأنواع الحيل والمكائد وكنا – على وجه الخصوص – مولعين بنشل المجموعة الكبيرة لمفاتيح القصر منه واخفائها في اركان القصر ودهاليزه وغرفه لنضحك بعدئذ ونحن نشاهد هذا العجوز الوفي ينقب في كل ركن وزاوية من أركان القصر في التفتيش عنها وهو شارد اللب زائغ البصر وكأن بلية عظمى قد وقعت عليه، وأظن ان ما من ركن في غرفة من غرف بيت الساحل الكثير عددها الا وخبأت فيه المفاتيح هذه يوما ما. وكانت لأخي الأصغر جمشيد قدرة فائقة على اخفاء المفاتيح في اماكن يتعذر علينا، نحن رفاقه في اللعب والمؤامرة ، ان نعثر عليها .

• • •

وقد صعدنا أول وصولنا بيت الساحل إلى الطابق الثاني منه حيث وجدنا النسوة وكلهن في عمل دائب وحركة ناشطة في حين كان العبدة المتدينون من أهل الدار يؤدون صلاة الصباح بعيدين عن الانظار، ولم يكن للاقتراب منهم من سبيل فالمسلم حين يؤدي صلاته ينقطع كلية عن العالم الخارجي وما من احد يجروء على أن يقتحم عليه خلوته ويقطع صلاته حتى ولو اشتعل البيت نارا .

وكانت زيارتنا لهذا البيت قد رسمت وأعدت بحيث تتفق مع وجود أبي فيه، بل الواقع ان وجوده هذا كان سبباً في وجود حشد هائل من الزائرات في بيت الساحل ذلك اليوم .

ويجب ألا يظن ان كل هاته النسوة كن من اصدقائنا ومعارفنا ، فالصحيح غير هذا تماما، فالكثيرات منهن غريبات علينا بالمرة وقد وفدن من بلدنا الأول عمان لطلب الرفد والعون من أبي الذي كان يحقق لهن أملهن فيه، فوطننا الأم عمان

بلد فقيرة، وكذلك حال أقاربنا هناك . وما بدأ الثراء عند ابي الا بعد استيلائه على جزيرة زنجبار .

واذا كان العرف الاجتماعي في بلادنا يمنع المرأة عن مقابلة الرجال الأغراب عنها، فانه يستثنى من ذلك حالتين اثنتين هما مقابلة السلطان ومقابلة القاضي. والسبب هو ان هاته النسوة يجهلن الكتابة فلا يستطعن ان يرفعن ظلاماتهن كتابة، لهذا لم يبق لهاته المعوزات أو المظلومات الا أن يحضرن بأنفسهن لشرح أوضاعهن شفاها وأن كلفهن هذا مشقة النقلة القصيرة من آسيا إلى افريقيا . وفي كل الأحوال فقد اعتاد أبي أن يسمع هذه الظلامات ويبت فيها ثم يكرم أصحابها أو صاحباتها، كل حسب وضعه ومقامه، دون ان يحرج السائلين بالتحري الدقيق عن حقيقة حاجتهم كما هو الحال في اوربا لان من المفروض عندنا ان السؤال من الغير مصدره الحاجة الفعلية وهو ليس تسلية ولا لهوا وما من امرىء يريق ماء وجهه بالسؤال ان لم يكن محتاجا اليه فعلا .

• • •

وكان لقاء الأخوة والأخوات لي – من سبق أولم يسبق لي معرفتهم من قبل على حد سواء – غاية في الود الخالص والترحاب القلبي العظيم وكانت أبرزهن في هذا اختي الحبيبة خولة، العزيزة ذكراها على قلبي إلى الأبد، وكانت عواطف قلبي الصغير مكرسة كلها حتى ذلك الوقت إلى امي الحبيبة فقط، ولكني ما ان تعرفت على ملاك الحسن خولة حتى سلبتني لبي فاشركتها مع أمي حب قلبي وصارت معبودتي ومثالي .

ولم أكن في هذا بدعا بين الآخرين والاخريات، فقد كانت خولة دون منازع فريدة عائلتنا الكبيرة بالحسن والجمال وكانت الابنة المفضلة عند ابي السلطان سعيد، وعلى الرغم مما يحمله بعضهن نحوها من الغيرة والحسد فقد كانت محط اعجاب الجميع وحبهم ومضرب المثل في فتنة الوجه الجميل وسحر العيون النجل. فما من منصف غير حاسد أو حاقد نظر اليها الا وبهره جمالها الفتان وحسنها الاخاذ . واين تجد في هذا العالم من لا يستهويه جمال الطلعة البهية ولا تصرعه

سهام العيون النجل ؟ وان وجد مثل هذا الانسان المنحرف فلم يكن على كل حال ممن يضمهم بيت الساحل آنذاك .

والواقع أن شهرة خولة لم تقتصر على بيت الساحل وحده وانما تعدته إلى الجزيرة كلها ثم إلى الوطن الأم عمان، فكانت فعلا وحقا مضرب المثل وحديث المجالس حيثما ذكرت صباحة فتنتها الوجوه وفتنة العيون . ورغم اشتهار النساء الشرقيات كما هو معروف، بجمال العيون، الا أن خولة لتفوقها عليهن بالنور الصافي المنساب من مقلتيها ، كانت باتفاق الجميع تسمى نجمة الصبح .

وكان لهذا النور المشع من عينيها على حسنه وسناه، سحر لا يقاوم فكان يصعق كل من يراه ويسلب لبه كما حدث بالفعل مرة لاحد الرؤساء القادمين الينا من عمان فقد صعقته بنظرة منها فأذهلته عن أمره حتى أوشك أن يودي بحياته وهو مأخوذ بسحر فتنتها ساه عما فعله بنفسه. ففي خلال مبارزة بالرماح كانت تجري أمام بيتنا لمحها الرئيس العماني في شباكها فسحرته عيناها وبهره حسنها فتسمر في مكانه ذاهلا عن كل ما حوله ومن حوله من أشياء واشخاص، وتعلقت عيناه بالنافذة يحاول أن يستجلي المزيد من هذا النور الرباني. وفي غمرة هذه الصبابة والتجلي الوجداني ركز – دون شعور منه – رمحه في احد قدميه دون ان يحس بالدم النازف منها أو يشعر بالألم. ولو لم يوقظه احد اخوتي من نشوة حلمه اللذيذ لأودى النزيف بحياته .

• • •

ومع أن بيت الساحل اصغر بكثير من قرينه بيت الموتني الا أنني كنت احس بروح من البهجة والانشراح تغمر هذا المكان فيبدو ضاحكا مشرقا، وينعكس ذلك على وجوه سكانه فترى آثار البشر والسرور بادية عليها دوما .

وقد زاد في اشراق هذا البيت وانشراحه شرفته الجميلة التي لم ار في حياتي أوسع ولا أروع منها . فقد كانت غرف الجلوس في بيت الساحل، وكلها تقع في الطابق الثاني – تنفتح جميعها على شرفة فسيحة واسعة ترتكز على أعمدة ترتفع من ارض القصر اليها ثم تتعداها إلى السقف الواسع العالي الذي يظللها وقد علقت

في الشرفة عشرات العشرات من المصابيح الملونة التي اذا ما اضيئت ليلاً بدا القصر وكأنه قصر جنية من جنيات الأساطير . وكانت هذه الشرفة محل جلوس القوم ومكان تجمعهم ليل نهار ، وكانت الكراسي الوثيرة تنتشر فيها باعداد وفيرة . وكان الجالس في هذه الشرفات يطل على حركة السفن الكثيرة في الميناء غير البعيد وعلى مناظر البحر الخلابة الممتدة امتداد البصر والتي ما أزال حتى اليوم مأخوذة بسحرها وروعتها .

أما اذا أطل الجالس ببصره من خلال الدرابزينات المحيطة بالشرفة إلى ساحة القصر فانه يجد تحته اغرب بقعة في الارض كثرة ازدحام بالناس وشدة صخب وضجيج وكثرة حركة وعمل . فهناك أولا السلمان الكبيران اللذان يصلان الساحة بالطابق الثاني ، والحركة عليهما صعودا ونزولا دائبة مزدحمة لا تهدأ ليل نهار ، عدا عن الاعداد الغفيرة من الناس التي تزدحم في نهايتي كل سلم تنتظر دورها في الصعود أو النزول ولا تصل اليه الا بعد مشقة وطول انتظار .

وفي ركن غير بعيد من الساحة تزدحم اعداد كبيرة من الاغنام والأبقار والجمال حيث يتولاها الجزارون بالذبح والسلخ والتنظيف ثم ينقل العبيد هذه الكميات الوافرة من اللحوم إلى المطبخ القريب لاعدادها طعاما لسكان هذا البيت ، ولا توجد في زنجبار محلات لبيع اللحوم ، وانما يقوم كل بيت – ومنهم بالطبع بيتنا – بتأمين ما يحتاج اليه من اللحوم بهذه الطريقة مع اختلاف الكميات طبعاً حسب الحاجة والمقام .

وفي مكان آخر من الساحة تجد صفا طويلا من الزنوج الأشداء حالقي الرؤوس ، وهم الموكول اليهم بجلب الماء إلى القصر . وقد طرحوا جرار الماء ارضا واستراحوا إلى جنبها بكل كسل واسترخاء غير مكترثين لنداءات الاستعجال الآتية اليهم من كل صوب . ولكنهم ما ان يروا على البعد رئيس الخصيان ملوحا لهم بسوطه الجلدي الغليظ حتى يهبوا على أقدامهم منطلقين إلى غايتهم بسرعة البرق وعلى ظهورهم حمولتهم من الماء .

ويقوم المطبخ وعدته وعدده في ركن آخر مكشوف في الساحة نفسها والدخان

الكثيف يتصاعد منه عالياً ثم تذروه الرياح إلى حيث تهوى وتريد . والنظام السائد في المطبخ هو الفوضى الدائبة والشجار المستمر بين العدد الغفير من الطباخين العاملين فيه من كلا الجنسين . وتهدأ الفوضى لحظات قصارا حين يظهر احد المردة المقيمين على شؤون المطبخ فينهال بالكلمات والصفعات يمنة ويسرة فيستتب النظام برهة قصيرة ثم ما تلبث الفوضى ان تعود سيرتها الاولى حالما يختفي ذلك الرئيس المارد .

وتقابل هذه الفوضى الصاخبة في المطبخ وفرة الطعام المنقول اليه كل يوم ومن كل حدب كميات وأصنافا . فاللحوم تنقل اليه كما رأينا بالأطنان أما الأسماك فتنقل اليه بعشرات السلال ، وبالاضافة إلى هذا فغالباً ما يرى المرء السمك الكبير ينقل إلى المطبخ ينوء بحمل الواحدة منها اثنان أو ثلاث من أشداء الرجال . أما الدجاج والبط وغيرهما من أنواع الطيور فتشترى بالعشرات . وتتكدس في المطبخ مئات الأكياس التي تحتوي على السكر والرز والحنطة والطحين . وكان الزبد يأتينا من الشمال من جزيرة سوقطرة في قنان زنة الواحدة منها قنطار انكليزي ، وكانت التوابل هي المادة الوحيدة التي تقاس بالغرامات . وتفوق كل ما تقدم ، كمية الفواكه التي يستوردها القصر ، ففي كل صباح يصل القصر ثلاثون أو أربعون أو خمسون رجلا يحملون على رؤسهم اقفاص الفواكه بالاضافة إلى تحمله الينا الزوارق من المزارع البعيدة داخل الجزيرة أو خارجها . (وأقدر كمية الفواكه التي ترد القصر يوميا بحمولة عربة قطار كاملة ، وهذه الكمية تتضاعف في موسم الامبة المانجو) ، ولكن معظم هذه الفاكهة يصيبها التلف قبل أن يذوقها احد فالعبيد الموكلون بنقلها مهملون جدا فهم يرمون حمولتهم منها من فوق رؤوسهم إلى الارض رأساً فيتلف بعض منها في حين يتلف قسم آخر منها نتيجة تكديس بعضها فوق بعض .

وكان الجالس في الشرفة من بعيد يشهد نجائب الخيل تمرح فوق رمال البحر ، فقد كان القصر محاطا من جهة البحر بسور طويل يمتد امتداد ساحة القصر الواسعة ولم يكن السور على علو كبير ولكن سمكه يبلغ الاثنى عشر قدما تقريبا . وفي ساعات الجزر ، تطلق الخيول على ساحل البحر لتتمتع بالجري

واللعب على رماله . وكان أبي شديد الولع بخيوله العمانية الأصيلة . فكان يستعرضها ويتفقدها يوميا، وكان اذا علم بمرض احد الخيول هرع بنفسه إلى الاصطبل وأشرف بنفسه على علاج الجواد ولا يبرك المكان حتى يطمئن إلى النتيجة، وليس في هذا الأمر من غرابة فاعتزاز العربي بخيله تقليد عربي أصيل .

وقد ورث أخي ماجد هذا الولع عن أبيه واذكر عنه اعتزازه بفرس له شهباء اسمها « الكحلة » وكان همه ان تلد مهرا أصيلا جميلا مثلها من أحسن الاباء الذي انتقاه لها من اصائل خيله وصار ينتظر الولادة بفارغ الصبر . ولما قاربت أيام الوضع أمر جميع الخدم بوجوب اخباره بعملية الوضع في التو وفي أي ساعة من ساعات الليل والنهار . وبالفعل فقد أيقظنا السائس مرة بعد منتصف الليل بساعتين لنسمع البشرى السارة، وطبيعي فان حرص السائس على الاسراع بنقل الخبر الينا لم يكن دافعه الدقة في تنفيذ اوامر سيده فحسب، بل وكذلك التلهف على تسلم الهدية المجزية التي تنتظره في مثل هذه المناسبات والخشية من أن يسبقه غيره بالبشرى فالعطاء .

ولهذه القصة امثال وأشباه لا تعد، وما يروى في وطننا الأم عمان وفي شبه الجزيرة العربية عامة من هذه القصص يفوق بمراحل كثيرة ما لدى قومنا في الجزيرة منه، ويعتز الرجال بتعدادها وتكرارها لان حب الخيل واقتناءها مفخرة من مفاخر عرب البادية فالحصان عند رجل البادية عدة حرب وواسطة انتقال ورمز ثروة ومظهر جاه .

• • •

كان ابي عند وصولنا بيت الساحل في جملة المصلين وكان لشدة ورعه وتقاه يطيل الصلاة فكان علينا من اجل السلام عليه – وهو اول المراسم طبعاً وأحبها إلى قلوبنا ايضاً – ان ننتظره حتى يتم صلاته .

وما انتهت الصلاة حتى توجهنا إلى جناحه لتقبيل يديه والسلام عليه ولتناول طعام الفطور معه . وكان أبي بشوشا ودوداً كعادته وقد اجلسني بجانبه وسألني :

والآن يا سالمة هل ما زلت تريدين العودة إلى بيت الموتني أم أن الجماعة هنا قد تعودوا على اعطائك حساء الحليب ؟

وفي حوالي الساعة التاسعة والنصف أو العاشرة حضر اخوتي الكبار من اجنحتهم لتناول طعام الافطار مع ابي. وهذه الوجبة لا يحضرها الا البالغون من انجال السلطان وأحفاده والا زوجته عزة بنت سيف حين تكون في بيت الساحل واخته عائشة ولا يسمح بحضورها لأي من جواري السلطان مهما بلغت حظوتها ومكانتها . ولا يظهر التمييز الطبقي على أشده في الشرق الا في مراسم تناول وجبات الطعام فلكل طبقة مقامها ودورها والشرقي بطبعه كريم مضياف لا يبخل على ضيفه بشيء، ولكنه لا يجد غضاضة في ابعاده عن مائدة الطعام والطلب اليه انتظار دوره مع انداده في المكانة والمقام . وهذه العادة اصبحت من القدم والرسوخ في زنجبار بحيث لا تسبب أي احراج أو اهانة إلى أحد .

وللجواري من زوجات السلطان في زنجبار نظام طبقي متميز متعارف عليه فالشركسيات الشقراوات المدلات بجمالهن الشاعرات بقيمتهن يرفضن الجلوس على مائدة واحدة مع الحبشيات السوداوات . ولهذا فقد نشأ تفاهم ضمني متعارف عليه بأن تترك كل مجموعة على حدة . ولكن هذا التمييز بالدم أو اللون لا يسري على أولاد الجواري من بنين وبنات فجميعنا ــ كما قلت من قبل ــ متساوون في الحقوق والواجبات مهما اختلفت دماء امهاتنا .

ويخيل الي ان الناس في بيت الساحل اكثر بشراً وانطلاقاً وسعادة من رفاقهم في بيت الموتني وقد يكون السبب في هذا وجود عزة بنت سيف في بيت الموتني حيث تفرض وجودها وسيطرتها على زوجها وابنائه وأحفاده وجواريه وتشيع بين سكان البيت جوا من الرهبة والانقباض، في حين انها لا تزور بيت الساحل الا لماما ولفترة قصيرة، لهذا فان سكان هذا البيت، بما فيهم أبي ــ يشعرون بالحرية والانطلاق دون ما قيد ولا رهبة .

ويخيل الي ايضا ان ابي نفسه كان يشعر بهذا الفرق في نمط الحياة بين البيتين وانه اكثر ميلا وتقديراً إلى حياة الحرية والانشراح التي تسود بيت الساحل

بدليل انه توقف منذ سنين عن نقل أي شخص ــ الا بطلب خاص من ذلك الشخص، للسكن ببيت الموتني رغم ازدحام بيت الساحل بالسكان ووجود اماكن خالية في بيت الموتني . وقد دفع هذا الازدحام ابي إلى التفكير في وضع حواجز خشبية على الشرفة الواسعة وتقسيمها إلى غرف تخفف من وطأة الازدحام ولكنه لحسن الحظ عدل عن هذه الفكرة، وابتنى ــ بدلا عنها ــ قصرا جديد سمي « بيت الراس » على ساحل البحر على بعد بصعة اميال شمال بيت الموتني وقد صممه خصيصاً للجيل الجديد من سكان بيت الساحل .

ولا ريب ان شرفة بيت الساحل تمد الفنان الملهم بمادة وفيرة للرسم والتصوير. فعدا عن مناظر البحر الجميلة المتغيرة امامه في كل آن فان ساحة القصر تحته وما يسودها من هرج ومرج تزخر بالصور التي تستطيع الريشة الملهمة أن تحولها إلى لوحات فنية رائعة .

ففي هذه الساحة، كما رأينا من قبل، يعمل ويلهوا ويروح ويجيء عشرات العشرات من الناس في كل دقيقة اثناء الليل والنهار من نساء ورجال وصغار وكبار من مختلف العناصر والجنسيات .

أما الشرفة نفسها ومن فيها فانها الأخرى تستطيع ان تلهم الفنان الأصيل رسوما نادرة، فهناك على الأقل تسعة أو عشرة انواع من القسمات والملامح المختلفة والتي تميز عناصر وجنسيات سكان القصر بعضها عن البعض الآخر، ثم ان هناك أيضاً عشرات الانواع من أزياء الملابس المختلفة أشكالها والوانها، ولم تكن الجلبة والضوضاء في الشرفة بالشيء القليل، فالأطفال من مختلف الأعمار يملؤون الشرفة ضجيجاً وصخبا بالعابهم وتشاجرهم وضحكهم وبكاهم . والكبار لا يتوانون عن التصفيق المستمر وهي طريقة لدعوة الخدم بدلا عن استعمال الجرس كما هو الحال هنا، والذين سرعان ما يردون عليه بكلمات « لبيك » في طبقات صوتية مختلفة . وإلى جانب هذا وذاك فان السيدات في ذهابهن ومجيئهن يضفن إلى نشاز السمفونية دقات رهيبة من قباقبهن الخشبية الضخمة المطعم اكثرها بالصدف وبعضها بالذهب أو الفضة . وكنا نحن الاطفال نستمتع كثيراً

بفوضى اللهجات واللغات، فالقاعدة ان اللغة العربية هي لغة التخاطب الوحيدة، وكانت هذه القاعدة تطبق بشدة عند حضور السلطان، ولكن ما أن يدير السلطان ظهره عن البيت حتّى يتحول إلى برج بابل من اللغات الفارسية والترّكية والحبشية والنوبية والشركسية والسواحلية ... ناهيك باللهجات المختلفة.

وقد اعتاد ابي على هذا الصخب الشديد في الشرفة ــ وان كان في الواقع يقل ويهدأ بعض الشيء عند وجوده ــ فلم أره أو أسمعه يعترض عليه يوما ما.

• • •

على هذه الشرفة تجمع القوم يوم وصولنا وكانوا في أجمل زينة وأحسن ملبس احتفالا بيوم الجمعة وبزيارة السلطان. وكان الأطفال منا يسرحون ويمرحون بنشاط جم وأدب ظاهر في حين كانت امهاتنا يرحن ويجئن ويتجمعن فيما بينهن يتبادلن الأحاديث والنكات ويطلقن ضحكات قلبية صادقة وفي ود وصفاء ومرح وطيبة حتّى ليكاد الغريب عن حياة هذه الدار ان يظنهن تلميذات في مدرسة. ولا يصدق ــ لمظاهر الود والمحبة بينهن ــ ان كل هذا الجمع من النساء هن زوجات رجل واحد.

والحياة هنا اكثر ترفا وبذخاً منها في بيت الموتني ونسبة الجمال بين نساء بيت الساحل اكثر منها في البيت الأول.

ففي حين كانت امي وصديقتها مدينة،الشركسيتين الوحيدتين في بيت الموتني، فان الغالبية من محظيات السلطان في بيت الساحل من الشركسيات وهن دون شك أنقى بشرة واكثر جمالا من الحبشيات، وان كان يوجد بين الأخيرات من هن على جانب كبير من جمال الجسم وحسن التقاطيع. ولكن هذه الميزة الطبيعية ــ أي اللون ــ كانت تلعب دورا كبيراً في اثارة الحسد والغيرة والبغضاء. فالشركسيات اللواتي يتمتعن اضافة إلى بياض البشرة بنبل الأصل، كن يجدن نفرة وصدودا وبغضا لا لشيء وانما لمجرد ان ضراتهن بنيات اللون يجدنهن انصع منهن لونا وأعرق أصلا.

والمرأة الحبشية رغم ميزاتها العديدة فانها حادة المزاج عصبية الطبع حقودة

منتقمة، واذا ما تملكها الغضب خرجت عن طورها وعن حدود الاعتدال بل وعن حدود الحشمة والوقار . وفي مثل هذه الظروف فمن الطبيعي ومن السخيف والمؤسف في نفس الوقت ان تتجلى هذه البغضاء والعنصرية بين الأخوة والأخوات من أبناء الطرفين . وكانت اخواتنا ممن يجري في عروقهن الدم الحبشي يلقبننا، نحن بنات الشركسيات « بالقطط » لمجرد ان البعض منا كن – لسوء الصدف – زرقاوات العيون وكن يرددن تعبيراً عن امتعاضهن منا بتلقيبنا « بصاحبات السمو » تهكما وسخرية، ولم يكن يغفرن لوالدي اختياره بنتيه المفضلتين لديه، خولة وشريفة من فصيلة القطط الممقوتة هذه .

• • •

كانت الحياة في بيت الموتني بسبب سيطرة عزة بنت سيف وتحكمها اشبه بحياة الأديرة . وكنت في بيت الواتورو اشعر بالوحدة والانفراد، ولكنني في بيت الساحل أخذت استعيد حيويتي ونشاطي يوما بعد آخر . وقد وجدت ان وحيدتي أخي خالد شمبو وفروشه، وهن في مثل عمري، يأتين صباح كل يوم من بيت أبيهم إلى بيت الساحل ويعدن منه مساء، وذلك لتلقي الدروس فيه مع اخوالهم وخالاتهم وأبناء وبنات أعمامهم وعماتهم .

وكانت خورشيد ام خالد شركسية الأصل ولكنها كانت شخصية فذة خارقة لم ار في حياتي كلها ندا لها بين افراد جنسنا، فقد كانت هرقلية بناء الجسم طولا وعرضا حديدية الارادة قوية الشكيمة ماضية العزم عميقة الذكاء سريعة الفطنة واسعة العينين نفاذة النظرات دقيقة الملاحظة حتى وكأنها تنظر من حولها بعيون اراغوس المائة .

وقد حدث ان تولى خالد مرة امور السلطنة في الجزيرة نيابة عن السلطان عند ذهابه إلى مسقط فكانت امه باعتراف الجميع هي الحاكم الفعلي وكان خالد مجرد دمية بين يديها . ولهذه الخصال الفريدة فقد تمتعت خورشيد بمقام ممتاز بين أفراد العائلة وكانت مرجع الشورى لهم جميعا، وكانت مع صواب الرأي وسرعة الحسم تتمتع بالملمات بحكمة سليمان وصبر أيوب. ولكنها مع كل صفاتها

الفذة هذه لم تكن محبوبة منا نحن الصغار وكنا سعداء بتجنب لقياها و بالابتعاد عنها .

• • •

. وأخيراً حل المساء وبدأنا نستعد للعودة إلى بيت الواتورو واذا بأبي يستدعي أمي ويعلن لها فجأة وجوب استئنافي الدراسة من الغد، وكان القرار مفاجئا ومذهلا لأمي، وأرادت التملص منه فأخبرته بتعذر وجود معلمة صالحة لي في بيت الواتورو، فأمر بأن ارسل مع بنات أخي خالد إلى بيت الساحل صباح كل يوم لاتلقى الدروس فيه مع مجموعة البنات والبنين ثم اعود إلى بيتنا في المساء . ولم يكن بعد هذا مجال للرد والنقاش .

وكان الخبر مزعجا لي أول الأمر . فقد تعودت على حياة الانطلاق والحرية ولم أعد أطيق العودة للجلوس على مقاعد الدروس، عدا ان معلمتي السابقة في بيت الموتني قد زهدتني بقسوتها عن كل درس . ولكني سرعان ما تبينت الجانب السار في الموضوع، وهو ان هذا الترتيب سيتيح لي فرصة التردد على بيت الساحل يوميا – عدا أيام الجمع – وسيتيح لي فرص مشاركة اخوتي في اللعب وعدا هذا وذاك فان الأخت الحبيبة خولة قد تعهدت لأمي برعايتي والاشراف عليّ مما يتيح لي الحياة معها اكثر أيام الاسبوع، وقد وفت حقا بوعدها وكانت لي اما واختا . لكن امي المسكينة ظلت حزينة لهذا القرار الذي يبعدني عنها كل ايام الاسبوع عدا يوما واحدا، ولكنها لا تملك بالطبع الا الطاعة والاذعان لأوامر السلطان .

• • •

الفصل الرّابع

الحياة في بيت الساحل وبيت الواتورو

ليس لي ما أقوله عن معلمتي الجديدة الا انني سأبقى احمد الله وأشكره اذ هيأ لي في فجر حياتي هذه الصديقة المخلصة، فقد كانت على صرامتها مستقيمة الخلق منصفة واسعة الافق، وكنت في اكثر الاحيان أقضي ساعات الدرس معها لوحدي، اذ كان تلامذتها الآخرون ينفرون من الجلسة المتعبة في غرفة الدرس وينفرون من الدروس المتعبة نفسها إلى حيث اللعب والانطلاق مستغلين عجزها عن ضبطهم وتأديبهم . وكان يعز علي ان اغيب عن دروسها واتركها في وحدتها البائسة وكانت من جانبها تقدر لي هذه الطاعة والمثابرة على الدروس ولكن هذا لم يكن لينجيني من عبث اخوتي الجامحين بي وسخريتهم مني .

وعلى مر الأيام ازداد حبي لبيت الساحل ففيه كنت أشعر بحرية وانطلاق أكثر مما في بيت الواتورو، وكنا نحن الاطفال نطلق العنان للّعب والشقاوات ولا نوفر مناسبة الا ونقوم بها ببعض الحيل والالاعيب الصبيانية التي قد تتجاوز في بعض الأحيان حدود اللياقة فنتعرض من أجلها للعقاب، وكانت حصتي منه دوما اقل من الآخرين بسبب رعاية خولة وطيبة قلبها .

وما زلت اذكر حتى اليوم بعضاً من أعمالنا تلك، فمنها مثلا انه كان في القصر عدد من الطواويس الجميلة، وكان من بينها طاووس شرس الطبع يغضب من عبثنا بأبناء جنسه ويهيج هائجة حين يرانا نقترب منه، وفي مرة من المرات كنا خمسة من الأطفال نتجه من بيت الساحل إلى البيت الثاني — وهو اشبه ببيت ملحق للأول — فباغتنا هذا الطاووس بهجوم وحشي على أخي جشميد وكاد

ان يؤذيه لو لم نتجمهر جميعنا على الطاووس ونبعده عنه . ولكن الحادث لم ينته عند هذا الحد، فقد اثارت جرأته غضبنا فقررنا ان لا نترك الأمر دون عقاب يؤدب هذا الطاووس ويذكره بمغبة سلوكه الشائن. وسرعان ما انتهى بنا التفكير إلى قرار انتقامي شنيع، فقد تجمعنا وأمسكنا بالطير المسكين وأخذنا ننتف ريش ذنبه الجميل وما اسرع ما تحول هذا الطائر المزهو بنفسه والمدل بجمال ريشه إلى حطام بشع المنظر مكسور الخاطر. وقد تملكنا لرؤيته الأسف والندم على فعلتنا، ولكن لات ساعة مندم، ومن حسن حظنا ان ابانا لم يكن في القصر في ذلك اليوم، ولما عاد اليه بعد ايام كانت حدة القضية قد خفت فكتّم الأمر عنه .

ومما اذكره ايضاً انه جيء يوما إلى القصر بفتاتين شركسيتين من مصر، وقد لاحظنا – نحن الصغار – ان احداهن – ولم تكن تكبرنا الا قليلا – تحاول الاستعلاء علينا وتتجنب الكلام معنا أو الاقتراب منا، وقد حز سلوكها هذا في أنفسنا وآثار فينا الضغينة والحقد فقررنا ان نكيد لها كيدا يشفي غليلنا ويعيد اليها صوابها لتعرف من بعده قيمتنا .

ولم يكن الوصول اليها سهلا فلبثنا ننتظر حلول الفرصة المناسبة لتنفيذ عملية الانتقام والتي حلت في احد الأيام حين وجدنا باب غرفتها مفتوحا وهي مستلقية في ارجوحة سواحلية تدندن بلغتها ببعض الحان وطنها . والأرجوحة السواحلية أو الاستوائية ليست الا بساط خفيف من الصوف متصل بجهاته الأربع بحبال معلقة في مسامير في اربعة جدران الغرفة .

وقد تولت أختي شيوان قيادة فرقة العمليات فأشارت لنا برأسها اشارة سرعان ما فهمتها عقولنا الصغيرة فهجمنا جميعاً بغتة هجمة واحدة وأحطنا بالفراش من جميع نواحيه ثم رفعناه إلى اعلى ما تستطيع سواعدنا الضعيفة ثم طرحناه والجالسة فيه أرضا مسببين لها عدا الدهشة والفزع رضوضا خفيفة .

ولقد كان هذا منا عملا صبيانا سخيفاً . ولكنه حقق غايتنا فشفيت ضحيتنا من غرورها وتعاليها وعادت صديقة لنا مثالا للطيبة والوداعة .

وكانت لي في بعض الاحيان مغامراتي الخاصة . وقد كادت رقبتي ان تدق في

واحدة منها . فبعد وصولنا إلى بيت الواتورو بأمد قصير تسللت صبيحة احد الأيام إلى الحديقة وفي غفلة من العيون تسلقت بأسرع ما يمكن شجرة نارجيل عالية دون الاستعانة بالبنتكو ، وهو الحبل المتين الذي يستعان به في تسلق هذه الاشجار والذي لا يفكر اكثر خبراء التسلق بالاستغناء عنه ، وحين وصلت منتصف الشجرة أخذت أنادي المارة من تحتي وأحييهم بكل زهو وافتخار . ولكنهم ما ان شاهدوني في موضعي هذا حتى تملكهم الرعب والفزع وتجمع الناس يدعونني إلى النزول بكل حيطة وحذر ، ولكني كنت فرحة سعيدة فلم الق بالا لكلامهم ، ولم يكن بالامكان ارسال احد لانزالي لان من يصعد مثل هذه الشجرة لا بد وان تنشغل كلتا يديه بدبه فلا مجال له أن يحمل طفلة في الثامنة من عمرها وبقيت على هذه الحال حتى أتت امي هلعة مرتاعة وأخذت تتوسل الي بنبرات يفيض منها الألم والهلع واليأس أن أنزل وتمنيني مقابل ذلك بأحسن الهدايا . ولم يكن امامي الا الاستجابة اليها فنزلت الشجرة بكل عناية وحذر حتى وصلت الأرض سالمة .

وقد كنت طيلة ذلك اليوم حديث كل فرد في القصر وانهالت علي الهدايا احتفاء بنجاتي وان كنت في الواقع استحق أشد العقاب .

وكنا مجموعة الصغار الأشقياء سبعة فقط ، ثلاثة أولاد وأربع بنات . وما كان العقاب المتكرر ليصدنا عن الاستمرار في الاعيبنا ومكرنا ، وكنا في الواقع نملأ جو البيت حياة وحركة ونشاطا ، ولكننا كنا في الوقت نفسه ومع الأسف الشديد نملأ نفوس امهاتنا المسكينات بالهم والهلع والقلق .

وكانت أمي تخشى علي مغبة رفقتي لاخواني ومغامراتنا معا ، فكانت في بعض الأحيان تمنعني من الذهاب إلى المدرسة وتمسكني معها في البيت . وكان أخي الرقيق الطيب ماجد يغتنم هذه الفرص لنستأنف هواياتنا السابقة وقد سبب لنا يوما من هذه الأيام فزعا قاتلا وقلقا مميتا ، وكاد الحادث أن يودي بحياته .

فقد كان ماجد عرضة لنوبات من الصرع تفاجئه بين الحين والآخر وقد تطول الفترة بينهما أو تقصر ولهذا فلم يكن يترك وحيدا ابدا في كل ساعات الليل والنهار ، وحتى في اوقات استحمامه فقد كانت خديجة وأمي ـ لضعف ثقتهن

بالخدم – تتناوبان بانفسهن حراسته ومراقبته، وكانت الواحدة منهن تقف له على باب الحمام وتناديه من حين إلى آخر لتتأكد من سلامته، وكان يجيبها بروحه المرح : نعم ... اني ما ازال حيا .

وفي ساعة هذا الحادث، كانت خديجة هي الموكلة بالحراسة وكانت تروح وتجيء امام باب الحمام وتتبادل مع ماجد الكلمات، اذا بها تسمع فجأة صوت سقوط جسم على الأرض فأسرعت مرتاعة إلى داخل الحمام حيث وجدت اخانا العزيز ماجد ملقى على الأرض يعاني غصة نوبة من أشد النوبات وفي الحال أرسلت احد خدمنا الفرسان رسولا إلى أبي في بيت الموتني – تستدعيه للحضور .

ولجهل القوم في زنجبار بأسباب المرض وأساليب العلاج فقد وقعوا ضحايا الشعوذة والتدجيل، واني الآن وبعد ان تعرفت في أوروبا على طرق العلاج الحديث الذي يتولاه الاطباء المختصون، فاني أكاد أؤمن بأن طرق العلاج البدائية والبربرية، وليس المرض ذاته، هي السبب في كثرة الوفيات في بلادنا . ولا أدري كيف كنا نحتمل فقدان العدد العديد من الأهل والاخوان والأصدقاء لو لم نتدرع بذلك الايمان المتين بالقضاء والقدر . ولقد لبث ماجد المسكين ساعات في قبضة الالم الممض فاقد الوعي يتنفس هواء فاسدا يصرع اقوى الرجال، ذلك انه على الرغم من حبنا الفائق للجو المشرق والهواء الطلق فان المريض منا، وخاصة «من ركبهم الشيطان» يعزلون دائماً في غرف مغلقة تمتلىء – والبيت كله – بأنواع الأبخرة لطرد الأرواح الشريرة .

وبعد ساعة واحدة وصل السلطان على ظهر زورق صغير يسميه السواحليون الموتويي، وهو عبارة عن زورق صغير لصيد السمك لا يتسع الا لراكب واحد، وهرع حال وصوله إلى غرفة ماجد، ومع أن والدي أب لاكثر من اربعين ولدا وبنتا فقد كان في غاية الهلع والاضطراب لمرض واحد من ابنائه وكأنه ابنه الوحيد. فقد وقف إلى سريره والدموع تجري على خديه وهو ينادي بأعلى صوته ... «ربي احفظ لي ولدي... » وظل مستمرا في صلاته ودعائه ساعات طويلة وقد استجاب الله سبحانه إلى دعائه فمنّ على ماجد بالشفاء العاجل وعاد الينا برقته وحنانه وطيبته .

وبعد مرور الحادث بسلام سألت امي يوما زوجها السلطان عن سبب قدومه في ذلك الزورق الحقير فأجابها :

« لما وصلني الرسول بالخبر الأليم لم يكن على الشاطىء أي مركب من أي نوع ولا يمكن الحصول على واحد منها الا بعد ان نعطيه الاشارة الخاصة الأمر الذي يستغرق وقتاً طويلا، كما انني لم استطع الانتظار حتى يسرجوا لي احد الخيول . ورأيت في البحر قرب البنجلة هذا الزورق فلبست سلاحي وقفزت اليه وقدته مسرعا إلى هذا البيت » .

والذي يجب ان يعرف ان الموتوبي ما هو الا جذع شجرة مجوف ضيق وقصير ومدبب الرأس لا يتسع الا لراكب واحد ويسير بدلا عن المجداف برفاس صغير بدار باليد . وهو بهذا يختلف عما يعرف في المانيا بزورق كرنيلاند أو زوارق الصيد الصغيرة الأخرى المعروفة في أوروبا .

وقد يستغرب الناس في هذه البلاد لشخص مثل ابي قد اخذ لبه القلق على حياة ولده ان يفكر في تلك الساعة الحرجة باستكمال عدة سلاحه . ولكن كما ان أهل الشمال لا يفهمون سر اهتمام العربي بسلاحه فكذلك يعجز العرب عن فهم كثير من العادات الأوروبية ويحضرني في هذا المجال ادمان الرجال المشين على الشراب .

ولقد دأبت على الذهاب إلى بيت الساحل لتلقي الدروس والعودة منه مساء إلى بيت الواتورو كل يوم عدا ايام الجمع طبعاً، حتى حفظت عن ظهر قلب ثلث القرآن تقريبا . وكنت قد بلغت التاسعة من عمري فانقطعت عن الدراسة وفقاً للتقاليد . ومنذ ذلك الحين اقتصرت زياراتي إلى بيت الساحل، مع امي وخديجة، على أيام الجمع فقط، ايام وجود ابي فيه .

• • •



السيد برغش بن سعيد

سلطان زنجبار ١٨٧٠ - ١٨٨٨

الفصل الخامس

البيت الثاني

وقد عشنا في بيت الواتورو على هذ الحال من الغبطة والسرور عامين كاملين، ولكن ايام الهناء لا تدوم ولا بد ان تنغصها احداث الزمان. ومن عجائب الصدف أن يكون سبب تنغيص هنائنا عن غير قصد ولا ارادة منه، مخلوق بريء وديع كان مثال الطيبة والجمال، وهي عائشة احدى قريباتنا البعيدات وقد وفدت علينا من وطننا الأم عمان واختيرت لشبابها وجمالها زوجة إلى أخي ماجد وقد أحبها كل من في البيت وابتهج لسعادة ماجد واستقراره غير شخص واحد يؤسفني ان اقول انه اختي خديجة. فقد حملت لها الغيرة والحقد والبغضاء من أول يوم ولم ترضى عنها أو تستسيغ تصرفاتها يوما ما.

وكانت عائشة – كما قلت – شابة يافعة لم تبلغ العشرين من عمرها، وكانت على جانب كبير من الجمال والطيبة والوداعة. وكان الواجب على خديجة ان تكسب ثقتها وأن تتولاها بالرعاية والتدريب والتقويم وان تعدها لمركز السيدة الأولى في البيت الذي يؤهلها زواجها من ماجد إلى احتلاله. الا أن خديجة بادأت هذه الفتاة البريئة بالحقد والبغضاء ورفضت ان تتنازل لها عن شيء من حقوقها المزعومة وعاملتها أسوأ معاملة وأقساها وكثيراً ما كانت عائشة تلجأ إلى أمي شاكية باكية مما تلقاه من خديجة من معاملة سيئة لا مبرر لها. وعبثا حاولت أمي اسداء النصح إلى خديجة واقناعها بالعدول عن سلوكها الشائن، وبأن تقدر لزوجة ماجد مقامها وقدرها وأن تحفظ لماجد سعادته وتجنبه المتاعب والصعاب.

لكن خديجة كانت ترفض الاستماع إلى كلام امي وتزداد عتوا وقسوة واستمرت تنظر إلى عائشة على انها طفلة دخيلة لا تستحق الاحترام.

وأصبحت امي بين نارين وتلبدت سماء عيشنا الهانىء بغيوم المشاكل والشحناء وتبدل صفونا كدرا وهناؤنا كربا وأصبح مقامنا في بيت الواتورو صعب الاحتمال لذلك قررت امي للتخلص من جو المشاحنات والتوتر الانتقال من هذا البيت الذي أحبته كل الحب واخلصت له كل الاخلاص .

وقد كان وقع هذا القرار على ماجد مؤلما جدا، اما زوجته عائشة فقد كان القرار بالنسبة لها فاجعة لا عزاء لها . لكن خديجة لم تتحرك للخبر ولم تهتم به مما زاد من اصرار امي على قرارها .

وقد ضاقت عائشة بهذه العيشة وبقسوة خديجة وسيطرتها عليها فوضعت حدا لمآساتها بالطلاق من ماجد . وكانت هذه التجربة القاسية قد خلفت في قلب المسكينة جرحا مؤلماً بحيث لم تستطع بعدها الحياة في زنجبار فجمعت حوائجها القليلة وأبحرت مع ريح الجنوب عائدة إلى بلدها عمان، ولوفاة والديها فقد عاشت هناك مع عمة لها عجوز فقيرة تسكن قرب مسقط ولم نعد نسمع من اخبارها شيئاً .

• • •

اما بالنسبة لنا، امي وأنا، فقد انتقلنا قبل هذا الحادث إلى البيت الثاني، وكان فرح خولة وسرورها بانتقالنا لا يوصف لاننا صرنا نعيش واياها تحت سقف واحد . وكان لها الفضل في ايجاد هذا المكان واعداده لسكنانا . فقد كانت بيوت السلطان مكتظة بنزلائها بحيث لم يعد من السهل ايجاد مكان ما لاي قادم جديد، وحتى صارت العادة ان ينتظر المرء موت احد سكان البيت ليحتل مكانه، فما ان يسعل احدهم حتى يمنى الآخرون انفسهم بأن سعلته هذه هي القاضية ! ولكني وأمي ندين بالفضل إلى العزيزة خولة لتهيئة هذه الغرفة الجميلة الواسعة في البيت الثاني دون ان نحصي انفاس الآخرين من افراد اسرتنا أو ننتظر وفاة احدهم .

ولم نعد نرى خديجة في مقرنا الجديد، فقد رأت في انتقالنا اهانة لها واتهمت امي – ظلما ولاشك – بالجحود ونكران الجميل في حين ان الواقع ان امي لم تستطع احتمال رؤية الظلم والاضطهاد التي أوقعته خديجة بشابة بريئة غضة العود

كل ذنبها انها صارت زوجة لماجد. وقد ظل ماجد يزورنا واستمر من أعز أصدقائنا.

• • •

ويقع البيت الثاني ملاصقا لبيت الساحل ويصل بينهما رواق قصير يمر على حمام تركي يقع وسطا بين البيتين، وفي هذا الوقت الذي انتقلنا فيه اليه لم يبق من البيت الثاني الا اطياف من عظمته السابقة. فقد كان طابقه الثاني يوما ما مسكنا لأميرة فارسية اسمها شيزادة. كانت الزوجة الشرعية الثانية لأبي[1] وكانت آية في الجمال والفتنة، ويقال انها كانت على جانب كبير ايضاً من البذخ والاسراف ولكنها مع هذا كانت كما يقال شديدة الحب لأولاد زوجها. وكان الطابق الأول من البيت يسكنه مابة وخمسون فارسا فارسيا هم حاشيتها المتواضعة العدد وقيل انها كانت تركب الخيل وتخرج معهم للصيد في وضح النهار ولم يكن هذا شيئاً مألوفا بالنسبة للعادات العربية. والظاهر ان النساء الفارسيات يتّربين تربية اسبارطية ويتمتعن بحرية وانطلاق تام وبوقاحة في التفكير والسلوك لا نعرفها نحن النساء العربيات.

ويقال ايضاً ان شيزادة قد عاشت في بيتها هذا عيشة مترفة وكانت ملابسها الفارسية مطرزة فعلا باللؤلؤ الطبيعي من أعلاها إلى اسفلها. وكانت تهب اللؤلؤ المتساقط من ثيابها إلى الخدم الذين يكنسون غرفتها. ولكن هذه الأميرة لم تكتف باستغلال كرم السلطان استغلالا شنيعاً بل تعدت ذلك إلى مخالفة العرف والقانون. فقد تزوجت ابي لمركزه وثرائه ولكن هوى قلبها كان مع شخص آخر فلما اكتشف السلطان ذلك أوشك في ثورة غضبه ان يقترف جريمة قتلها، ففي ثورة غضبه استل السلطان سيفه ليقضي به على شيزاده لو لم يسارع احد خدمه الأوفياء وهو سعيد النوبي – الذي تعرفنا عليه في الفصل السابق – إلى امساك السيف بيد السلطان فأنقذ بذلك حياتها وجنب ابي مغبة اثم شنيع. ولم يكن بعد هذا الحادث مفر من الطلاق الذي ساعد عليه ان زواجهما لم ينجب أولادا.

(١) تزوج السيد سعيد بحفيدة فتح علي شاه ثم طلقها. ثم انه تزوج ابنة اريش ميرزا العجمي حاكم اصفهان وصحبته إلى زنجبار ومعها حاشية كبيرة ولعلها هي المقصودة بهذا الكلام.

وبعد هذا الحادث بسنوات، اشتبك ابي السلطان في حرب ضروس مع الفرس في بندر عباس في الخليج الفارسي، وقيل ان شيزاده شوهدت مع جيش الأعداء لتتعرف على افراد عائلتنا وتدل جنود العدو عليهم، ويقال انها كانت نفسها ترميهم بالسهام.

وفي هذا البيت الذي شهد مجد هذه الأميرة بدأت أتعلم الكتابة بنفسي وبطريق بدائي جدا، وكان عليّ ان اعمل هذا بالسر والكتمان فما يجوز لأمرأة أن تتعلم الكتابة أو تعلن معرفتها بها، وكانت دروسي الأولى أن أحاول محاكاة حروف القرآن على عظم بعير، وهو يقوم في زنجبار مقام السبورة، وقد شجعني نجاحي على الاستمرار في المحاولة والتوفيق فيها. ولكن بعد مرحلة معينة كان لا بد من وجود معلم يعلمني اصول الخط وقد عهدت إلى احد عبيدنا المتعلمين شرف تعليمي اصول الخط. ولكن امري سرعان ما انكشف للجميع فثارت عليّ زوابع اللوم والتقريع وحملات السخرية والاستخفاف ولكني لم احفل بها ولم تفل من عزيمتي شيئاً فمضيت في دروسي حتى اتقنتها ولست الآن بآسفة على تلك الساعات الطوال التي قضيتها في هذا الدرس فالكتابة الآن هي وسيلتي الوحيدة للاتصال بالقلائل من اصدقائي الأوفياء المخلصين في وطني البعيد.

• • •

الفصل السادس

الحياة اليومية في بيتنا

ما زلت منذ قدومي إلى هذه البلاد وأنا أواجه مرارا وتكرارا بالسؤال التالي وهو : « كيف تستطيع النساء العيش في بلادكم دون شغل أو عمل ؟ »

والسؤال ليس بعد بالمستغرب من وجهة نظر أهـــل الشمال [1] الذين لا يستطيعون تصور الحياة بلا عمل بالاضافة إلى انهم باتوا مقتنعين بأن المرأة في الشرق لا تكلف نفسها طيلة النهار تحريك انملة وانما تقضي وقتها في خمول وعزلة وفراغ في بيت الحريم .

ولهذا وذاك فاني لم أكن لأضيق ذرعا بالرد بكل لذة وسرور على فضول السائلين مرات ومرات بقدر تكرار السؤال ردا واحدا يختلف في مبناه لا في معناه وهو ان الظروف الطبيعية تختلف في بعض بقاع العالم عن بعضها الآخر ، وهذه الظروف هي التي تتحكم في تكوين آرائنا وعاداتنا وأساليب معيشتنا ومتطلبات حياتنا .

وهذه الظروف نفسها جعلت العمل حتما واجبا على أهل الشمال في حين انه ليس كذلك على أهل الجنوب فبرودة الجو وقسوة الطبيعة في الشمال قد زادت في متطلبات العيش وكثرة اللباس وتنوع العمل لهذا صار لزاما على الرجل الشمالي أن يرهق نفسه كدا واجتهادا ليؤمن لنفسه وأهله ضرورات الحياة وأن يرهقها اكثر واكثر ان أراد التنعم بالترف والكماليات .

(١) دأبت المؤلفة على تسمية الاوروبيين بأهل الشمال والعرب بأهالي الجنوب ولم تستعمل اصطلاح الشرق والغرب الا نادرا .

وليس الأمر كذلك مع أهل الجنوب فقد أنعمت عليهم الطبيعة بدفء الطقس وكثرة الخيرات فلم يعودوا بحاجة إلى وثير اللباس ولا وفير الطعام، وعدا عن قلة المطالب هذه فالجنوبيون ينعمون – واكرر كلمة ينعمون – بالقناعة وبساطة العيش، والعرب الذين كثيراً ما تتهمهم كتب الغرب بالكسل والخمول هم – بعد الصينيين – اكثر شعوب الأرض قناعة، وحين يقول العربي (القناعة كنز لا يفنى) فانه يعني ان في بساطة العيش والاكتفاء الذاتي توفيرا واقتصادا.

لكن الشماليين وقد تملكهم الغرور والازدهاء ينظرون باستعلاء وازدراء لسكان المناطق الاستوائية، وهي حالة فكرية ونفسية غير محمودة في نظري – على الأقل –، غير ناظرين إلى حقائق الأمور وأسبابها وهي ان العمل في أوروبا أمر تقتضيه غريزة البقاء ولولاه لكان فناؤهم عاما شاملا، أي أن الفرد منهم مضطر للعمل للابقاء على حياته وكيانه ولهذا فلا يحق له أن يجعل من هذه الظروف المفروضة عليه بحكم الطبيعة فضيلة يفخر بها على الآخرين الذين كانت الطبيعة أرحم بهم منه.

وها نحن نرى الاسبان والبرتغاليين والايطاليين أقل كدا وعملا من الألمان والانكليز، فما هو السر في هذا يا ترى. هل ان الأولين اكثر خمولا وكسلا من الآخرين.

السر ان طبيعة الجو في بلاد الأولين أكثر اعتدالا وأشهر القيظ فيها أطول من أشهر البرد، وبالتالي فهم أقل حاجة للكفاح من أجل البقاء. فالجو البارد يستوجب التحسب والاحتياط لطوارىء ومفاجئات لا تخطر لأهل الجنوب ببال لان الظروف الطبيعية التي تفرضها هناك هي نفسها تنفى احتمال حدوثها هنا.

ولنأخذ مثلا للمقارنة ضروريات الحياة الأولية في الشمال والجنوب. فالطفل في الشمال يحتاج منذ ولادته إلى عدد كبير من الحاجيات والأشياء لتحمي كيانه الغض من قسوة المناخ وبرودة الجو في هذه البلاد، في حين ان الطفل الأسمر المولود في الجنوب لا خوف عليه حتى وان نام في العراء. والطفل ابن السنتين في المانيا يحتاج إلى قائمة طويلة من الملابس الضرورية كالحذاء والجوارب والقميص

والسروال والمعطف والملابس الداخلية وضروريات أخرى من الصوف أو الفرو لتلف يديه ورجليه ورقبته ورأسه في حين ان كل ما يحتاجه صنوه الطفل في زنجبار حتّى ولو كان ابن السلطان هو قميص خفيف وغطاء للرأس فقط .

والظروف أيضاً قد غيرت حاجات المرأة وطبيعة وطريقة ادارتها للبيت، فالشمس الساطعة دوما والهواء العليل دوماً في الجنوب يغني ربة البيت الجنوبية عن يوم الغسيل الذي تقلق له المرأة الأوروبية . فنحن في الجنوب نغسل كل يوم ما يحتاج إلى الغسيل ولن يستغرق جفافه اكثر من نصف ساعة كما اننا في الجنوب نستغني – الا في القليل النادر – عن ستائر الشبابيك فعدا عن انها تحجب عنا النور والهواء فان العناية بنظافتها وترتيبها واصلاحها تحتاج إلى جهد كبير ليس في بلادنا ضرورة تبرره .

والمرأة الشرقية مهما علا مقامها لا تحتفظ بأعداد كثيرة من الثياب وهذا أمر طبيعي لأن تنقلها داخل البيت قليل وزياراتها إلى خارج البيت أقل وأندر وهي بعد لا تكشف عن نفسها في الشوارع والأسواق .

والزوج أو ولي الأمر يكفي المرأة وصول المؤن والطعام إلى بيتها كل يوم . فما عليها الا أن تشرف على الطبخ ان كانت من ذوي اليسار أو أن تقوم به بنفسها ان كانت دون ذلك مقاما .

وعلى هذا فما دامت حاجات المرأة وبيتها وطفلها على هذا القدر من البساطة والقلة وما دام زوجها أو ولي أمرها يكفيها مؤونة البحث عن هذه الحاجات وتأمينها وما دام في بيتها من الخدم والعبيد من ينهض بالشؤون المنزلية فما الذي يدفع المرأة العربية إلى العمل كما تفعل – مضطرة ولاشك – اختها الأوروبية . وترى هل لو تهيأ للمرأة الأوروبية مثل حياة أختها العربية، أكانت ترفضها وتفضل عليها حياة العمل والكد أم كانت ترضاها وتأنس لها وتترك من اجلها عملها الكادح خارج البيت ؟ .

ما أظن الجواب على هذا السؤال موضع اختلاف.

وعلى كل فان الذي يريد أن يفهم المرأة الشرقية ويطلع على حياتها لا بد له ان

يعايشها ويقضي معها فترة من الوقت طويلة ولا يمكن الاعتماد على أقوال السائحين والسائحات الذين يعبرون البلاد عبورا خاطفا والذين قد يستقون معلوماتهم من أصحاب الخانات والفنادق. وحتى بعض الأوروبيات اللواتي قدر لهن زيارة بيوت الحريم في الاستانة والقاهرة فانهن لم يفهمن حياة الحريم على حقيقتها ولم يشهدن منها الا مظاهرها الخارجية في غرف الاستقبال المعدة خصيصاً على النمط الأوروبي.

فاذا انتقلنا من النساء إلى الرجل فانني لا استطيع ان انكر ان بني قومي بعيدون عن الحماس للعمل والاندفاع من اجله فهم قد اعتادوا حياة الدعة والتواكل وترك الأمور تجري في اعنتها «والأيام تفعل ما تروم». وعلى هذا لم يكن للعربي ميل للتجارة والصناعة بل كل هواه في الحرب والزراعة [١] والقلائل من العرب الذين امتهنوا التجارة لم يثبتوا فيها تفوقا كبيراً على غيرهم وليس مرد هذا إلى قصور ذاتي في قدراتهم الفكرية أو لتفوق ذاتي في قدرات الآخرين، وانما مرد هذا إلى الطبيعة الخيرة المعطاء ورزقها الوافر الذي تجود به عليهم كل يوم دون جهد أو تعب. ومرده ايضا إلى هذا الطقس الاستوائي الذي يبعث على الراحة والاسترخاء ومرده ايضا إلى ايمانهم بالقدر. وكل هذه العوامل علمتهم القناعة والرضى باليسير وصرفتهم عن التفكير في غد مجهول قد لا يجيء، فان جاء فسيجيء معه رزقه وافراً كثيراً. وينعكس هذا الطبع على الزراعة أيضاً فلا يزرع العربي الا ما يستطيع حصاده وأكله في أقرب وقت مستطاع ولا صبر له على له على زراعة الأشجار كالنخيل والنارجيل الا مضطراً.

وعلى هذا المنوال الوادع الرضي تنساب الحياة الشرقية بصورة عامة. وسأحاول أن أصف نمط الحياة اليومي في بيتنا – بيت الساحل – وانني انما اصف نمط الحياة في زنجبار وعمان فقط والتي تختلف ولاشك من نواح عدة عن انماط في الأقطار الشرقية الأخرى.

• • •

(٢) لعل هذا واقع الحال في زنجبار والا فان العربي في الجزيرة العربية يحتقر الزراعة ولا يحترمها.

يمكن على وجه العموم القول ان نهار المسلم تضبطه وتسيطر عليه أوقات الصلاة . فالصلاة فريضة على المسلم يؤديها خمس مرات كل يوم، حيث يسجد ورعا خاشعا أمام الخالق الأكبر . وتستهلك أوقات الصلاة هذه مع ما يسبقها من موجبات الطهارة والوضوء ثم ما يستحب ان يليها من الأدعية والنوافل حوالي ثلاث ساعات من النهار .

وعلى كل حال فان الحياة اليومية تبدأ عند الفجر اذ يستيقظ الناس جميعهم ما بين الساعة الرابعة والخامسة لأداء اولى فرائض الصلاة وهي صلاة الفجر وهذه الصلاة لا تستغرق طويل وقت، ويذهب بعدها الناس مذاهب شتى ، فاما ذوو اليسار فيعودون إلى فراشهم لاستئناف الرقاد . اما المتدينون وأهل الورع والتقوى فيطيلون الصلاة ويظلون يتلون القرآن ولا يعودون إلى النوم الا بعد بزوغ الشمس وانتشار الضياء . اما غير هؤلاء وأولئك من عامة الناس فيبدأون عملهم بعد الصلاة مباشرة .

وفي بيتنا الواسع الذي يضم المئات من الناس من مختلف المشارب والاذواق ومن مختلف الجنسيات والأصول لم تكن هناك قواعد معينة أو ضوابط محددة تضبط منهاج حياتنا اليومية، بل كان لكل فرد من افراد البيت ان يتبع ما يحلو له في هذا الشأن لا يضبطهم الا وجوب الحفاظ وبدقة صارمة على أوقات الصلوات الخمس وعلى حضور الوجبتين الرئيسيتين . وكانت هذه المواعيد هي الاطار العام للنظام في البيت .

وعلى هذا فقد كنا نعود بعد صلاة الفجر إلى النوم ونستمر فيه حتى الساعة الثامنة حيث توقظنا منه انامل الوصيفات الرقيقة التي تجرى على أجسامنا بمس ناعم لطيف يعيد لها حيويتها بعد طول السبات وما ان ينتهي التدليك حتى يكون الماء جاهزا للاستحمام كما وتكون ملابسنا قد أعدت أيضاً بعد ان ضمخت اثناء الليل بأزهار الياسمين والقداح وطيبت بالمسك والعنبر .

وتستغرق عملية الاستحمام والزينة ساعة كاملة نخرج بعدها للسلام على والدنا

بتحية الصباح ثم لمشاركته تناول طعام الافطار حيث يكون الطعام معدا من قبل على السفرة فلا نستغرق في تناوله الوقت الطويل الذي يستغرقه الأوروبيون .

• • •

وبعد الافطار يبدأ عمل اليوم فينصرف الرجال إلى أعمالهم خارج القصر أو داخله ويكاد يقتصر عمل أخوتي على حضور البرزة اي مجلس السلطان . اما النساء فينصرفن إلى شققهن افرادا أو جماعات يتسلين بتطريز ثيابهن بخيوط الفضة والذهب أو ثياب ابنائهن أو اخوتهن بخيوط الحرير البيضاء والحمراء، أو يقضين الوقت بقراءة القصص أو تبادل الزيارات فيما بينهن داخل القصر .

وتلتصق الشابات اليافعات من بنات القصر ممن لا عمل لهن بنوافذ غرفهن يتفرجن على المارة والسابلة يرضين غرورهن بما يرتفع اليهن من حين إلى آخر من نظرات اللهفة والاعجاب. وكانت هذه الجلسات مصدر متعة وسرور للشابات الحسناوات كما كانت مصدر قلق للأمهات والعمات المجربات والفطنات إلى نتائج أمثال هذه الجلسات واللواتي كن يتلطفن بأنواع الحيل لابعاد الجالسة عن مرصدها الممتع .

وهكذا ينتصف النهار . ويكون الرجال قد اكملوا واجباتهم وزياراتهم والنساء قد ارسلن رسلهن برسائل شفوية إلى صديقاتهن . يخبرهن فيها عن مواعيد المساء وتكون الساعة قد قاربت الواحدة بعد الظهر وتكون صلاة الظهر قد آن أوانها، وحين تنتهي الصلاة تكون الشمس قد توسطت كبد السماء فينصرف كل فرد إلى غرفته الخاصة حيث يطيب له أن يتخفف من ثيابه عدا قميص واحد ثم يفترش على حصيرة ناعمة لينة الصنع قد نقشت بالآيات الكريمة تصيداً لقيلولة خفيفة . وبين التناوم والحديث وتناول الفاكهة والحلويات يزحف الوقت إلى قرابة الرابعة حيث يحل أوان صلاة العصر (الصلاة الثالثة) وبعد أدائها نعود إلى غرفنا لنتزين بكامل زينتنا ونعاود زيارة الوالد لتحيته تحية المساء، وكان الكبار منا ينادونه بلفظه « أبي » أما الصغار وأمهاتهم فينادونه « سيدي » .

ويحل الآن وقت الوجبة الثانية والأخيرة والتي تجتمع من اجلها العائلة كلها

وبعد انتهائها يرتب الخدم الكراسي في الشرفة الواسعة، ولكن لجلوس الكبار فقط، أما صغار القوم فيظلوا واقفين توقيرا لمن هم اكبر منهم سنا، وللسن احترام بالغ في الشرق ليس لدى غيرهم من الامم مثله فالأصغر يحترم الأكبر ولا يتقدم عليه في شيء.

وهناك في الشرفة تتحلق العائلة حول السلطان ويقف بعيدا عنهم صف من العبيد المسلحين هم حرس السلطان وتدار على الجالسين القهوة وعصير الفواكه وتمتزج بأحاديثهم نغمات تنبعث من ارغون فخم كبير – هو اكبر ما رأيت من نوعه في حياتي – أو قطعة موسيقية تنطلق من الصندوق الموسيقى أو قد يستعاض عن هذا كله بغناء شجي حنون ترنمه فتاة عربية عمياء، اسمها عامرة وهبها الله صوتا جميلا وأداء شجيا.

وبعد ساعة وبعض الساعة يتفرق الجميع ويذهب كل في سبيله الذي يختار، وكان مضغ البيتل [1] هواية شائعة في أوقات الفراغ في مثل هذا الوقت من النهار وهو عادة سواحلية يمجها العرب سكان شبه الجزيرة العربية ولكننا نحن الذين نشأنا بين الزنوج والمولدين اعتدنا عليها، رغم استنكار أهلنا الآسيويين لها، ومع هذا فقد كنا نمضغ هذا النبات خلسة وفي غياب السلطان الذي حرم تداوله.

• • •

وبمختلف الهوايات وأنواع النشاط تنقضي الفترة القصيرة التي تفصلنا عن الغروب ويعلن عن غروب الشمس باطلاق الرصاص وضرب الطبول من قبل الحرس الهندي الخاص، وهذا الاعلان يعني ايضاً حلول صلاة المغرب، ويسرع الجميع لاداء هذه الصلاة الرابعة في موعدها المحدد لينصرف بعدها كل اما لزيارة الغير أو استقبال الزوار من الاخوان وزوجات الاخوة أو زوجات الأب، حيث يزجى الوقت بالمرح والسرور بين أحاديث تدار ونوادر تروى وقصص تقرأ، أو بين الخياطة والحياكة والتطريز أو لعب الورق في بعض الأحيان (ولكن دون

---

(١) البيتل : نبات ثمرته حادة الطعم يمضغها الافريقيون وسكان القارة الهندية وهي ذات تأثير مخدر نوعا ما.

نقود أو رهان) أو بين الغناء والاستماع إلى عزف الزنجيات على آلات طربهن الوطنية، وتدور بين هذا وذاك فناجين القهوة وكؤوس عصير الليمون وصحون الفاكهة والحلويات .

وفي حوالي الساعة السابعة والنصف يرتفع الاذان لصلاة العشاء وهي الصلاة الخامسة والأخيرة ولكن هذه الصلاة لا تقطع اجتماعات القوم وأحاديثهم فقد أباح الشرع تأجيل أدائها إلى أي وقت قبل النوم .

ويبدأ وقت النوم في الساعة العاشرة للذين لم تتح لهم فرصة الزيارة او استقبال الزوار، اما من عداهم فقد يمتد بهم السهر إلى منتصف الليل أو بعده بقليل .

وليس للاطفال عادة النوم المبكر أو في ساعة معينة بل ينام كل في الوقت الذي يريد، بل وفي المكان الذي يريد، ثم يتولى العبيد نقله برفق وهدوء من ذلك المكان إلى فراشه المعتاد .

وقبل الذهاب إلى الفراش يصرف الخدم من الرجال للالتحاق بعوائلهم التي تسكن بجوار القصر ثم تطفىء الشموع في حين تبقى الفوانيس الفضية مضاءة حتى مطلع الفجر . وتذهب السيدات إلى فراشهن بكامل لباسهن وحليهن كما قلت ذلك من قبل، وتصحب السيدة ذات اليسار إلى فراشها وصيفة أو وصيفتين، وكما تعمل اصابع الوصيفات في الصباح الباكر على بعث الحيوية والنشاط في جسم السيدة الراقدة وايقاظها من سباتها اللطيف واحلامها اللذيذة فان اصابعهن تعمل في هذه الساعة المتأخرة من المساء على بعث الراحة والاسترخاء في جسم سيدتهن حتى تستسلم لسلطان الرقاد ولذيذ الاحلام، وتنسحب بعدها الوصيفات إلى فراشهن .

وبعد فمن الخطأ الكبير القول بأن ليس لدى المرأة الشرقية ما تعمله طيلة يومها فصحيح انها لا تعمل خارج بيتها لعدم حاجتها للعمل وصحيح انها لا ترسم أو تعزف على البيانو أو ترقص (كما هو مفهوم الرقص عند الغربيين) أو ترتاد حفلات الليل . ولكن هذه الامور ليست هي كل الوسائل المتيسرة لقضاء الوقت بل ان هناك وسائل اخرى غيرها . واذا كانت المرأة الاوروبية

تمارس هذه الهوايات والأعمال بحثاً عن السعادة أو جريا وراء اللذة فنحن الجنوبيات سعيدات وراضيات بحياتنا ولا نعرف هذا اللهاث المسعور وراء المال والملذات ولا نقره ولا نرضى به ولا يهمنا بعد ذلك ان تتهمنا المرأة الأوروبية بالتخلف والجمود.

• • •

واستكمالا للحديث عن حياتنا اليومية لا بد لنا من تفصيل الكلام عن الطعام ومراسمه في قصر ابي في زنجبار وكما سبق وقلت فان وجباتنا الرئيسية كانتا اثنتين. ففي التاسعة صباحا كنا نجتمع في البهو الكبير لنقبل يد الوالد. والقاعدة العامة ان يجتمع كل انجال السلطان واحفاده إلى مائدة الافطار حين يكون السلطان في القصر حتّى بالنسبة لاولئك الذين يسكنون في بيوتهم الخاصة خارج القصر. ولا أذكر ان ابي ذهب يوما إلى بيت احد منهم لتناول الطعام.

ولم يكن لدينا — وربما كان هذا هو الحال في كل بيوت الشرق — غرفة خاصة للطعام، بل كنا نتناول وجباتنا اما في الشرفة الفسيحة أو في احدى صالونات القصر حيث تنصب السفرة وتصف عليها اصناف الطعام، والسفرة هي ما يقوم مقام طاولة الطعام وهي طاولة تشبه طاولة البليارد الا انها — أي السفرة — في ضعفي طول طاولة البليارد وفي ضعف عرضها. ولكنها أوطأ منها كثيراً اذ لا ترتفع عن الأرض أكثر من ثلاثة انجات.

ومع أن بيتنا يحوي الكثير من الاثاث الأوروبي كالكراسي والأرائك والطاولات وحتّى خزانات الملابس، الا اننا رغم هذا كنا نتناول طعامنا على الطريقة الشرقية الصحيحة جلوسا على الارض فوق السجاد أو الحصران.

وكانت افضلية السن والمقام امر واجب الاتباع بكل دقة وصرامة. فكان السلطان يجلس إلى صدر المائدة وإلى جانبيه ابناؤه الكبار حسب اعمارهم ويليهم في طرف المائدة صغارهم ممن تجاوزوا السابعة من اعمارهم. وتحوي المائدة اصناف عديدة من اطباق الطعام تبلغ الخمسة عشر صنفا واكثر. والرز هو قوام الطعام وسيد كل وجبة باستثناء الافطار وتتنوع اشكال طهيه واعداده تنوعا لا

حصرها . وبالنسبة للحوم يفضل لحم الضأن والدجاج وتقدم الاسماك بكثرة كما يقدم الخبز الشرقي والمعجنات والحلاوة . وخلافا للطريقة الاوروبية فان الطعام يصف على السفرة قبل ان يجلس اليها أي أحد وهذة الطريقة تغني عن الخدمة، لهذا ينسحب الخدم إلى طرف ناء من المكان ولكنهم يظلون متأهبين لتلبية الاوامر.
وكثيرا ما يرسل السلطان احدهم بصحن مختار من الطعام أو بقطعة من الحلوى اللذيذة إلى احد اطفاله الذين لا يؤهلهم سنهم للجلوس إلى مائدة السلطان أو لاحد المرضى من افراد عائلته . واني لاذكر ركني المفضل في بيت الموتني حيث كانت تصل إلي فيه الاطباق الشهية التي كان يختارها الي السلطان ، ومع اننا نحن الصغار كنا نأكل نفس اصناف الطعام الذي يقدم على المائدة للكبار ، الا انه من دواعي الفخر والسرور للواحد منا أن يكون طعامه مما يختاره ويخصه به السلطان نفسه، وكان هذا العمل يدخل السرور والبهجة إلى قلب السلطان ايضا .

وعند الجلوس على المائدة وقبل البدء بتناول الطعام يردد الجميع بصوت خافت ولكن بنبرات واضحة « بسم الله الرحمن الرحيم » وعند الانتهاء من الاكل يردد المرء كلمات الحمد والشكر لله كقوله الحمد لله رب العالمين .

وكان ابي هو اول من يأخذ مجلسه على المائدة ثم يتبعه الجميع حسب اقدميتهم وكان هو أول من ينهض عنها . وليست لدينا عادة تخصيص صحن لكل فرد بل ان جميع الاطباق ــ عدا الرز تقدم في صحون صغيرة تصف بانتظام في جميع اطراف السفرة، بحيث يستطيع ان يشترك كل اثنين بالاكل من صحن واحد . ولا تدار المشروبات مع الاكل وانما يقدم الشربت بعد الطعام . كما اننا لا نعرف عادة وضع الزهور أو الفواكه على السفرة وليس من العادة تبادل الحديث اثناء الاكل الا اذا اراد السلطان نفسه ان يتكلم . وما عدا ذلك فيرين الصمت على الجميع وهو امر مريح على كل حال .

وقبل تناول الطعام وبعده يطوف علينا العبيد حاملين اباريق الماء والطشوت الصغيرة والمناشف لنغسل ايدينا قبل الاكل وبعده، وذلك ان اداة الاكل الشائعة عندنا هي الاصابع وقد نستعمل الملاعق نادرا اما الشوكات والسكاكين فلا نضعها

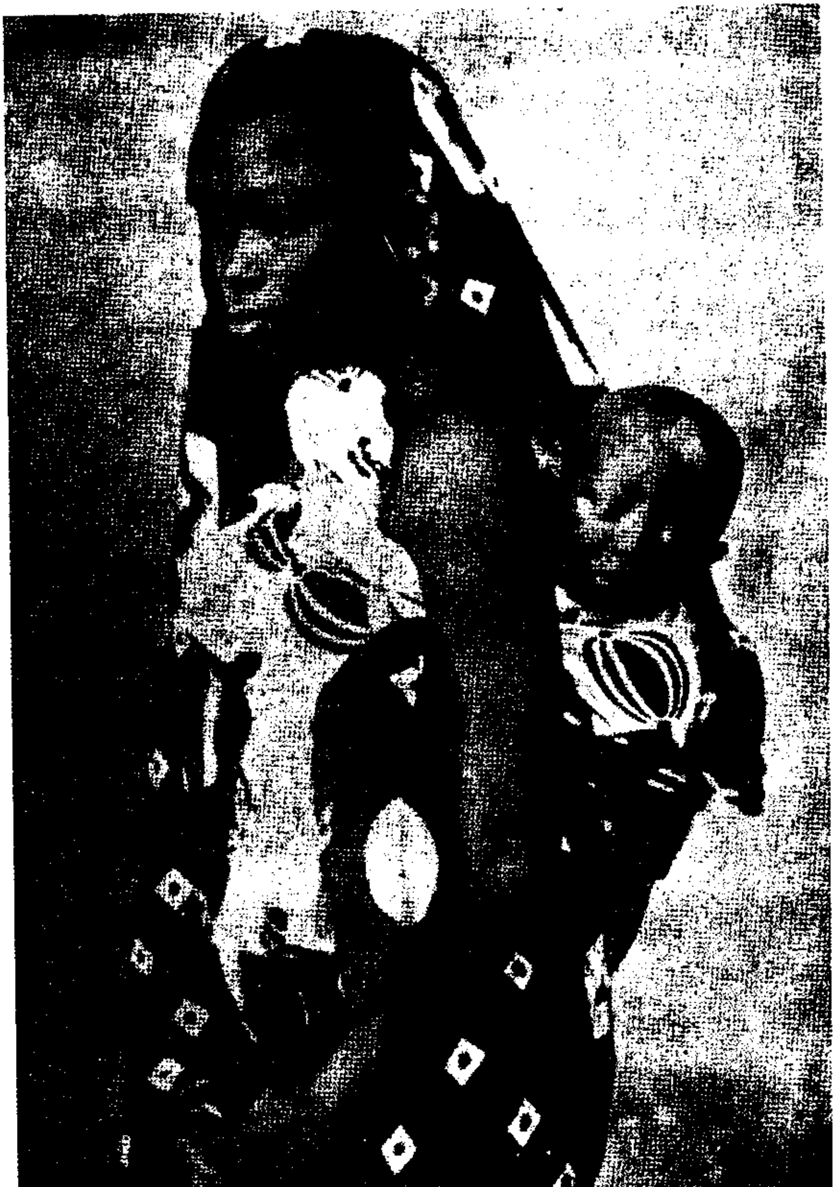
على المائدة الا اكراما للضيوف الاوروبيين حين يتناولون معنا الطعام . وبعد غسل الأيدي بالماء نعطرها بماء الورد أو الكولونيا .

وبعد اتمام الوجبة بحوالي نصف ساعة يدور الخدم علينا بالقهوة المكاوية الأصيلة في فناجين صغيرة فوق صحون من الذهب والفضة . والقهوة في الشرق كثيفة لزجة ولكنها خالية من الشوائب تماما، وتشرب لوحدها بلا حليب ولا سكر ، وتصب القهوة في الفنجان قبل شربها مباشرة وهي عملية تحتاج إلى مهارة خاصة لا ينهض بها الا قليلون ويحمل المقهوي دلة القهوة المصنوعة من النحاس بيده اليسرى في حين يمسك بيمناه فنجانا واحدا موضوعا في صحنه، ويسير إلى جانبه مساعده الذي يحمل صينية ملأى بالفناجين الفارغة مع دلة اخرى مملوءة قهوة . واذا تفرق القوم فعلى هؤلاء المقهوية ان يدوروا عليهم فردا فردا ويسقوهم هذا الشراب الاسود اللذيذ، والكل يعرف مقدار اهتمام الشرقي بالقهوة وعنايته بصنعها، فهي تحمص وتطحن وتغلى حين تطلب ولذلك فهي جديدة دوما ولا تخزن القهوة المحمصة أو المطحونة أو المغلية بل ترمى جانبا أو تعطى للخدم .

ولا تختلف وجبتنا الثانية وهي الأخيرة التي تكون في حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر عن الوجبة الأولى في مراسيمها وترتيباتها ولذا فلا حاجة الى اعادة الكلام عنها .

وفيما عدا هاتين الوجبتين فهناك أطباق من الحلويات وكؤوس العصير تدار على الحاضرين بين الحين والآخر في مجالسهم واجتماعاتهم .

• • •



ام وطفلها في زنجبار

الفصل السابع

ولادة الأطفال وتربيتهم

ولادة طفل جديد في أية عائلة حدث سعيد تبتهج له الأسرة ويحتفي به الوالدان وكذلك كان الامر في بيتنا، فعلى الرغم مما يحركه مثل هذا الحدث من عقارب الحسد والغيرة في نفوس بعض نساء القصر، فقد كان مناسبة سارة يفرح لها السلطان وام الوليد ويحتفلان بها. والحق ان الفرحة بهذه المناسبات لم تكن لتقتصر عليهما فقط. بل كنا، نحن الصغار والصغيرات، نشاركهما البهجة والسرور لما تنطوي عليه هذه المناسبات من افراح وليال ملاح كنا نحن قطب الرحى فيها واكثر المستمتعين فيها حبورا وهدايا وحلويات، ولذلك كنا – اولاد السلطان وبناته – ننتظر باللهفة قدوم كل اخ جديد يزيد في عددنا، ولم يكن انتظارنا ليطول اذ كانت الزيادات لا تقل عن الستة في كل عام.

• • •

وعملية الولادة امتحان شاق للأم والطفل معا، فلا وجود في بلدنا للطبيب المولد ولا علم لقومنا البتة بوجود مثل هذا الكائن. وحتى لو عرفوا به فان التقاليد لا تسمح لرجل ان يمارس هذه المهنة ذات الطابع النسائي الخاص. ولهذا تستعين الامهات عند الولادة بالقابلات الهنديات، ويفضلهن نساؤنا على القابلات العربيات والسواحليات لأسباب أجهلها، وان كن كلهن سواء في الجهل الاعمى وانعدام الخبرة وقذارة الأساليب. وقد حدثتني بعض صديقاتي المتزوجات عن الطرق البدائية والأساليب الوحشية التي تعمد اليها هاته الدايات في التوليد مما

يجعل من هذه العملية امتحانا عسيرا ويجعل سلامة الأم وطفلها من هذه العملية معجزة يعود الفضل فيها إلى الله تعالى ولقوة بنيان اجسامهم .

• • •

فاذا انتهت هذه العملية بسلام وخرج الوليد إلى الحياة حيا سليما، فأول ما يستقبل به الحياة ان يغسل بماء فاتر ويرش عنقه وما تحت ابطيه وما بين فخذيه بمسحوق عشب معطر ثم يوضع الطفل في الفراش على ظهره وتمد ذراعاه ورجلاه بصورة مستقيمة ، ثم يشد جسمه كله في رباط قوي من قدميه حتى كتفيه، وتلف اطرافه كلها مع جذعه، ويبقى الطفل في اسره هذا اربعين يوما كاملات لا يخرج منه الا عند الاستحمام وهو مرتين في اليوم . والقصد من هذه الرياضة ان يكون للطفل قوام مستقيم جميل .

وتتولى الام رعاية طفلها بنفسها وان كثر عدد الخدم عندها . ويقتصر عمل الخادمات على هز المهد الخشبي الواسع ، الجميل الصنع ، والذي تغطيه كلة فضفاضة خفيفة بيضاء، ونادرا ما تهز الام مهد ابنها بنفسها فاذا ما فعلت ذلك فللتسلية والترويح عن النفس .

واذا كان الوليد بنتا خرمت اذناها في اليوم السابع بأبرة حادة، ووضعت فيها خيوط حريرية ترفع بعد اسبوعين لتحل محلها الاقراط التي تبقى معلقة إلى الابد لا ترفع الا أيام الحداد فقط .

وعند بلوغ الوليد الاربعين من عمره يجري له احتفال فريد من نوعه لا وجود مثله البتة في اوربا، وهو الاحتفال بحلاقة شعر الرأس .

وقد يبدو هذا امراً غريبا بالنسبة للقارىء الاوربي ولكن الامور كثيراً ما تختلف اختلافا بينا بين اهل الشمال واهل الجنوب . فالطفل الذي يولد في الجنوب خفيف شعر الرأس أو قليله ينظر اليه بنفس عين الاستغراب التي ينظر بها هنا للطفل المولود بشعر كث طويل .

وما زلت أذكر استغراب مربية اطفالي الالمانية من شعر طفلتي الاسود الكث وكيف انها ظلت تنتظر بفارغ الصبر عودة زوجي اليها بفرشاة الشعر التي طلبتها.

وتم عملية الحلاقة وفق مراسم معينة تم في جو عبق من روائح البخور الهندي ويحضرها ثلاثون أو اربعون شخصا ليشهدوا كبير الحصيان يقوم بكل دقة وانتباه بمهمة الحلاقة وهي مهمة غريبة عليه لا يمارسها الا في هذه المناسبات فقط وبشكل لا يخلو من الخطر على جمجمة الوليد الغضة . ولكنه يقدم على هذه العملية املا في هدايا السلطان الكبيرة في مثل هذه المناسبات .

وللشعرات الاولى من رأس الطفل مقام خاص، فلا يجوز حرقها او رميها بل يجب الاحتفاظ بها او دفنها في موضع معين في التراب أو في شق من شقوق الجدران، اتقاءً للعيون الحاسدة .

وفي هذا اليوم ذاته، يفك الطفل من رباطه ويرتدي قميصاً حريريا وطاقية ذات ضفائر ذهبية، وان كان بنتا اضيفت اليه الاقراط والأساور والخلاخيل .

وفي هذا اليوم يخرج الطفل من عزلة النفاس، فتجوز رؤيته للجميع بعدما كانت رؤيته مقصورة على والديه وخدمه فقط .

ولا اشك في أن الاطفال في الشرق بملابسهم البيض الشفافة يبدون اجمل من الاطفال في اوربا بملابسهم الكثيرة الثقيلة، ولم أغير رأيي هذا رغم بقائي في المانيا سنين عديدة، وفي الواقع كنت استفظع رؤية اطفالي بملابسهم الاوربية الثقيلة وانا اقارنهم بأولاد اخواني واخواتي بملابسهم الشفافة الجميلة .

وكان العطر يستعمل بكثرة في زنجبار . فجميع ملابس الطفل ومناشفه وفراشه وثيابه تعطر بدهن الياسمين المنعش ثم بالمسك والعنبر قبل ان يستعملها، ثم يرش عليها بعدئذ عطر الورود، ويجب ان نذكر هنا ان الابواب والشبابيك تبقى مفتوحة طيلة العام تقريبا فيخفف هذا من وطأة ما قد ينجم من كثرة التطييب.

ويستعمل الحجاب، أو التمائم، لحماية الطفل من العيون الحاسدة وكانت تسمى «حماية او حرز» وهو بالنسبة لابناء الطبقة الوسطى كيس جلدي صغير يربط على الذراع الايسر ويحوى بصلة وثومة وعظما — أو صدفة —، ويستعاض عن هذا الحجاب لدى ابناء الطبقات العليا بآيات قرآنية منقوشة على قطعة من الذهب أو الفضة تتدلى بسلسلة في عنق الطفل، ويستمر الطفل الولد

في حمل هذه إلى سن معينة اما البنت فتبقى تحملها كما تحمل « الحرز » وهو كتاب صغير طوله انجان وعرضه انج واحد يوضع في صندوق من الذهب والفضة ويعلق في الصدر بسلسلة ذهبية . والذين يحملون في اعناقهم أو ايديهم اسماء الله تعالى لا يجوز له الدخول بها إلى الاماكن غير الطاهرة، وهذا دليل على احترام المسلم وعظيم تقديره لخالقه تعالى .

ويعطي الاطفال إلى جانب حليب امهاتهم، حليب حيواني يغلي مع الرز المطحون والسكر ويصب في اكواب ذات مصب رفيع ولم تكن قناني الرضاعة معروفة في ايامي، ولا يعطي الطفل طعاما آخر حتى تبدأ اسنانه بالظهور فيباح له آنذاك ان يأكل ما يشاء . ولم يكن من العادة حمل الطفل كثيراً بل كان يفضل تركه على سجادة وسط الغرفة ليبهج قلوب محبيه بحبوه ولهوه .

ويحتفى بالطفل حين يبدأ أولى محاولاته للجلوس، فيلبس الطفل وامه ومربيته ازهي ثيابهم ويجلس الطفل على عربة متوسطة الحجم، لها عجلات صغيرة واطئة، وتفرش بالوسائد والفرش وتمد رجلا الطفل على عارضة خشبية تمتد امامه، ثم تقوم احدى الهنديات بتحميص الذرة بطريقة خاصة تحيل الحبة الواحدة منها بيضاء بحجم حبة العنب، تمزج الذرة بالنقود الفضية وينثر هذا الخليط النفيس فوق رأس الطفل الغافل عن امره فيتسابق اخوته واخوانه الصغار لجمع ما يتيسر من النثار الثمين .

ويبقى الاطفال حفاة حتى يبلغوا السن الذي تستطيع فيها اقدامهم لبس النعال أو القبقاب والاولى وهي جلدية للأولاد والثانية خشبية للبنات اما الجواريب فلا يرتديها ولا يعرفها كلا الجنسين في كل الاعمار، لكن السيدات ذوات المقام قد يلبسها عند ركوب الخيل، لان الواجب ستر الرجلين والركبتين .

وعندما يبلغ الطفل شهره الثالث أو الرابع تكبر حاشيته فيضاف إلى مربية الطفل خادمتان تبقيان ملكه منذ ذلك اليوم . وكلما كبر الطفل ونما استحق خدما اكثر، فاذا مات احد الخدم عوضه عنه ابوه بآخر او بمبلغ مجز من المال ويبقى الاولاد مع نساء القصر حتى السنة السابعة من اعمارهم حيث تجرى

عملية ختانهم باحتفالات باذخة تطول ثلاث ايام ويحضرها السلطان وعلية القوم وفي هذا العمر يمنح الطفل حصانا خاصاً ليصبح ملكه وذلك لكي يتعلم الفروسية في سن مبكر، والواقع ان الواحد منهم ليبرع في هذا المجال قدرة ورشاقة لا تتوافر الا في الفرسان المحترفين في ساحات السيرك .

ولم يكن ركوب الخيل رياضة بدنية فحسب بل كان – فروسية – بمعناها الشامل وكان بروز الرجل بين صحبه يقاس بمقدار ما يبرز في هذه الرياضة وكان ابي يهتم فيها اهتماما خاصا ويراقب بنفسه كفاءة ابنائه وحاشيته ويقوم اخطاءهم .

• • •

ومربية الطفل لها مقام خاص فهي تبقى – حتى وان عملت لفترة قصيرة – محل التقدير والاحترام طوال حياتها . وجميعهن في الغالب من العبيد الرقيق الا انهن يعتقن جزاء اخلاصهن وعملهن ولكن من النادر ان تترك احداهن الدار حتى بعد تحررها . وتستطيع الام ان تطمئن إلى ترك طفلها بيد المربية التي لا تقل حرصاً عليه ورعاية له عن ابويه .

وما اوسع الفرق بين هذه العناية والاخلاص وبين الاهمال وقسوة القلب لدى المربيات الالمان، وكم كدت ان اخرج من طوري وانصب على هؤلاء اللئيمات تعنيفا وزجرا وانا اشاهد في الشارع قسوتهن على من في رعايتهن من الاطفال الابرياء . وقد يكون لهاته القسوة بعض العذر، فان الحاجة قد اضطرت الواحدة منهن أن تترك طفلها في بيتها وحيدا، وربما مع امها العجوز لتقضي يومها ترعى طفلا آخر لا تحس نحوه بأية عاطفة . وهنا يكمن الفرق بين سلوك المربيات الغربيات والمربيات السود .

فالمربية السوداء ليست غريبة عن سيدتها بل لا بد وانها قضت في بيت سيدتها عمرا طويلا، ان لم تكن قد ولدت فيه وعاش فيه ابواها، فهي لذلك تعتبر نفسها فردا من افراد العائلة، والامر الثاني هو ان المربية السوداء لا تفصل عن طفلها، بل يبقى معها في نفس البيت ، ينال نفس الرعاية ونفس الغذاء الذي يناله ابن

سيدتها، ويغتسل معه في نفس الحمام ويلبس ملابسه التي يستغنى عنها، وحتى اذا انتهت فترة الرضاع فيبقى الاثنان رفيقين في اللعب واخوين بالرضاعة. لا تنقض اخوتهما الا احداث الزمان ولا يهدم اخلاص احدهما للآخر الا وسوسة الشيطان واصحاب السوء.

ولعل هذا النظام العائلي هو الذي يجعل المربيات في الشرق اكثر اخلاصا واشد تفانيا في واجبهن من رفيقاتهن في اوربا، والذين رغم كثرة نواقصهن يثيرون شفقتي لتركهن اطفالهن من اجل المال. وقد قيل لي ان هؤلاء النسوة لا يشعرن بهذه الغصة كما اشعر بها انا، ولكن لا اصدق هذا. واعود إلى مربياتنا فاذكر لهن خصلة سوء هي سردهن للاطفال قصص العفاريت والجان اما لتسليتهم أو لتخويفهم، فالاسود والذئاب والضباع والسعالى والغول والتنين والساحرات وغيرها هم دوما ابطال هذه القصص الذي يقف لها الشعر رعبا وتشيع الذعر والخوف في نفوس الاطفال، وقد فشلت جميع محاولات الزجر او النصح في تغيير هذه العادة السيئة.

وعلى العموم فان تربية الطفل في الجنوب اسهل منها في الشمال، فهي على الاقل تخلو من نزلات البرد التي تؤدي بالطفل في كثير من الاحيان إلى اسوأ النتائج والاطفال هناك اكثر نشاطا واكثر اعتمادا على انفسهم رغم حياتهم المترفة وفرصهم اكثر للهروب من البيت واللعب خارجه، ومع ان رياضة الجمباز لا وجود لديها عندهم فان اعمال الفروسية والقفز من حصان إلى آخر من الامور الاعتيادية التي لا تثير الغرابة عند احد، والقفز العالي بالحصان امر يتبارى فيه الاطفال ويحاول كل ان يبز اخاه فيه، والسباحة هواية شائعة اخرى ويتعلمها الاطفال من تلقاء انفسهم، والتدريب على السلاح والرماية يقبل عليه بكل حماس، ومع ان الاولاد يذهبون مسلحين بكامل السلاح من البارود والرصاص فلم يسمع بحادث واحد وقع نتيجة الاهمال أو عدم الاكتراث.

واذا بلغ الامير سنا معينا خرج من رعاية ابيه ومنح بيتا منفصلا يعيش فيه مستقلا به وحده او تشاركه به امه ان كانت على قيد الحياة او اخته ان رغبت هي في ذلك. ويجرى عليه السلطان مع البيت راتبا شهريا مقطوعا يزيد عند

الزواج او كلما يرزق طفلا أو اذا ابدى من الشهامة او حسن السيرة ما يرضي اباه الهمام. ويجتمع جميع الابناء والبنات مع ازواجهم واطفالهم مرة واحدة في العام على الاقل، في بيت ابينا السلطان حين تصل سفينة البضاعة حيث يأخذ كل نصيبه من الكسوة وحيث يتسع المجال لطلب الزيادات من الوالد!

واذا نشبت الحرب في عمان، وهو امر مع الاسف دائم التكرار، فعلى جميع الامراء ان يلتحقوا بالقوات المحاربة وان يحاربوا كما يحارب الجنود الاخرون. ولاشك ان الضبط التربوي في بيتنا صارم ودقيق، لكن الهدف منه هو رفع مكانة السلطان في عيون ابنائه وزيادة احترامهم له. وكنت غالبا ما اشاهد احد اخوتي الكبار، اذ يستبطأ قدوم الخدم، ينهض ليجلب بنفسه لابيه نعاله الذي تركه في باب الغرفة عند دخوله اليها.

وليس لي ما اقوله عن تربية الأميرات الا النزر القليل. فهن ينشأن ويتربين مع الأولاد نفس النشأة والتربية حتى اذا بلغوا جميعا السابعة من العمر كان الأولاد أكثر حرية في اللعب خارج البيت.

واذا تزوجت البنت احد ابناء عمومتها، وهم اوفر في عمان منهم في زنجبار، تنتقل بطبيعة الحال من بيت ابيها إلى بيت الزوجية. لكن بيت الوالد يبقى الملاذ الأخير للبنت في أوقات الضيق والشدة ترجع اليه على الرحب والسعة. واذا لم تتزوج كان لها الخيار في البقاء تحت رعاية أبيها ام حماية احد اخوتها. وكان لكل أخت أخ مفضل، والعكس صحيح أيضا، لا فرق ان يكونا من نفس الام أو من أمين مختلفتين. وكانا يرتبطان بالود العميق في السراء والضراء يحمي احدهما الآخر ويسنده في كل الامور. وعلى ما في هذا التقليد من لطف ووداد فقد كان مثار الحسد والخصومات وكل انواع المشاجرات العائلية.

وكثير ما كان يحدث ان تتقدم احدى الاخوات إلى السلطان طالبة عفوه عن هفوة أو خطأ ارتكبه اخوها المفضل، وكان السلطان يستجيب لطلبها ويصفح عن ابنه المقصر، وقد كان لأبي ميل خاص إلى بناته وكان كثير الرفق بهن وخاصة

الكبيرات منهن، فاذا دخلت للسلام عليه احداهن نهض اليها واجلسها معه على الأريكة حين ان الفتيان من ابنائه ونحن الصغيرات من بناته نظل في مجلسه واقفين بكل رهبة وخشوع لا تنبس ببنت شفة الا أن نجيب على ما يوجه الينا من أسئلة.

• • •

الفصل الثامن

المدرسة والتدريس

ليس للمدرسة كبير أهمية في حياة الشرقي على العكس من الأوربي الذي تلعب المدرسة دورا اساسيا في حياته، اميرا كان أم من عامة الشعب . فهي — هنا في أوربا — العامل الأول في اعلاء شخصية الفرد وتوسيع ادراكه وتطوير حياته وتحقيق طموحه، وليس الامر كذلك في الشرق . فالمدرسة امر ثانوي القيمة لعلية القوم ولا قيمة له لغالبية الناس .

وقبل الاستطراد في هذا الكلام لا بد لي ان ابدأ بوصف « المدرسة »، كما كانت في بيتنا في زنجبار .

تعتبر الدراسة في بيوت السلطان الزامية على كل من بلغ السادسة من عمره ولدا كان ام بنتا، ودون أي استثناء . وكان السلطان شديداً صارما في قضايا التعليم لا يقبل من ابن عذرا ولا يغفر له شكوى تقدم ضده من معلمه .

ويقتصر تعليم البنات على القراءة فقط — في حين يتعلم الأولاد الكتابة والقراءة معا . وكان في بيت الموتني معلمة واحدة واخرى في بيت الساحل، وكلتاهما جاءتا من عمان بأمر من والدي . وكانت معلمتنا في بيت الساحل ضعيفة العود غير قوية بنيان الجسم، فكانت تلزم الفراش بين وقت وآخر، وكانت ايام وعكاتها أيام عطلنا غير المنتظرة فكنا نتمنى لها اشتداد البلاء وتأخر الشفاء .

وكان ما نسميه « المدرسة » مكانا نائيا في الشرفة الكبيرة يشاركنا فيها الحمام والطواويس والببغاوات وكانت تطل على ساحة القصر الصاخبة فكنا نمتع أنفسنا بمراقبة حركات الناس في الساحة تحتنا .

وكان اثاث « المدرسة » حصيرة كبيرة تفرش في ارض الغرفة كلها . وبهذا الشكل من القلة والبساطة كانت ادواتنا المدرسية فهي نسخة من القرآن مع مسنده . ودواة حبر صغيرة (صنع محلي) وقلم قصب وعظم جمل كبير نظيف مصقول حيث تسهل الكتابة بالحبر عليه وهو يقوم عندنا مقام السبورة او لوح الكتابة ويوفر على أعصابنا صرير القلم على اللوح .

وكانت مهمتنا الاولى في الدراسة ان ننقن مبادىء قراءة الالفباء العربية المعقدة، وكان سبيلنا إلى ذلك قراءة القرآن الكريم، وهو كتابنا المدرسي الوحيد.

وتبدأ المدرسة حوالي السابعة، حيث يلتئم جمع الطلاب في المدرسة – الشرفة، وبانتظار قدوم المعلمة، تجري بيننا مختلف العاب النط والقفز وأعمال المصارعة واللكم والتسلق على حاجز الشرفة معرضين أنفسنا ما امكننا ذلك إلى خطر السقوط، وكنا نوكل إلى احدنا مهمة المراقبة والتنبيه لنا بصفير معين إلى وصول رسولة العلم والعرفان، وما ان نسمع صفيره حتّى ينقلب الجو الصاخب إلى هدوء تام، ونكون في في اقل من لحظة قد جلسنا على حصيرنا بكل هدوء واتزان وقد ارتسمت على وجوهنا صورة الطاعة والبراءة، ثم تنهض نحيي هذه الطاغية تحية جنائزية المظهر وهي تدخل علينا والخيزرانه في يمناها ومحبرة نحاسية كبيرة في يسراها . ونظل في وقفة الاحترام حتى تجلس هي ثم تأمرنا في الجلوس فنجلس على الأرض متربعين حول المعلمة . ثم تبدأ هي بقراءة سورة الفاتحة من القرآن الكريم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . »

ثم نشترك جميعنا في تكرار قراءة هذه السورة بعدها عدة مرات، ونختم كل مرة منها بكلمة آمين نزعق بها عالية طويلة ...

وبعد أن نستعيد دروس اليوم الماضي نأخذ درسا جديداً في القراءة أي سورة جديدة أو مقطعا من القرآن الكريم تقرأه علينا المعلمة ونعيده بعدها بأعلى اصواتنا، وكان هذا هو كل شيء – فلا شرح ولا تفسير . لذلك لم يكن في بيتنا من يفهم

شيئاً مما قرأه أو يستطيع ان يشرح الفكرة أو الحكمة التي انطوى عليها النص القرآني الشريف رغم ان اكثرنا قد حفظه عن ظهر قلب . ويستمر الدرس حتى الساعة التاسعة ثم نعود اليه بعد تناول طعام الافطار ويستمر حتى الصلاة الثانية حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر .

ويأخذ الأولاد – كما قلت من قبل – بالاضافة إلى ذلك دروسا في الكتابة كنا نحن البنات محرومين منها .

وكان من المسموح لنا به ان نجلب معنا عبيدنا فكانوا يجلسون عادة في مؤخرة الجماعة في حين كان لنا ان نتربع على البساط حيث نشاء، وكثيراً ما كان هؤلاء العبيد يبزون اسيادهم في الفهم والتعلم .

ولم يكن اسلوبنا الدراسي يعرف شيئاً اسمه « الواجب البيتي » بل كانت علاقتنا الدراسية بالمدرسة تبدأ وتنتهي عند باب الشرفة .

ولم نكن نعرف الامتحانات ونتائجها، بالمعنى المثير المعروف في الغرب، وبالتالي فلم يكن الابوان ينتظران نتائج الفصل الدراسي لابنائهما وانما اذا وجد التلميذ متأخرا جدا في دروسه أو مبرزا فيها بشكل واضح، واذا كان حسن السلوك أو سيئه فان المعلمة تخبر أم التلميذ أو أباه السلطان بذلك شفاها، وكانت أوامر ابي الشديدة ان نعامل بالسوية وان يطبق علينا اشد ما نستحقه من عقاب على كل مخالفة ترتكبها، ولهذا وتجاه تصرفاتنا المشاكسة فان المعلمة لم تجد من سبيل للتفاهم معنا الا عصاها المؤذية .

ومهما تكن المعلمة مرعبة وممقوتة ايام الدراسة فانها تبقى محل الاكرام والاحترام من تلامذتها الامراء والاميرات ويظلون طيلة حياتهم يمحضونها الود والتبجيل، ويكون لها في كل بيت مقام خاص يؤهلها للتدخل في الشؤون العائلية وازالة الخلافات بين الاخوة والاخوات – تلامذتها القدامى – وهي بهذا تشبه الاباء الروحانيين في اوربا .

وإلى جانب القراءة والكتابة كنا نتعلم بعض مبادىء الحساب وهو عد الأرقام وكتابتها من الواحد إلى المائة، وحفظها دون كتابتها من المابة إلى الألف، وما زاد

عن ذلك فيعتبر من النوافل . ولم يكن يعنى بالنحو والخط ، اما عن التاريخ والجغرافيا والفيزياء والرياضيات فانني لم اسمع بهذه المعارف الا بعد وصولي إلى هذه البلاد . وانكبابي على تعلمها انكبابا مضنيا ، ولكن السؤال الحائر هو هل اني اصبحت الآن وبعد هذا الجهد المضني احسن حالا أو اكثر ذكاء من رفيقاتي في ذلك الجزء من العالم اللواتي لم يسمعن بهذه العلوم ؟ ، وكل ما استطيع الرد به هو ان اكتساب هذه العلوم لم يحمني من التعرض اضروب الفشل والاستغلال ومن اناس يتقنون هم ايضا هذه العلوم والمعارف .

فيا ايتها النفوس الحبيبة الصافية السعيدة في بلادي الجنوبية ... انعمي بجهلك معارف الكيمياء والفيزياء وفلسفة اليونان وتاريخ الرومان وثقافة الغرب ، فانكم لا تستطيعون ان تتصوروا ما يرتكب هنا من اعمال الدس والدناءة باسم الثقافة السامية . وانني لاقولها بكل صراحة وصدق بانني لم اتعرض في كل حياتي لاسوأ ضروب الابتزاز والاستغلال وادنى اساليب الغش والاحتيال كما تعرضت لها بعد اتقاني كنوز المعرفة الاوروبية ... ومع الأسف على ايدي اربابها واساطينها .

• • •

ورغم نقاط الخلاف والتباين بين نظم التعليم هنا وهناك ، فهناك صفة مشتركة بين الطلاب في الشرق والغرب ولعلها صفة عالمية عامة لا ينفرد بها شعب معين ، هو ميلهم الغريزي إلى ارضاء معلميهم بالهدايا ، فعندما يلح عليّ اطفالي لشراء باقة ازهار لمعلمتهم الالمانية السيدة فلانة ، فانه لا يسعني الا أن اتذكر أيام طفولتي في الزمن البعيد والمكان النائي – ايام لم أكن اعرف ان في الوجود شيئاً اسمه المانيا او اوربا – حيث اعتدت كما اعتاد اخوتي واخواتي على ان نقدم لمعلمتنا انواع الهدايا من الفواكه والحلويات لكسب رضاها . ولكم ضحيت بالشيكولاته الفرنسية النفيسة التي يوزعها علينا ابي وآثرت بها معلمتي العزيزة .

وقد نجحت دبلوماسيتنا معها باديء الامر فكسبنا رضاها كما كسبنا نتيجة لم تكن متوقعة هي كثرة العطل ، فان كثرة اكل الشيكولاته اتلفت اسنانها اتلافا

كبيرا كان يضطرها للانقطاع عن الدروس . وقد اعرضت بعدئذ عن قبول هذه الهدايا للحفاظ على أسنانها وعلى انتظام الدوام في دروسنا !

• • •

ولم يكن للدرس مدة محددة . فما يجب ان تتعلمه يجب أن تتعلمه سواء اقتضاك ذلك عاما ام اثنين ام ثلاثة . فالامر موقوف على قدرتك . ولم تكن الخياطة والتطريز مما يدخل في نطاق المنهاج الدراسي وانما كانت الامهات يتولين تدريب بناتهن على هذا الدرس وكانت اكثريتهن بارعات فيه ومع هذا فبين اخواتي من لا تعرف مسك الابرة حتى اليوم .

وهناك مدارس عامة ولكنها لابناء الفقراء فقط ، اما القادرون فيستأجرون لبنيهم معلمين خاصين ، وقد يقع عبء التعليم في بعض العوائل على عاتق سكرتير أو وكيل اعمال رب العائلة وفي هذه الحالة لا يعهد اليه الا البنات الصغيرات فقط .

• • •

ولانني قد نشأت وترعرعت وتعلمت في بلادي تلك ثم جئت بلاد الغرب . وعشت فيها اعواما مديدة وتعلم اولادي في مدارسها — فلا بد لي ان اقارن بين نظمنا البدائية التي تعلمت عليها ، ونظم التعليم الاوربية التي يتعلم عليها اطفالي في هذه البلاد . والتباين بين النظامين واضح واسع ، فوفرة الثقافة في المانيا يقابلها غلبة الجهل في زنجبار . فالوفرة هنا تقابلها الندرة هناك ، وأرى ان هذا الخلاف الحاد بين البلادين لن يزول بل يبقي ابد الدهر . اذ يبدو ان كلا من الشعبين غير قادر على أن يتوسط بين الامرين .

وعلى كل حال فالاطفال هنا تحشى ادمغتهم باكثر مما تستطيع ان تستوعب ، وتستنفد المدرسة جل نهارهم يقضونه في الهرولة من درس إلى آخر ليحشو ادمغتهم بأمور لا نفع فيها وكأن كل الهدف ان يبعثروا اوقات هؤلاء الاطفال الذين لو قضوا جزء من هذا الوقت في بيوتهم لكان ذلك انفع لهم . فاذا عادوا إلى البيت شغلتهم الواجبات البيتية والتحضير لدروس اليوم الثاني جل المساء فلا يراهم ابواهم في اليوم الا لماما ، فانفقدت الحياة العائلية وانفقد التأثير الأبوي

المستمر والتربية البيتية. وبفقدان هذه وتلك يتعرض اطفال النشىء الجديد إلى مخاطر شتى.

وهذا الوقت المديد الذي يفوق على الخمس ساعات. يقضيه هؤلاء الصغار الرقاق محشورين في مكان ضيق رطب عفن اشبه بالسجن يدعى «قاعة الدرس» وليس معهم الا كأس واحد يشرب منها مائتا طالب، أفليس هذا مما يقرز النفس وينشر الامراض. وأي غرابة بعد هذا اذا ما تعاودت الطفل الامراض وكيف تستطيع الأم في وسط هذا الجو أن تحفظ لأولادها الصحة والعافية. وبعد اليست مدرستنا في تلك الشرفة الواسعة التي يتلاعب فيها النسيم العليل اصلح مكانا من مدارس هذه البلاد وانفع في حفظ صحة التلاميذ والا فما فائدة العلم والثقافة اذا ما انهدت الصحة وتحطمت الاجساد.

ولم الاحظ في مدارس هذه البلاد كبير اهتمام بغرس شعور الاحترام والتبجيل للأبوين والكبار في قلوب الاطفال. فاننا لا نجد عند شباب اليوم في هذه البلاد ذلك الشعور المقدس بالتوقير والاحترام الذي كنا اولادا وبنات نحمله إلى أبينا وامهاتنا وإلى كل من هو اكبر منا.

كما أني أرى طريقة تدريس «الديانة» طريقة غير مجدية، بل انها طريقة محض آلية تقتصر على حفظ كشوف لا تنتهي بالأسماء والحوادث المتعلقة بالتاريخ الكنسي، وكان الافضل في نظري ان يستعاض عن هذه المعلومات التاريخية الجامدة بتعليمهم الذهاب المنتظم إلى الكنيسة أو بتنظيم مواعظ حسنة تنمي فيهم روح الفضيلة والتقوى.

ان الدراسة المثالية يجب أن تهدف إلى تنمية العقل والروح معا. لكن المشاهد هنا اهمال الجانب الروحي الذي يتضاءل على حساب نمو الجانب العقلي. فالاقبال على علم «الكتب» مبالغ فيه في هذه البلاد، حتى أصبح مطمح الجميع ان ينال «الشهادة الجامعية» التي تؤمن له المظهر الاجتماعي وحتى أصبح العمل اليدوي في هذه البلاد غير مرغوب فيه ابدا. وهذه الثقافة الظاهرية التي ملأت المخ وتركت الروح خواء قد زادت من حاجات الناس ومطالب العيش

عندهم فزاد اندفاعهم المرير نحو المنافع الدينوية وزادت مرارة المنافسة بينهم فلا غرابة اذا انحسر الخلق القويم والشرف والورع والقناعة والفضيلة وغطى عليها سوء الطوية والخداع والطمع والحقد والثورة على كل القيم التقليدية والمقاييس المقدسة . ولهذا فانني أرى علاج الثقافة الغربية يكون في مزيد من الايمان الروحي والتفكير بقدرة الله وملكوته .

وأنا لا أريد ان انتقد الثقافة الاوربية ولست ممن يقدر على ذلك ولكنما حاولت ابداء بعض ما لاحظته على طرق التعليم في هذه البلاد والتي اقنعتني بوجود اخطاء ونواقص مؤسفة في نظم التعليم الاوربية، كشفت عنها بقصد التنبيه والتحذير . ولكن مما يؤلمني ان أرى الاوربيين يتحاملون على الاسلام والمسلمين بشتى الأساليب ويوجهون اليهم شتى التهم دون ان يفهموا حقيقة الاسلام والمسلمين فهل لي بعد هذا ان اسأل بأي حق أو مبرر يسوغ الاوروبيون لأنفسهم التباكي على مصير « الشعوب المتخلفة » ومحاولتهم فرض ثقافتهم على تلك الشعوب .

ان الحضارة لا تؤخذ أو تعطى بالقوة، بل هي نتاج تجارب وتجاوب على مر القرون ويجب أن يترك لكل شعب الحق في اتباع قيمه ونظمه الاجتماعية والفكرية التي هي خلاصة حكمة قومه وتجاربهم على مر العصور ، فاذا أريد فرض افكار جديدة على مثل هذا الشعب تخالف معتقداته وتقاليده فان نتيجتها الفشل والخسران حتما .



زي النساء التقليدي

الفصل التاسع

أزياء النساء في بيوت السلطان

جرت العادة في الغرب ان تذهب المرأة إلى السوق بنفسها لتبتاع ما تحتاج اليه من ثياب بعد ان يدفع لها زوجها أو ابوها كلفتها، ولكن الامر في زنجبار يختلف عن هذا كل الاختلاف، فلا النساء مسموح لهن بالذهاب إلى الاسواق ولا مخازن كبيرة هناك فليس في زنجبار صناعات او معامل وانما تستورد جميع حاجاتها وثيابها من الخارج .

والنظام الجاري في بيتنا ان يستورد ابونا حاجتنا من الثياب مرة واحدة في العام ويوزعها علينا في يوم معلوم . وعلى هذا فقد وضع ابي نظاما متقنا للمقايضة والاتجار فكانت سفن اسطوله تمخر البحر من زنجبار محملة بالمنتوجات المحلية وخاصة القرنفل والتوابل قاصدة سواحل انكلترة وفرانسه وفارس والهند والصين حيث يقوم وكلاؤنا التجاريون في كل من هذه الموانىء ببيع حمولاتها ثم ابتياع ما نحتاجه من منتوجات تلك البلاد . ولدى ربان كل سفينة كشف طويل مفصل بأنواع البضائع المراد ابتياعها من كل بلد يحل فيه، أولها طبعا وعلى رأسها دائماً الأقمشة والثياب .

وكان توزيع البضائع يجري كما قلت على سكان القصور مرة واحدة في كل عام بعد وصول السفن بقليل . لذلك فلا عجب اذا ما انتظرنا وصول السفن ببالغ الشوق وفارغ الصبر واستقبلناها بالغبطة والبشر فقد كان وصولها يعني وصول نفائس اللباس والأشياء وتوزيعها علينا ومن ثم افتتاح موسم جديد من مواسم الأزياء والزينة .

وكان وصول السفن يشيع فينا نحن الصغار فرحا لا يوصف لانها تجلب الينا من اوربا انواع الهدايا واشكال اللعب، وما زلت اذكر فرحي الجنوني يوم رأيت لأول مرة في حياتي دمية ترتدي الملابس وتتكلم وتتحرك.

وبعد وصول الاسطول بيومين أو ثلاثة يعلن عن يوم معين لتوزيع الهدايا والأنصبة بين جميع سكان القصور السلطانية الكبير منهم والصغير والرفيع منهم والحقير. وكان الفضول يدفع ببعض اخوتي الصغار إلى الذهاب إلى ربان الاسطول للاستفسار منه عن نوع الهدايا واللعب التي جلبها معه لهم. فقد كان بين ما تحمله هذه السفن عشرون أو ثلاثون صندوقا مملوءة بلعب الاطفال كالسفن والخيول والعربات والجمال والطيور ومختلف انواع الحيوان، وكذلك الصناديق الموسيقية من مختلف الاحجام مع مختلف الآلات الموسيقية، كالقيثارات والطبول والمزامير وكذلك البنادق الخشبية والمدافع الصغيرة والسيوف المطاطية وما إلى ذلك من انواع الدمى واللعب. فاذا لم تحز هذه الهدايا اعجابنا فالويل كل الويل لذلك الربان، فلا عذر له بالتقصير وقد منح تفويضاً شاملا في أن يشتري احسن الاشياء بصرف النظر عن الثمن.

ويتم التوزيع في بيتي الموتني والساحل في آن واحد، وتستغرق العملية ثلاثة أو أربعة ايام حتى يتيسر لعشرات المئات من الناس في كل بيت استلام حصصهم.

وكان العبيد ينقلون البضاعة ويفكونها ويرتبونها حسب انواعها، ثم تتولى احدى بنات السلطان الكبيرات، بتفويض من الوالد – توزيع الحصص على اصحابها. ويؤسفني ان اقول ان عواطف الحسد والغيرة والطمع كانت تعكر صفو الافراح في هذه الايام الجميلة. وكان التوزيع يجري كما قلت على سكان القصور السلطانية مرة واحدة كل عام ويبدأ بجواري السلطان حيث يأخذن حصتهن وحصص ابنائهن الصغار ثم يأتي دور بنات السلطان فزوجات الأبناء وهكذا.

وكانت حصة المرء منا هي كفايته لعام واحد. وكانت الأقمشة الغالية توزع باللفات لكل شخص لفة كاملة. طولها حوالي ٤٠ ياردة، والشخص بعد هذا حر في ان يبادل بعض ما عنده ببعض ما عند غيره. وكانت هذه المبادلات

تستغرق اسبوعين على الاقل، فترى النساء مشغولات في حركة دائمة وعمل مستمر، ولعدم وجود طاولات لدينا فكن يجلسن على الارض ويعملن المقص في تلك الاقمشة النفيسة بعد ان يقسن القطعة منها على اجسادهن الجميلة.

واضافة إلى الهدايا والاقمشة فقد كان يوزع ايضاً المسك والعنبر وماء الورد والعطور الاوربية والزعفران (الذي تخلطه النساء بمركبات اخرى ويضعنه على شعور رؤوسهن) وكذلك الحرير بانواعه مع خيوط الفضة والذهب للتطريز والازرار المطرزة بالذهب، وبالاختصار كل ما يدخل في زينة المرأة العربية ولباسها، وإلى جانب كل هذا كان كل منا يقبض عددا من الريالات الفضية — ريالات ماريا تريزا — يختلف عددها حسب السن والمقام.

واذا صادف وجود بعض الزائرات لدينا ايام التوزيع وزعت عليهن حصة كاملة كأية واحدة منا.

وقد ساعد على تسهيل مهمة اختيار الملابس قرب بلادنا من المنطقة الاستوائية وغلبة فصل الصيف على بقية الفصول الاخرى التي لا نعرفها الا بالاسم فقط، والا لو كان علينا ان نغير لباسنا في كل فصل من الفصول الاربعة لتعذر علينا اختيار الملابس لهذه الفصول مرة واحدة كل عام.

وبالمناسبة فكل الشتاء الذي نعرفه هو اسابيع معدودة حيث يكون الجو فيها ممطرا رطبا اكثر منه باردا وتصل درجة الحرارة في مثل هذه الأيام إلى درجة ٧٣ فهرنهايت. ومع هذا فاننا في هذا الموسم نلبس الملابس المصنوعة من المخمل أو غيره من الأقمشة الثقيلة.

وتتم خياطة الملابس باليد. اذ لم تكن ماكنات الخياطة معروفة في بلادنا ايام شبابي. والمرأة في الشرق لم تخضع لجبروت سلطان الموضة، ذلك السلطان الجائر الذي تخر الاوربيات المثقفات جاثيات امام جبروت احكامه، واذا كان العامل الاساسي في لباس المرأة الشرقية مهما علت منزلتها وزاد ثراؤها هو البساطة. فالزي الذي تلبسه النساء واحد ويتكون من قميص ينحدر إلى ركبتيها وسروال عريض طويل مربوطة نهايتيه عند الكاحل وعصابة من الحرير تلف بها شعرها.

والاختلاف بين ازياء النساء هو في جودة القماش وحسن الذوق في اختيار الألوان وتناسقها . ولا تخضع القمصان والسراويل إلى شكل معين وكل ما يشترط فيه ان لا تكون القمصان طويلة فتغطي الوشي المذهب على السروال ، وان لا يغطي السروال بريق الخلخال الذهبي الثمين الذي يحيط بالساق والذي تتدلى منه اجراس ذهبية صغيرة تبعث رنات عذبة راقصة في كل خطوة تخطوها ربة الدار . وتغطي عصبة الرأس اكثر الجبهة دون ان تؤثر على الحواجب الزج او العيون النجل ويتدلى من العصبة على الظهر شريطان انيقان يصلان حتّى الأرداف حاملين في نهايتهما المطرزتين بشتّى الالوان الزاهية بعض مصوغات دقيقة من الذهب والفضة .

واذا أرادت المرأة العربية الخروج وضعت عليها « الشيلة » وهي نوع من الشال أو العباءة وهو قطعة كبيرة من الحرير الاسود والمطرزة جوانبها بخيوط الذهب أو الفضة حسب مقام صاحبتها او ذوقها ، تنسدل فوق المرأة من اعلى رأسها حتّى قدميها فتحفيها كلية ، ولكن ما من امرأة عربية مهما زاد ثراؤها تملك اكثر من شال واحد تستمر على استعماله ولا تستبدل به غيره حتّى يتمزق ويتهرىء .

وبعد فاذا انشغلت المرأة الشرقية بحديث الملابس والازياء وجدنا لها عذرا من حياتها اللاهية وثقافتها المحدودة وضيق افقها ، ولكن ما يحيرني حقاً ان وجدت منذ قدومي هذه البلاد ان النساء الاوربيات وهن على مستوى عال من الثقافة والتعليم يشغلن انفسهن إلى حد الانهماك باحاديث تافهة حول الازياء والملابس وكأنهن لا يحسن الكلام عن موضوع غيرها .

ورغم ندرة الشتاء واعتداله عندنا فنحن لم نغفل عن الاحتياط له ، فالنساء عندهن « المتزرة » وهو نوع من المعطف البسيط ينسدل من فوق الرأس حتّى القدمين ويكون مفتوحا من الوسط ، ويرتبط قسماه بدبابيس معدنية أو ذهبية . اما وسيلة التدفئة لدينا فكانت « المنقلة » وهي اناء مدور من البرنز الاصفر اللماع قطره ١٢ انج ، ويقف على ثلاث قوائم ترتفع عن سطح الارض بضع انجات ، ويوضع فيه الفحم الحجري الملتهب ويوضع في وسط الغرفة فيشيع

فيها الدفء، وفي هذا الوقت بالذات يحين حصاد الذرة فتأتي بالعرانيس نشويها على النار ونلتهمها، وهي تسليه طريفة للصغار والكبار على حد سواء . ولكن مع هذا كله فان الأبواب والشبابيك تبقى مفتوحة كقاعدة عامة .



النساء يملأن الجرار

الفصل العاشر

النزهة في المزارع

كان لأبي السلطان خمس وأربعون مزرعة موزعة في أنحاء متفرقة من جزيرة زنجبار، يعمل فيها عدد جسيم من العبيد، اذ كان عدد العاملين فيها لا يقل عن الخمسين عبدا في كل من المزارع الصغيرة ويزيد عن الخمسماية عبد في كل من المزارع الكبيرة، ويشرف على ادارة كل مزرعة رئيس عربي هو المسؤول الاول عنها ويدعى «الناقورة»[1].

وكان في اثنتين من هذه المزارع قصران مؤثثان صالحان للاقامة الطويلة، وفي سبع أو ثمان منها مجرد بيوت عادية، أما باقي المزارع فلم تكن فيها محلات للضيافة والاقامة.

ولم نكن في أيام أبي نخرج إلى هذه المزارع الا في مواسم معينة، ولفترات قصيرة فقط. فقد كانت مشاغله الكثيرة تمنعه من الخروج معنا اليها، ولم يكن يطمئن إلى خروجنا وحدنا. ولكننا لم نكن نعدم الوسيلة إلى كسب اذن الوالد بالخروج إلى احدى هذه المزارع حين كنا ننوي ذلك. فقد كنا، أو بالأحرى كانت بناته الكبريات، وكن ذوات دالة عليه وكان — كما قلت ذلك من قبل — يحبهن ويكبرهن ولا يرفض لهن طلبا، كن يتلطفن في الاستئذان منه للسماح لنا في قضاء بضعة ايام في هذه المزرعة أو تلك. وكن في النهاية يرجعن الينا بالموافقة السلطانية على الرحلة المطلوبة.

---

(١) لعل كلمة الناقورة مشتقة من كلمة الناظر العربية.

فاذا تم الاذن المطلوب وجب البدء بالاستعداد للسفره وكان ذلك يتطلب جهدا كبيراً ووقتا طويلا .

فلم تكن المزارع مهيئة لاستقبال جمعنا الحاشد واقامته فيها اياما طويلة، لذا فقد كان علينا ان ننقل إلى المزرعة جميع متطلباتنا من الطعام والشراب والفراش والآنية، ولم يكن هذا بالأمر اليسير، فقد كانت عملية النقل هذه تبدأ قبل سفرنا بأسبوع على الأقل فتستمر خلال ذلك الأسبوع كله مواكب المئات من العبيد تزحف يوميا مسافة العشرة أميال من المدينة إلى المزرعة حاملين فوق رؤوسهم الحليقة ما يراد نقله .

ورغم اضطلاع اغا الخصيان ورئيس الطباخين بتدبير امر هذه الحملة فقد كانت الفوضى أول قواعدها والتسيب أبرز مظاهرها. وكنا من كثرة ما يكسر أو ما يضيع نضطر إلى اعادة تجهيز نفس الشيء مرتين أو ثلاثا. وكان المستفيد الأول من هذه الفوضى، بل ومن الرحلة كلها هو ناظر المزرعة المقصودة الذي يضع يده على كل ما يتلف أو يتخلف من أشياء عدا عما يحصل عليه من وافر الهدايا وجزيل العطاء .

وفي ليلة السفر لم يكن ليستقر بنا مقام أو يغمض لنا جفن من شدة القلق والترقب. ولوضع اللمسات النهائية لاجراءات الاستعداد فكنا نفحص حميرنا الجميلة المخضبة ذيولها بالحناء، أو ننقل حاجاتنا إلى الزوارق ان كانت المزرعة المقصودة مما يستطاع الوصول اليها بحرا . وكان أهم ما يشغلنا في الساعات الأخيرة السابقة على السفر اعداد العدد الكافي من الفساتين والثياب فقد كانت أمثال هذه الرحلات معرضا لأزياء النساء واناقتهن وفرصة للمنافسة بينهم في هذا الشأن ولكم تأخر الركب كله بانتظار سيدة تأخر وصول فستانها التي كانت تنوي ارتداءه أو أخذه معها .

وكانت حركة الركب تتم عادة في حوالي الساعة الخامسة صباحا أي بعد صلاة الفجر مباشرة، وتمتلىء ساعة الرحيل بالحركة واللغط والهرج، فالناس بين صاعد ونازل ورائح وغاد، والأصوات ترتفع بالنداءات والاجابات . والعبيد

يتصايحون ويتشاجرون وقد ينزل بعضهم باللكمات والصفعات على البعض الآخر ، ويختلط مع هذه الأصوات كلها نهيق الحمير الذي يضيق صبرها من طول الانتظار فتذكر الجمع اللاهي عنها بوجودها واستعدادها للحركة منذ ساعات .

وتمتطي السيدات ظهور حميرهن الصغيرة الوادعة في حين يمتطي الخصيان صهوات الخيول ويوافقنا العبيد مشيا على الأقدام . ويسير الموكب داخل المدينة بكل هدوء وانتظام صفا طويلا من الحمير البيض والخيول الفارهة . فاذا اجتزنا سور المدينة انفرط عقد الموكب وودعنا وقارنا وهدوءنا وانطلقنا على سجيتنا نتراكض ونتسابق ونمرح ونعبث في اطراف الفضاء الفسيح وعبثا يحاول العبيد والخصيان جميع شتاتنا فنصل إلى هدفنا جماعات متفرقة .

وهناك يستقبلنا العبيد وعائلة الناظر ، وبعض سيدات المزارع المجاورة . أما الناظر نفسه فان التقاليد الشرقية الصارمة تمنع علينا رؤيته كما تمنع عليه وجوده حيث نكون .

ونبدأ بعد وصولنا بتناول طعام الافطار ثم ينصرف كل منا ليعمل ما يريد وكيفما يريد بكامل حريتنا لاطمئناننا التام إلى عدم وجود أي رجل غريب في المنطقة . ويسيطر على الجمع جو من الحرية والانطلاق طيلة أيام الرحلة ولا يجمع بين افراد الجمع بعد ذلك الا وجبات الطعام وأوقات الصلاة .

• • •

وتنهال علينا الدعوات من العوائل المجاورة للمزرعة كما تنهال علينا ربات تلك المزارع بالزيارات ونحن، أو بعضنا، يلبي هذه الدعوة أو تلك أو يقوم باستقبال الزائرات . ولا حاجة لوصف كميات الاكل الكبيرة فعدا عن الكميات الهائلة التي نقلها مئات العبيد لمدة اسبوع كامل فان جاراتنا سيدات المزارع المحيطة بنا يضفن إلى تلك الكميات كميات مثلها تدليلا على تقديرهن واكرامهن لنا فتتراكم المأكولات وخاصة الفواكه والخضار ويصيب العطب والفساد اكثرها .

ونقضي ليالينا بالاستمتاع بالألعاب النارية . وشكرا للصديق العزيز ليدا مدير الجمارك، فهو على كونه بانياني فهو شديد الولاء والاخلاص لاسرتنا ولا شيء

يسر عابد النجوم العجوز هذا مثل ادخال السرور على قلوبنا نحن الصغار. لذلك لم يكن ينسى أبدا تزويدنا بكميات وافرة من الألعاب النارية لنملأ بها سماء ليالينا في الأرياف.

أما الكبار منا فيقضون لياليهم بالاستماع إلى غناء بعض المغنيات العبيد أو مشاهدة رقصهن. وهن فنانات محترفات تصطحبهن معنا في أمثال هذه السفرات للترويح والترفيه.

وأمسيات الريف هذه أمسيات خيالية رائعة اذ تجد هذا العدد الكبير من النساء المدلات بجمالهن المتنافسات باناقتهن يتجمعن تحت ظلال الأشجار وتحت ضوء القمر الفضي في الليالي الاستوائية الصافية وهن يتسامرن ويتحادثن ويتضاحكن بقلوب صافية ووجوه باشة باسمة.

وكانت تنضم الينا في بعض هذه السفرات كلير وهي ابنة طبيب القنصلية الفرنسية وأخواها البالغان الخامسة عشرة والسادسة عشرة من العمر، وهم يتكلمون السواحلية بطلاقة وتغني كلير غناء جيدا. وقد اثارت كلير بيننا ضجة من الضحك والاستغراب حين خرجت علينا مرة بلباس نومها الأبيض ولم نكن قد عرفنا أو رأينا شيئاً من هذا القبيل. فالناس في الشرق ينامون بنفس اللباس الذي يلبسونه طيلة النهار.

ولم نكن نخرج إلى هذه النزهات ايام الحصاد لما في ذلك من اشغال للعبيد والعمال وعرقلة لأعمال الحصاد. وكان القرنفل ينضج مبكرا ويجب حصاده وجمعه في أقصر وقت مستطاع، وكذلك الأمر مع الرز وليس الامر كذلك مع المخضرات وجوز الهند.

واليد هي أكثر الأدوات استعمالا في الزراعة ولتشجيع الزنوج على العمل ونبذ طبيعة الكسل الموروثة فيهم فان أرباب المزارع أو رباتها كثيراً ما يشتركون مع فلاحيها في مساع جماعية لتشجيع الحصاد والاسراع به.

• • •

وقد تطول اقامتنا في الريف أو تقصر حسب مشيئة الوالد فهو الذي يقرر

يوم عودتنا . وفي هذا اليوم المعين نترك المزرعة بين الساعة السادسة والسابعة مساء بعد أن نوزع الهدايا والعطايا على جميع العاملين في المزرعة وأكثر هذه الهدايا من اختيار أبي نفسه . ثم تأتي السيدات المجاورات لوداعنا وبعد ذلك نركب مطايانا عائدين إلى المدينة فيتلقانا عدد من الجنود المسلحين بالبنادق والسيوف والرماح والخناجر، الذين أرسلهم السلطان لحماية موكبنا الساري في جنح الظلام .

ولا يبيح لنا سفرنا ترك الصلاة اذا حان موعدها، لذلك فاذا ارتفع الآذان توقف الركب في الحال وفرش كل منا حصيره في الفضاء وبدأ صلاته قبل الانطلاق ثانية في مسيرتنا إلى المدينة التي اذا ما وصلنا اليها تسللنا بخفية وهدوء إلى دورنا كأننا أشباح هائمة في مدينة من مدن الأساطير .



رجل عُماني عربي

الفصل الحادي عشر

رحلة السلطان الى عمان

كنت في حدود التاسعة من عمري حين عزم ابي السفر على عمان جريا على عادته في زيارتها مرة كل ثلاث أو أربع سنوات ليشرف بنفسه على شؤون القسم الآسيوي من سلطنته حيث كان ينوب عنه في ادارة شؤون الحكم ورئاسة العائلة في مسقط أخي ثويني .

لكن سفرة أبي هذه المرة اتسمت بالأهمية والاستعجال ذلك ان الأنباء وصلته ان الفرس قد تمادوا في تكرار الهجوم على بندر عباس، ورغم ضيق نطاق هذه الهجمات وعدم تحقيقها نجاحا يذكر، فقد قرر ابي ان يذهب ليعالج المشكلة بنفسه لان استمرار الوضع بهذا الشكل قد ينذر بتطور الامور واندلاع نار الحرب بيننا وبين الفرس في أية لحظة .

وبندر عباس اقليم فارسي صغير الا أن ابي ضمه إلى أملاكه منذ وقت طويل، ولكن الفرس دأبوا منذ انتقلت الينا تبعية هذا الاقليم على اثارة الفتن وخلق المشاكل طمعا في اضعاف قبضتنا واستعادة هذا الجزء اليهم، وهذا ما لا ألومهم فيه ابدا . ولم يكن بندر عباس بلدا غنيا وما كان يدر علينا شيئاً من المال، بل لعل ما كان يصرفه ابي عليه يفوق ما كان يحصل عليه منه، ولولا موقعه الاستراتيجي الهام وسيطرته على مدخل الخليج لما تمسك به أبي ولما كانت استعادة الفرس له بالخسارة الجسيمة التي يؤسف لها .

ولم تكن لدينا في ذلك الحين سفن بخارية بل كان كل اعتمادنا في السفر على السفن الشراعية التي تتحكم اتجاهات الريح وتقلباتها في مواعيد ابحارها، ولهذا

فلم يكن من المستغرب ابدا ان تتأخر الرحلات من يوم إلى آخر بانتظار ان تستقيم الريح في الاتجاه المطلوب .

وكان الاعداد للرحلة يستغرق ما لا يقل عن شهرين أو عشرة اسابيع، تنقضي في اعداد الزاد الكافي لاطعام حوالي الألف شخص طيلة مدة السفرة التي تستغرق بدورها شهرين تقريبا .

وكان اغلب الوقت يصرف في اعداد وتهيئة الخبز والعجائن المطلوبة لهذا العدد الغفير من الناس طيلة هذه المدة ولم يكن اللحم المجفف أو المعلب معروفا لدينا، وان وجد فان غالبية السكان تنفر من اكله لعدم اقتناعهم بطهارته شرعا . لهذا كانت السفن تملأ بالأعداد الغفيرة من الماشية الحية للذبح منها في أيام السفر، ويضاف اليها عشر بقرات حلوبات لتزويد الركب بالحليب الطازج يوميا .

أما كميات الفاكهة التي تخزن في هذه السفن فتتحدى كل تقدير أو تعداد ويكفي ان نعلم ان مزارعنا الخمس والاربعين تظل على مدى اسبوعين ترسل إلى هذه السفن انتاجها كله ليتكدس فيه دون عناية بالنظافة أو النظام، ولا عجب بعد هذا اذا ما انتشرت حالات الديزانتري بين الركاب في أمثال هذه السفرات.

• • •

وكانت السفرة مباحة لابناء السلطان جميعا بعد استئذان ابيهم طبعا، لكن بسبب اتعاب السفر ومشاق الرحلة فان بنات السلطان وسراريه معفيات أصلا من السفر الا ثلاث أو أربع من كبريات بناته واثنتين من سراريه يختارهن السلطان بنفسه لمرافقته في السفرة .

والواقع ان اكثرنا — نحن اناث القصر — لم نكن نرغب في السفر إلى عمان لان نساءها اعتدن ان ينظرن إلى الزنجباريات بغرور المتعالي الذي ينظر إلى من هو أدنى منه مرتبة أو أقل مقاما، وكان هذا الغرور يتملك اخوتي واخواتي هناك، بل وينطبق هذا الحال أيضاً على نساء اسرتنا في زنجبار المولودات أصلا في عمان فهن ينظرن الينا نحن قريباتهن الزنجباريات نظرة استخفاف واحتقار لاننا ولدنا

ونشأنا بين الزنوج فهن يعتبرننا زنجيات واكبر دليل لهن على انحطاطنا اننا نتكلم لغة هؤلاء الزنوج وربما ايضا لغات اخرى غير اللغة العربية .

وكما قلت من قبل، فان الغالبية من اقاربنا في عمان تشكو العوز والحاجة لذلك فان زيارة السلطان لهم تعني وصول الهدايا والعطايا واستعداد السلطان لهذا يقتضي زيادة متاعه وحوائجه . كما ان امثال هذه الرحلات تتيح لنا استئناف مراسلاتنا القليلة المتقطعة مع اقاربنا في عمان .

لكن جهل الكثيرات منا للكتابة يقف عقبة كأداء في هذا المجال . والاسلوب المتبع في هذه الاحوال ان تملي السيدة رسالتها على شخص ما ليكتبها لها، وحين تصل الرسالة إلى المرسلة اليها فعليها ان تستعين بشخص آخر ليقرأها عليها .

ولهذا فقد اشتد زحام النساء على اخوتي وعبيدنا الذين يحسنون الكتابة يطلبن اليهم ان يكتبوا لهن رسائلهن، فاذا رفض احدهم ذلك فليس على صاحبه الحاجة الا ان تستعين بشخص آخر من خارج البيت ليكتب لها رسالتها، وهناك طبقة من الكتاب الممتهنين الذين يتخذون اماكنهم في السوق ممن يقومون بهذه الخدمات ولكن لان سيداتنا لا يستطعن ان يذهبن بانفسهن إلى السوق لمواجهة شخص غريب، فليس امام الواحدة منهن الا أن تكلف بهذه المهمة احد خدمها الأذكياء الموثوقين بهم .

وعلى هذا فان السيدة تكلف احد خدمها بهذه المهمة فتطلب اليه ان يذهب إلى فلان الفلاني ويستكتبه رسالة تهنئة بأسمها إلى صديقتها أو قريبتها فلانة في مسقط، وان يدفع له الاجر الذي يطلبه لقاء خدمته هذه . ويذهب الخادم وينقل تفاصيل الطلب إلى حضرة الكاتب النحرير الذي يستمهله ساعات لشحذ القريحة واعمال الفكر .

ولان الطلب على كاتبنا شديد والزبائن كثيرون، ولانه ليس من الالمعية والذكاء بحيث يتجنب الخطأ، لذلك فلا يستبعد منه الخلط الكبير في مضامين الرسائل وفي عناوينها . ولكن الخدم عادة لا يفطنون إلى هذا الخلط وانما يسرعون بتسليم الرسالة إلى سيداتهم، في حين ان السيدة افطن من أن تبعث بالرسالة قبل

ان تتأكد من مضمونها . لهذا فهي تذهب إلى احد اخوتها أو أقاربها ليقرأ لها الرسالة وتتأكد منها . وللقارىء أن يتصور دهشتها وذهولها وخيبة املها فقد ارادتها تهنئة إلى صديقتها بزواج ابنتها، لكن الخادم عاد بها رسالة تعزية معنونة إلى رجل لا تعرفه . وهكذا فان الرسالة الواحدة تطوف على عدد من الناس لكتابتها وقراءتها قبل ان تكتسب صيغتها النهائية .

• • •

وأخيرا حان موعد الرحيل فخصصت السفينة فكتوريا لأبي وافراد عائلته، اما بقية الحاشية والامتعة والزاد والاغنام فقد توزعوا بين ثلاث أو أربع سفن . وكان عدد المسافرين كثيراً بالنسبة إلى عدد السفن، لكن الشرقي لا يحتاج إلى كبير مكان في سفره فهو لا يحتاج إلى مقصورة وسرير بل يفرش حصيره وينام في أي مكان يتيسر على ظهر السفينة .

وقد أبحرت السفينة الأولى عند الفجر تحمل الخدم والعبيد ثم تبعتها أول الصباح سفينة النساء وأبحرت سفينة السلطان وابنائه وحاشيته عند الظهر، [1] واذكر ان اخوي ماجد وخالد ومعهم بعض الاخوة الصغار كانوا في الميناء يؤدون للوالد تحية الوداع وقد ظلوا معه في سفينته حتى حان وقت اقلاعها فنزلوا منها وبعد ذلك اطلقت مدفعيتها احدى وعشرين طلقة تحية للسلطان .

• • •

وقد ترك السلطان بغيابه عنا فراغا موحشا احس به كل فرد من أفراد اسرتنا الكبيرة، فقد فقدت الاسرة حيويتها الفعالة وبهجتها المشرقة وران على البيت – بغياب سيده، ورغم المئات من سكانه – جو كثيب من السكون والجمود، وشعور مبهم بالوحدة والضياع . وقد اناب السلطان عنه في حكم الجزيرة أخي خالدا، وقد دأب خالد على الترداد على بيتنا بين يوم وآخر يتفقد احوالنا ويلبي حاجاتنا، كما دأب على زيارة بيت الموتني مرتين في الاسبوع ليتفقد سكانه ويحيي سيدته

(١) غادر السيد سعيد ميناء زنجبار يوم ١٨ نيسان ١٨٥٤ .

الكبيرة عزة بنت سيف ويسألها الرأي والمشورة، وكان خالد حاكما صارما وقاسيا وكنا نطيعه ونجله ولكنه لم يحظ بحبنا وودادنا وكان لنا من الأسباب ما يبرر ذلك.

فمن ذلك مثلا، ان شب في احد الأيام في بيت الساحل حريق كبير، ومع انه اخمد بسرعة كبيرة الا أن اندلاع النار في بيتنا فجأة اثار الذعر بيننا فهرولنا نحو أبواب القصر للخروج منه بغية النجاة من النار، لكننا وجدنا الأبواب مغلقة وقد وقف خلفها الحرس المدججون بالسلاح وقد أمرهم خالد بمنع خروج السيدات إلى الشارع لانه لم يرد لنا أن نتعرض لأنظار المارة في وضح النهار.

وفي يوم آخر اقدم على طرد أحد أقاربنا البعيدين — وكان سيد قومه ومن أصحاب الجاه والسطوة — من الجامع ومنعه من أداء الصلاة لمجرد ان هذا القريب سبق له وتجرأ على خطبة احدى أخوات خالد، وقد امتنع الرجل بعد هذا الحادث من حضور مجلس خالد ومن أداء الصلاة في الجامع ولكن القدر يشاء أن يموت خالد ومن بعده السلطان وان يتزوج هذا القريب واحدة من اخواتي غير الذي خطبها أول مرة.

وقد عين السلطان قبل رحيله اختي خولة كبيرة للأمينات — ان صح هذا التعبير — وجعلها مسؤولة عن بيتي الساحل والموتني ومن فيهما من النساء، وقد اثار تعيين هذه النجمة الساطعة في سماء عائلتنا الكثير من الامتعاض والحسد والغيرة في قلوب بعض نسائنا برغم انها لم تكسب من هذا التعيين شيئا غير المشقة والأذى ونقمة الناس. ورغم ما تمتاز به خولة من رقة الطبع وطيبة القلب وسماحة الخلق فانها لم تستطع ارضاء الجميع واطفاء جذوة الغيرة في قلوبهم، فرضى الناس غاية لن تدرك، وخاصة وان البعض منهن كن يرهقنها بالمستحيل من الطلبات، وهن مدركات حق الادراك انها بشر مثلهم لها طاقات محدودة وان صلاحياتها في العمل محدودة ايضاً، ولكنها الرغبة في التشفي والايذاء والتعجيز واظهارها بمظهر المقصرة في واجبها. وكل ذنب خولة عندهن انها الابنة المفضلة للسلطان، وما كان هذا من صنع يديها ولا كان خطيئة لتحاسب عليها، وبعد فانها دون ريب ولا جدال أحسن من في الأسرة استحقاقا لهذا التفضيل والاختيار وقد أحسن السلطان اذ خصها بهذا التمييز والاختيار. ولكنه الحسد يعمي البصائر والأبصار.

• • •

وكان مركبنا « الثلاث نجمات » دائم الغدو والرواح بين مسقط وزنجبار، لذلك فلم تنقطع أخبار السلطان وهداياه الثمينة. وكان وصول السفينة يعني لنا بهجة ومسرة لا توصفان وكانت مظاهر الاستقبال وجلبته من المظاهر التي ينفرد بها الجنوب ولا يمكن للفكر الاوربي المتميز بنضوب العاطفة ان يتصوره.

لكن افراحنا لم تطرد باستمرار، فقد قبض الله اليه أخي خالدا ورحل عنا إلى الأبد مأسوفا عليه[1]. وانتقلت وصاية الحكم إلى أخي ماجد – أكبر الأبناء بعد خالد – وقد استطاع بخلقه الطيب وطبعه الحبيب أن يكسب اليه كل القلوب [2]

وأخيراً جاءنا البشير من عمان بأسعد الأنباء والبشائر وهي قرب عودة السلطان إلى مسقط. فانتشرت البشرى السعيدة في انحاء البلاد وعم الفرح والابتهاج جميع السكان، فقد طالت غيبة السلطان عنا وعن رعيته اكثر من سنتين، وما من امرىء الا ويشعر بتعاظم الفراغ لغيبته وينتظر عودته بفارغ الصبر ان لم يكن عن حب واخلاص له فانتظاراً لما سيناله من هدايا السلطان وعطاياه التي يعرف الجميع انه يخص بها كل فرد من أبناء الجزيرة صغارا وكبارا.

ولكن الأسابيع تتالت بعضها وراء البعض الآخر ومر من الوقت ما يكفي لقطع

---

(١) ولد خالد عام ١٨١٩ وتوفي بعد مرض عضال في نوفمبر ١٨٥٤ عن خمس وثلاثين عاما ولم يخلف سوى بنتين. وكان بخيلا لئيما منصرفا للتجارة مكروها من السكان الذين كانوا يلقبونه « البانيان».

(٢) ولد ماجد في حوالي عام ١٨٣٣ وتولى الملك عام ١٨٥٦ وهو في الثانية والعشرين من عمره. وكان ابيض اللون طويل القامة مليح الشكل، ولم يكن يعني بتعدد الزوجات والسراري كمثل ابيه واخيه السيد برغش، ولم يترك الا ابنة واحدة سماها خنفورة تزوجت ابن عمها السيد حمود بن محمد بن السيد سعيد الذي اعتلى عرش السلطنة (١٨٩٦ – ١٩٠٢) وانجبت منه السيد علي بن حمود الذي تولى عرش السلطنة (١٩٠٢ – ١٩١١) والسيدة معتوقة بنت حمود التي تزوجها السيد خليفة بن حارب بن ثويني الذي تولى عرش السلطنة ١٩١١ – ١٩٦١ وانجب منها عبد الله بن خليفة والد السيد جمشيد آخر السلاطين الزنجباريين.

وكان السيد ماجد مصابا بالصرع وقد اشتد به المرض في اخريات عمره ولم ينفعه استشفاؤه بالهند، حتى بدأ يفقد الوعي مدة طويلة قبل وفاته. وزاد الطين بله انه اصيب في اخريات ايامه بالجدري فشوه وجهه تشويها كبيراً جعله ينزوي في بيته ويخجل من الظهور امام اقرب المقربين اليه. وقد توفي عام ١٨٧٠ عن عمر يقدر بـ ٣٧ عاما.

المسافة بين مسقط وزنجبار ومع هذا فلم تظهر في عرض البحر علامة ما تنبىء بقرب وصول السفن . فبدأ القلق ينتاب الناس والشك يتسرب إلى قلوبهم وبدأت الاشاعات تنتشر في البلد عن أسباب التأخير ، وهنا لجأ العرب كعادتهم دوما إلى العرافات يسألونهن استطلاع الغيب عن أسباب تأخر السلطان ووقت معاده . ومع الأسف فان جزيرتنا وما يقابلها من الساحل الأفريقي يعج بالمئات من الغجريات اللاتي يتعاطين مهنة الخداع هذه ، فهن يدعين قراءة الغيب ومعرفة المستقبل في حين ان الحقيقة انهن يتسقطن اخبار الناس من اهليهم وذوي قرابتهم ثم يمارسن أنواع الخداع والتمويه في اخراج مسرحية المعرفة اخراجا متقنا يسلب لب الناس فيتقبلونها باذعان وتصديق غريبين . وقد استبد القلق والهلع على مصير السلطان والتلهف على معرفة اخباره واسرار تأخره بأفراد اسرتنا فأخذنا نسعى وراء كل خبر ونستمع إلى كل ما يقال ونستبيح اللجوء إلى كل وسيلة تكشف لنا السر وتبدد عنا الشكوك ولذلك انهالت علينا افواج الغجريات المتحذلقات بقراءة الغيب ، اتين الينا من كل حدب وصوب في السفن والزوارق وسعيا على الأقدام وعلى ظهور الحمير .

وكانت أبرز هاته المتنبئات تلك التي سمعنا انها هي . أو بالأحرى جنينها ، يستطيع أن يستطلع الغيب ويكشف لنا عن السر ، وسرعان ما أرسلنا نستدعيها إلى بيتنا . وما أزال أذكر بوضوح تام يوم وصولها الينا . وكانت امرأة على درجة خارقة من البدانة وكانت تدعي ان طفلها الذي تحمله في بطنها منذ سنين وسنين هو معجزة الخالق الكبير . يرى ويتكلم وهو في الرحم جنين . وما من سارحة أو بارحة على ظهر الأرض أو في أعالي الجبال وما من سانحة أو سابحة في الجو أو في أعماق البحار الا ويعلم علمها . وما من شيء في الحاضر أو المستقبل الا وأحاط به علما فانهالت عليها أسئلتنا . أين سفن السلطان ؟ وماذا يعمل الآن ؟ ولماذا تأخر بالمعاد ؟ . وكانت أجوبتها تأتينا طنينا خافتا متقطعا ولكنها صحيحة واقعية . « قولوا ان شاء الله » . هذا هو الأسطول في عرض البحر يتجه إلى زنجبار . أربعة سفن كبار محملة بالرجال . قولوا ان شاء الله . وهذا هو مركب السلطان في وسطها . اسمحوا لي لحظات أركز على هذا المركب لأرى ما يفعل السلطان الآن ؟ . وبعد لحظات عاد طنينها الخافت يسرد علينا بالتفصيل أسماء من برفقة

السلطان من رجال نعرفهم حق العرفان وما يقوم به كل منهم آنئذ من أعمال. ثم طلبت الينا ان ننحر الذبائح ونوزع النذور قربانا لملكة الجان في البحر التي تحمي المسافرين في البحر وتدفع عنهم الضرر والأذى.

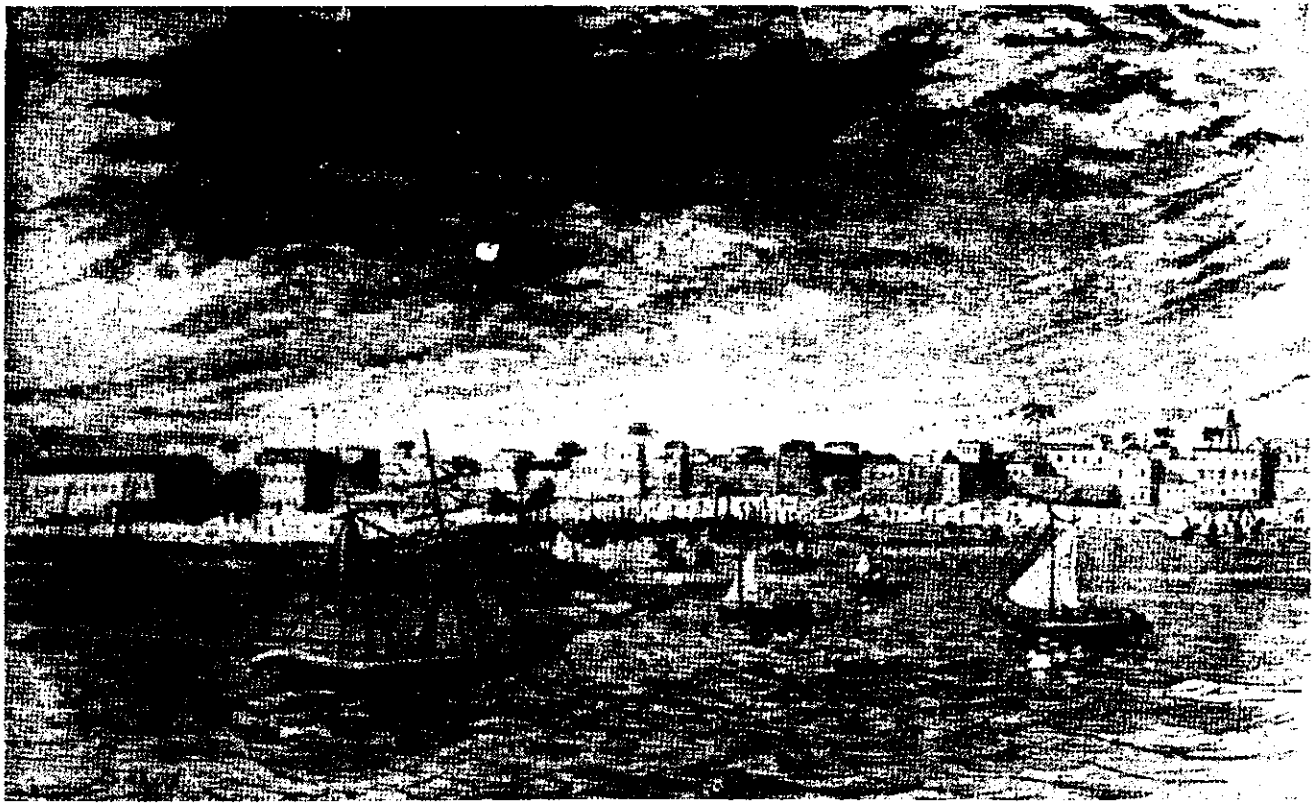
ومن البديهي أن اوامر هذه المشعوذة قد نفذت بالحرف الواحد فنحرت الذبائح ومدت موائد الطعام وظلت سيول الشحاذين. وتحوى جزيرتنا الجميلة أفواجا عدة منهم. تنصب على بيتنا أسبوعا كاملا لتطعم من أنواع اللحوم والدجاج والأسماك والرز الذي كان يقدم لهم بسخاء ووفرة. هذا عدا عن النقود والملابس. وظل الأمر على هذا الحال حتى اكتشفنا حقيقتها وحقيقة اننا كنا فريسة سهلة لدجالة افاكة. تستطيع أن تتكلم من باطنها فتدعي ان المتكلم طفل لها تحمله في بطنها، ولاننا لم نكن نعرف هذا الامر من قبل فقد اعتقدنا جميعنا بهذا الطفل المعجزة الذي تكشف له سر الغيب فيرى فيه ويسمع عنه مالا عين رأت ولا أذن سمعت.

ومع الأسف فان للسحر والخرافات سوقا رائجة في زنجبار، وهما قرينا الجهل ونتاجه فحيثما يعجز الانسان عن فهم مسببات الأشياء ونتائجها وحيثما يشعر بالضعف امام ظواهر الطبيعة وتفسيرها وبالخوف من أحداث الحياة ومصائرها ويلجأ إلى تصديق التفسيرات الغامضة وإلى التشبث بالأساطير الواهية وكلما ازداد التفسير ابهاما والكلام جمجمة وغموضا زاد تصديق السامع له. والعرافات استاذات هذا الميدان لهن القول الفصل في أمور المرض والزواج والولادة وما اشبه من أمور الحياة والمستقبل. فهن يسألن عن نوع المرض وهل يحتمل شفاؤه وكم يطول أمده. وعن الزواج وهل يبتسم الحظ للعروسة فتسعد بالزواج من خطيبها. والحامل هل تلد ولد أم بنتا؟ وهكذا فاذا حققت الصدف نبوءة البصارة ارتفع مقامها وذاع صيتها. وان كذبت الأحداث نبوءتها – وهو ما يحدث غالبا – فهي لن تعدم الاعذار الملفقة كأن تدعي بأن اليوم أو الساعة لم تكن مناسبة لها وانها ستعود إلى تجربة علمها في مرات قادمة ان شاء الله.

واذا ما خيم الجهل في بلاد انتشرت فيها الخرافات وسادت، فكل انسان في زنجبار يعتقد بوجود أرواح غير مرئية تحيط بالانسان فمنها الصالح الذي يريد به

خيرا ومنها الطالح الذي يتربص به شرا، ولان الأخيرة اكثر خبثاً واشد خطراً واعظم ضررا فعلى الانسان ان يداريها ويدفع شرها عنه بالقرابين والنذور وان يتوسل إلى ارضائها باهل العلم والمعرفة من الغجر الدجالين رجالا ونساء، وقد بلغ من اعتقاد الناس بالأرواح انه اذا مات لاحدهم ميت قام اهله بوضع البخور في غرفته التي مات فيها طردا للأرواح الشريرة، ولان الاعتقاد ان روح الميت تبقى تحن إلى مكانه القديم وانها قد تعود في أي حين إلى المكان الذي خرجت لذلك يهجر اهل البيت تلك الغرفة خوفا وفرقا من روح الميت ولا يدخل اليها احد منهم مهما كان الثمن .

ولا عجب بعد هذا ان يكون السحر والشعوذة تجارة رابحة، تعود على محترفيها أو بالأحرى محترفاتها فهن الكثرة الغالبة بالمال الكثير والرزق الوفير .



جانب من مياه عاصمة ماجد

الفصل الثاني عشر

وفاة السلطان

مرت الأيام وتبعتها الاسابيع ولم يظهر لاسطول السلطان أثر ولم يرد الينا عنه خبر ، ولم يكن لدينا ما نداري به القلق المتعاظم والاضطراب المتفاقم غير الاستماع إلى أقوال العرافات والتشبث بتصديق اخبارهن الموضوعة .

وفي ظهيرة يوم ما، وحين كان الناس يؤدون صلاة الظهر سرت الأنباء بأن أحد صيادي السمك لمح في عرض البحر أسطولا من السفن يرفع فوق صواريه علم أبي، ولكن الصياد، لاشتداد الريح وهياج البحر، لم يتمكن من الاقتراب من الأسطول .

اذن هذا هو السلطان والوالد والحبيب عائد الينا ! !

فاخفقي يا قلوب واطربي يا نفوس وانطلقي يا أفراح .

وحين كنا نستعيد الصياد قصته مرات ومرات وهو يعيدها ويقسم لنا بأغلظ الايمان على صحتها سرت البشائر بالأنباء إلى أنحاء البلاد وأرسلنا عبدا من أسرع عدائينا إلى رابتنا السيدة عزة في بيت الموتني نزف اليها البشرى السارة . وعمت الفرحة سكان بيت الساحل بعد وجوم، ودبت فيهم الحياة بعد ركود فأسرعت النساء إلى أحسن لباسهن وأحلى زينتهن وأجمل عطورهن يتبرجن بها بعد أن هجرنها نيفا وسنتين . وعادة النساء عندنا ان يلبس أحسن ما عندهن تحية منهن للقادمين الأعزاء، ويعربن عن حزنهن لفراق الأعزاء بلبس أبسط الثياب وأخشنها. وانطلق الطهاة يذبحون ويعجنون ويطبخون ويخبزون، وانطلق الخدم يعطرون الغرف بالبخور وبالعطور الأوربية الفاخرة، وأتخذ كل من في القصر أقصى

ما يستطيع ليظهر فرحته باستقبال العائد العظيم، القائد والوالد والزعيم، والحبيب إلى كل فرد وقلب.

وقد قرر أخي ماجد أن يخرج إلى عرض البحر ليستقبل سلطانه وأباه ويعود معه على ظهر سفينته، واذ لم يتبق على موعد وصول السلطان حسب رواية الصياد وتقديره الا ساعتان أو ثلاث فقد أسرع ماجد واستقل هو وحرسه مركبين صغيرين لم يتيسر لهم غيرهما في غمرة العجلة وساروا بهما يشقان عباب الماء في وجه عاصفة عاتية هوجاء كانت تهدد مركبيهما بالتدمير التام، على أمل أن يلحقوا بسفن السلطان ويعودوا معه قبل حلول الظلام في الساعة السابعة.

ولكن الشمس غابت وحل الظلام ومضى هزيع من المساء ولم تظهر السفن للعيان.

وبدأت الوساوس والشكوك تملأ القلوب والألباب وما لبث أن صار الشك قلقا استبد بأبناء المدينة عامة وأفراد اسرتنا خاصة، ثم صار القلق جزعا وذعرا يرتسم في النفوس الواجمة والوجوه الشاحبة والعيون الذابلة، وذهبت بنا الظنون والهواجس كل مذهب فمن قائل ان العاصفة قضت على ماجد ورفاقه فابتلعتهم الأمواج ومن قائل بل انها أودت بأسطول السلطان كله إلى قاع المحيط. وظللنا على هذه الحال حتى تقدم بنا الليل ولم يفكر بطبيعة الحال أحد منا، حتى الأطفال بالنوم ما لم نعرف مصير السفن ومن عليها.

وفجأة انطلقت في البيت اشاعة لم نصدقها أول الأمر، وهي ان الجنود المسلحين قد حاصروا القصر وسدوا منافذه ومداخله. وأسرعت النساء إلى الشبابيك تستطلع جلية الأمر، ومع ان الليل كان حالك الظلام فقد استطعنا أن نتبين أفواه البنادق تلمع في حلك الظلام وأشباح الجنود تحيط بالبيت، ولم يكن هذا الاكتشاف بالأمر السار طبعاً للنسوة الهلعات والأطفال المذعورين، ولكن المهم الآن ان نعرف ماذا جرى من أحداث استوجبت هذا الحصار المحكم حول البيت ومنع الخروج أو الدخول منه واليه، والأهم من هذا ان نعرف مصدر هذه الاجراءات والآمر بها. فماجد وهو نائب السلطان لم يعد من عرض

البحر فمن غيره أصدر هذه الأوامر . وفي وسط هذه التساؤلات تسربت الينا الأنباء ان حصارا مماثلا قد ضرب حول بيت ماجد فزادنا هذا الخبر حيرة وجزعا.

ولم يكن في البيت أحد غير النساء، فالعادة أن ينسحب الخصيان والعبيد عند المساء ليلتحقوا بعائلاتهم خارج القصر. لهذا فقد استبدت بنا الحيرة والذعر والفوضى ومضت كل جماعة تتصرف بما يوحي اليها الموقف ومتانة أعصابها، فقد نزلت بعض النسوة الجريئات إلى الطابق الأرضي وأخذن يكلمن الجنود من نوافذ القصر يسألنهم بعض المعلومات عما يجري خارج القصر، ولكن الجنود كانوا غلاظ القلوب فلم يكتفوا بتجاهل الأسئلة الموجهة اليهم وانما هددوا النساء باطلاق النار عليهن ان لم يضعن حدا لفضولهن وضوضائهن . وانصرفت نسوة آخريات إلى النحيب وهن يلعنّ الشيطان الرجيم على سوء فعلته هذه، وارتفع صراخ الأطفال وبكاهم ولم يكن إلى اسكاتهم من سبيل، ومضت فئة من النساء إلى الصلاة وطلب الرحمة والعون من الله تعالى . وامتزجت مشاعر الخوف على مصيرنا بمشاعر القلق على مصير السلطان وماجد وأخذ منا الاضطراب كل مأخذ فكان منظرنا منظرا لا يوصف اختلطت فيه المشاعر وضاعت المقاييس ولو هبط علينا أحد من خارج القصر ورأى وضعنا المزري وفوضانا المفزعة في تلك الليلة المرعبة لظن انه في مستشفى المجانين وليس في حريم السلطان.

وبعد طول عناء وألم ممض بدأت دياجير الدجى تنزاح عن ليلة الفزع هذه وأنوار الفجر تنتشر وتنبثق عن نهار لم يستطع ضياؤه ان يزحزح ما كنا فيه من ظلام الجهل عما يجري في البلد من أحداث . وعن أسباب هذا الحصار المفروض علينا، كما ولم يسمعنا النهار شيئاً عن أخبار السلطان أو ماجد . ولكننا في طريقنا إلى أداء الصلاة لمحت أحدانا الأسطول راسيا في الميناء، وقد افرحنا هذا الخبر وأفرغ من روعنا، ولكن سرعان ما عاودنا الذعر والروع حين شاهدنا صواري الاسطول ترفع اعلام الحداد . ثم وصل الينا اخوتنا ولكن السلطان لم يصل ... وعند هذا فهمنا ما تعنيه أعلام الحداد فوق سفن الأسطول ووا اسفاه ...

اذن فقد رحل عن هذه الدنيا الأب الحبيب والسلطان العزيز ورب البيت

وسيد الحمى، ولبى العبد المؤمن سعيد بن سلطان نداء ربه تعالى ورجعت نفسه المؤمنة إلى جنات ربها راضية مطمئنة فقد توفي السلطان اثناء عودته من عمان إلى زنجبار، اذ هاجت عليه عقابيل جرح خلفته شظية مدفع استقرت في فخذه في احدى حروبه وظل حياته يعاني منها الالم حتى قضت عليه (١) .

أي خسارة جسيمة لا تعوض قد منينا بها ومني بها شعبنا فلم يكن السيد سعيد الأب العطوف لأهله وشعبه فحسب بل كان خير الحكام وأعدلهم وانقاهم ضميرا وأقربهم إلى قلوب رعيته الذين رفعوا الأعلام السود على كل بيت من بيوت زنجبار تعبيراً عن حب الشعب لحاكمه وحزنه على وفاته .

• • •

وقد ادلى لنا بتفاصيل الوفاة أخي برغش الذي كان برفقة أبي في رحلته الأخيرة . ونحن ندين بالشكر إلى برغش أن استطاع أن يحتفظ بالجثمان العزيز بدلا من القائه في البحر كما تقضي بذلك تعاليم الاسلام وان يصر على نقله إلى زنجبار ليدفن فيها وقد أمر بصنع تابوت لحفظ الجثمان فيه، وكان برغش مدفوعا بعمله هذا بحبه لوالده والرغبة في اكرامه وان خالف في الواقع بعمله هذا تعاليم الدين وتقاليدنا . فنحن لا نعترف باستعمال التوابيت بل نعتقد ان المرء ــ اميرا كان أم فقيرا ــ يجب أن يعود بكل بساطة إلى التراب الذي خلق منه (٢) .

ثم بدأت أسرار الأحداث الغامضة والحصار المحكم تنكشف لنا بالتدريج مع طلوع النهار . فقد سبق أن قلنا ان أخي ماجد قد أسرع لملاقاة أبيه السلطان في في عرض البحر وانه لعجلته وضيق الوقت لم يجد الا مركبين صغيرين استقلهما

---

(١) كانت وفاته في ١٩ اكتوبر ١٨٥٦ وقد اصيب في ١٨ سبتمبر ١٨٥٦ بورم والتهاب في ساقه من أثر الجرح القديم في فخذه وفي ١٣ اكتوبر اصيب بالديزانتريا الحادة .

(٢) من غرائب الصدف انه قبل مبارحته مسقط زار والدته لتوديعها وكان يظن ان هذا هو الوداع الأخير لانها كانت متقدمة في السن ولم يخطر بباله انها سترثه .

ومن غرائب الصدف كذلك ان اشترى الواحا من الخشب وطلب ان تحمل على سفينته وان يعمل منها توابيت لكل من يموت في البحر ويحفظ فيها حتى وصوله زنجبار ولا يجوز رميه في البحر كما تقضي بذلك العادات الجارية .

وحاشيته ومخروا بهما عباب الماء، ولكن الريح كانت قوية والبحر هائجاً فظلوا يصارعون الرياح والأمواج حتى اطبق عليهم الظلام فضلوا سبيلهم في البحر الهائج الحالك ولم يستطيعوا ملاقاة السلطان.

ولهذا استمر برغش قائداً عاما للأسطول بعد وفاة السلطان بأعتباره أكبر ابنائه الموجودين على ظهر الأسطول آنئذ ولما هدأت العاصفة ولاحت الأرض لبرغش أدخل الأسطول إلى الميناء خلسة وأنزل منه الجثمان سراً وأمر بدفنه في مقبرة العائلة في زنجبار.

وكانت نفس برغش قد سولت له أن ينتهز الفرصة المواتية ويغتصب العرش ويستولي على مقاليد الحكم في البلاد. وكانت التقاليد المرعية تقضي عند حصول خلاف على وراثة الحكم أن يفصل بالأمر أمام أكابر العائلة ورجالات البلد قبل أن يواري جثمان الحاكم المتوفى بالتراب. ولكن برغش يعرف جيدا انه خاسر قضيته واطماعه اذا ما تعرض إلى هذا الامتحان. فأخوه الأكبر ماجد أحق منه بخلافة ابيه وليس هناك ما يدعو إلى تفضيل برغش عليه. لذلك عمد إلى استعمال القوة لتحقيق خطته فعمد إلى فرض الحصار على بيتنا وبيت ماجد وأسرع بدفن جثمان السلطان سرا. ولكن خططه باءت بالفشل والخسران لأن ماجدا لم يكن في بيته فلم يتيسر له بالتالي القاء القبض عليه. فلم يجد ما يبرر به تصرفاته هذه الا خشيته من نشوب ثورة في البلاد. وهو أمر لم يكن يخطر على بال.

وكان ماجد قد اضطلع بمهام الحكم في زنجبار نائبا للسلطان منذ وفاة أخينا خالد، واكتسب خلال هذه المدة وقبلها أيضاً مودة الناس ومحبتهم، فلهذا نودي به سلطانا على البلاد خلفا لوالده السيد سعيد في نفس ذلك اليوم.

ولكن العارفين ببواطن الامور لم يكونوا مطمئنين تماما إلى شرعية هذا الاجراء، فأخونا الأكبر ثويني ينوب عن ابيه السلطان منذ سنوات وسنوات في مسقط عاصمة عمان وهي الوطن الأم وليس ما يمنع من أن يطالب يوما بحقه الشرعي

في حكم زنجبار ، لذلك ظلت النفوس قلقة تترقب ما يحمله المستقبل من أحداث ولم يطل بها الترقب والانتظار ولكن العاصفة لم تهب علينا من مسقط بل هبت من زنجبار نفسها[1] ! !

(١) أوجزنا حكاية هذه الاحوال في مقدمة الكتاب .

الفصل الثالث عشر

شعائر الحداد

للحداد شعائر وتقاليد واجبة الاتباع في بلادنا وأول هذه الشعائر توجب على كل فرد في العائلة صغيراً كان أم كبيراً ان يطرح ملابسه الثمينة الزاهية الناعمة ويضع بدلها ملابس صوفية سوداء خشنة الملمس بخسة الثمن. ومن الشعائر ايضاً الامتناع عن التزين او التعطر منعا باتا، فاذا جرأت امرأة ما على ان ترش على جسمها قطرات من ماء الورد لتذهب بها عن ملابسها رائحة صبغة النيل عدت تلك المرأة عديمة الوفاء او لعوبا.

وفي خلال الاسبوع الاول من ايام الحداد يهجر الجميع أفرشتهم الغالية الوثيرة ويفترشون الارض احتراما واسوة برب البيت الذي افترش التراب.

وقد ظل بيتنا مدة اسبوعين كالخان أو الفندق مفتوحا على مصراعيه يدخله كل انسان من كلا الجنسين لا فرق بين رفيع أو وضيع ويتناول كل ما يشتهي من أطايب الطعام الذي كان يقدم بكميات مذهلة تتحدى الوصف ويجب ان يكون على رأس قائمة الطعام الطبق المفضل للمتوفي الراحل يطبخ ويقدم للفقراء بمقادير كبيرة وفقاً لتقليد قديم في البلاد.

ومن اهم شعائر الحداد التي تحتمها احكام الدين وجوب خضوع نساء السلطان الراحل زوجات وحظيات إلى فترة حداد اجبارية امدها اربعة شهور وعلى هاته البائسات ان يقضين هذه المدة في غرف مظلمة وان يمتنعن عن رؤية النور بل وضياء الشمس، فاذا اضطرت المرأة إلى الخروج من وكرها المظلم وضعت على وجهها قماشا سميكا يمنعها من رؤية النور ويسمح لها بالكاد ان

تزحف إلى هدفها . وطبيعي ان تتأثر العينان بهذا الظلام الدامس المستمر لذلك لا بد من عناية خاصة بالعينين عند انتهاء مدة الانزواء، ليعتادا على النور من جديد . ويعلن القاضي بدء فترة العزلة ببيان يتلوه على الارملة يذكر لها فيه ما يجب عليها الامتناع عن عمله ويعود نفس هذا القاضي بعد اربعة اشهر ليتلو بيانا آخر يعلن فيه انتهاء مدة العزلة .

وخروج المرأة من العزلة يقتضي مراسم خاصة مبنية على الخرافات والاساطير فمن ذلك مثلا ان على ارامل المتوفى يوم انتهاء مدة العزلة ان يغتسلن جميعهن مرة واحدة من اعلى الرأس إلى أخمص القدمين على ان تقف الخادمات خلف سيداتهن تحمل كل منهن بيدها سيفين تسن نصليهما فوق رأس السيدة (وبالنسبة للفقيرات يستعاض عن السيوف بالمسامير او بأية اداة مصنوعة من حديد) . ونظرا للعدد الكبير من الارامل الذي خلفه ابي فلم يكن بالامكان اتمام هذه العملية لجميع نسائه مرة واحدة في حمامات القصر على كثرتها ، لذا فقد تمت العملية على شاطىء البحر ، وكان يوما مشهودا ومنظرا لا ينسى ، وبعد الاغتسال يباح للمرأة ان تغير ملابسها وان تستعيد حريتها وتصبح اهلا للزواج من جديد .

والقاعدة الجارية في بيوت السلطان ان تظهر نساؤه امام اقاربه وامام الرجال من الخدم، ولكنهن في هذه الفترة يمنعن من رؤية الرجال الا اخوتهم وابناؤهم[١].

وخلال السنة الاولى من الحداد اعتاد بعضنا على زيارة قبر ابي في ليلة الجمعة من كل أسبوع . وكان ضريحه عبارة عن بناء مربع تقوم فوقه قبة كبيرة[٢] ،

---

(١) من الواضح ان المقصود بهذا الكلام هو فترة العدة التي فرضها الدين الاسلامي على المرأة المطلقة أو المتوفي عنها زوجها . واحكام العده في الشريعة بسيطة سليمة روعي فيها مصلحة الزوجة والأولاد ومصلحة الجماعة وهي براء مما علق بها من خرافات لا يقرها الشرع الكريم .

(٢) رأى السيد ماجد ان يشيد ضريحاً على قبر ابيه فارسل إلى الهند يطلب المهندسين والبنائين وبذل في ذلك مالا كثيرا، وشرع في بناء ذلك المقام الضخم ولما بلغ إلى مستوى رفع القبة اعترض عليه المطاوعة – رجال الدين – واضطروه إلى اهمال البناء . ومن يتفرج عليه اليوم يرى ذلك النحت البديع في أعمدته وتلك النقوش الفنية البارعة في بنيانه .

وكنا نبدأ بقراءة سورة الفاتحة من القرآن الكريم ثم نتلو بعض الصلوات والادعية طالبين من الله الرحمة والغفران للراحل، ثم نسكب على المكان العطر وماء الورد والمسك والعنبر وفي اثناء ذلك نعبر عن عواطف الحزن والاسي بالنحيب والعويل.

والمسلمون يعتقدون بخلود الانسان وبعثه كما يعتقدون بان روح الميت تعود لزيارة بيت الميت والاماكن الحبيبة إلى نفسه لذلك فانهم بزيارتهم المستمرة للقبور يردون هذه الزيارات ويحيون هذه الصلات. وعلى العموم فان للميت عند المسلمين احتراما كبيراً فاذا اقسم لك مسلم برأس أو روح احد امواته فان إزهاق روحه اسهل عليه من نكث قسمه.

وبعد الوفاة حملت احدى سفننا وفدا إلى عمان لينقل إلى أهلنا هناك خبر المصاب الفادح الذي نزل بنا، وكنا في مجالسنا الخاصة نبحث دوما امر العلاقة المقبلة بين ثويني وماجد، فهل سيقبل ثويني، وهو الابن الاكبر والوارث الشرعي لابيه – بحكومة اخيه ماجد، وهل يمكن الوصول إلى اتفاق بين الاخوين ام ان الامر سيجرنا إلى حرب عائلية.

ولما عاد الوفد الينا بعد اشهر كان معه اخي محمد، ممثلا لجميع اخوتنا واخواتنا في عمان، للاشراف على توزيع تركة ابي، ولم يدم مكوثه معنا طويلا فما ان انجز مهمته حتى بادر بالعودة إلى مسقط مسرعا، فقد كان محمد يعتبر اكثر افراد عائلتنا تدينا وزهدا وورعا ونشأ وظل زاهدا في الدنيا صدوفا عن لذاتها كارها للمال والثراء عازفا حتى عن لقب الامارة. ولذلك فقد صدمته حياة البذخ والترف في قصورنا والتي لا تعرفها بيوت عمان وضايقته مظاهر الفخامة والتعظيم التي احيط بها ولم يستطع احتمال هدا النمط من العيش الباذخ فسرعان ما تركنا مفضلا العودة إلى حياة البساطة والزهد في عمان.

ولم يفصل بصورة واضحة في وراثة الحكم، فقد تولى ماجد امور الحكم في جزيرتنا في حين تربع اخي ثويني في مكان ابينا في مسقط. ولم يدر في خلد ماجد ابدا الطموح إلى عرش عمان ولكن لم يكن مما يرضى ثويني انسلاخ زنجبار عنه ووقوعها تحت حكم اخيه ماجد. واخيرا تم الاتفاق بواسطة الانكليز على

حل وسط تعهد بموجبه ماجد ان يدفع إلى أخيه الاكبر مبلغا من المال كل عام. الا أن ماجد لم يستمر في الدفع طويلا فقد رأى في ذلك نوعا من الاتاوة التي يدفعها التابع إلى سيده. وكان ثويني عديم الحيلة تجاه هذا القرار فقد كانت لديه في عمان من المشاكل العويصة ما يلهيه عن خلق مشاكل جديدة له في زنجبار وكان بموارد بلده النزرة افقر من ان يدعم حقه بحملة عسكرية ضد سيد زنجبار الواسع الثراء.

وهكذا دون معاهدة ودون اتفاق تكرس انفصال زنجبار عن عمان واصبحت كل منهما دولة مستقلة.

ومن ناحية أخرى فقد سعى اخي محمد جهده للوصول إلى تسوية ودية لتقسيم ثروة أبي الخاصة، ويجدر بي أن اذكر هنا ان فكرة «الدولة» أو الخزانة العامة كما يعرفها الاوربيون هنا لا تعني شيئاً في زنجبار. فالتفرقة بين الايراد العام والايراد الخاص لا وجود لها هناك فكل ما يجني من رسوم يعود ملكا خاصاً لابي، ومن هذه الرسوم ومن ريع مزارعه الخمس والاربعين التي يملكها في زنجبار – وكان هو المالك الوحيد لجميع المزارع فيها – تتكون ايرادات ابي ومنها ينفق على شؤون دولته وعائلته، وفي ايامي – على الاقل – لم تكن في زنجبار ضرائب على الدخل أو على الارض أو على الصناعة أو أية ضريبة اخرى مما هي معروفة هنا.

وقد قسمت اخيرا ثروة ابي الخاصة كلها حتى السفن التجارية والحربية تقاسمها ماجد وثويني. والشريعة الاسلامية تفضل الاولاد على البنات في الميراث فتعطي للذكر مثل حظ الانثيين بسبب ان الولد يضطر إلى انشاء عائلة جديدة في حين أن البنت غير مسؤولة عن ذلك. بل انها على الغالب ستتزوج وتدخل عصمة رجل آخر يتكفل بها. ولذلك فقد اخذنا نحن البنات نصف ما اخذه اخوتنا الذكور [1] ومع اني واخي رالوب، رفيق لعبي في بيت الموتني كنا في حوالي

---

(١) كانت حصة كل ولد من تركة ابيه ستين الف ريال وحصة البنت ثلاثين الف. ويقال ان ثروة السيد سعيد الكبرى كانت مدفونة تحت الأرض لا يعلم أحد مكانها. لذلك كل أيام احتضاره في البحر ينادي دوما ... هارتون... هارتون... وهو صديقه والقنصل البريطاني العام. ويقال انه كان يريد ان يدله على مكان الثروة. وحين تولى السيد برغش السلطنة حفر في أسس قصر الموتني في التفتيش على الثروة الا أنه لم يجد منها شيئاً ويذهب الظن إلى أن «ماجد» وجدها وأخذها.

الثانية عشرة من عمرنا، فقد اعتبرنا بالغين لسن الرشد، وهذا خلافا للعادة الجارية ولكن ظروف الحال تقتضي التغيير وهكذا تسلمنا حصتنا الوفيرة من الميراث وصرنا مواطنين احرار في هذا السن الصغير اما اخوتي واخواتي الذين لم يبلغوا الثانية عشرة من عمرهم فقد ظلت حصتهم في وصاية ماجد.

وكانت وصية ابي تقضي بان يستمر الصرف على من لا ولد لها من ارامله طيلة حياتهن، اما الامهات منهم فقد اوصى لهم بمبلغ قليل نسبياً من المال ولا بد انه خمن باننا سنتولى رعاية امهاتنا طالما كانت حصتنا من الارث تفوق حصصهن كثيرا. ولم يخطىء ابي في تقديره ابدا فقد كنا، جميع ابنائه وبناته وكان عددنا عند وفاته ستا وثلاثين — عند حسن ظنه وثقته فينا. وما اعرف احدا من اخوتي او اخواتي قد قصر في حق امه اقل تقصير فالام أم، سواء كانت اميرة ام جارية مشتراة، ولها على بنيها واجب الرعاية والاحترام بصرف النظر عن المال والمقام.

وحالما انتهى تقسيم الميراث بيننا، اقفر ذلك البيت المزدحم من سكانه وغدا فارغا موحشا، وعلى الاقل بالنسبة لما كان يزخر به من حركة وازدحام. فقد ترك الكثير من الاخوة والاخوات بيت الساحل مع خدمهم وامهاتهم وانتقلوا إلى بيوت مستقلة لهم. وظلت خولة وعائشة وشيوان في بيت الساحل وظللنا نحن في مكاننا في بيت الثاني. وتغيرت الاحوال في بيت الموتني على نفس الغرار. والحق انه كان من الواجب علينا نحن الذين ورثنا مالا كافيا ان ننتقل إلى بيوت خاصة بنا ونترك هذه البيوت إلى اخوتنا الصغار وامهاتهم وخدمهم الذين ظل ماجد يتكفلهم ويصرف عليهم من حصصهم التي تحت قيمومته، وهذا ما كان فعلا.

الفصل الرابع عشر

من أخبار الأخوة والأخوات

تطرقت في سياق الحديث في الفصول السابقة إلى ذكر بعض اخواني واخواتي، وكنا – ابناء السلطان – جمعا كبيرا لا استطيع تحديد عدده بالضبط ولكني اقدره بحوالي المابة من الاناث والذكور وقد مات اكثرهم قبل وفاة والدي، وكان منهم عند وفاته ستا وثلاثين فقط نصفهم من الذكور ونصفهم الآخر من الاناث.

وليس من همي ان أسرد في هذا الكتاب أخبار كل هذا الجمع الغفير من الاخوة فليس في ذلك كبير نفع لاحد وهو على كل حال ليس مما يهم جمهرة القراء كثيرا، ولكني لا استطيع ان امتنع عن ذكر بعض اللمحات الخاطفة والنماذج المختلفة عن حياة البعض منهم ومنهن، لما تضفيه هذه الخطوط من العمق والوضوح على صورة الحياة في بيتنا .

«١»

شريفة

لم تترك شؤون الدولة التي كان يشرف أبي شخصيا على تدويرها، المجال له للالتفات الكثير إلى اطفاله ولكنه كان كثير الحرص على تقريب البالغين ومن ابنائه وبناته واكبارهم واكرامهم مما كان يغيظنا نحن الصغار الذين نظل في مجلسه واقفين كالأصنام في حين يرتاح اخوتنا واخواتنا الكبار إلى جنب أبيهم على الفرش والأرائك .

وكانت شريفة من اكثر المقربات إلى ابي والمفضلات لديه . وكانت شركسية الأم وعلى جانب كبير من الوسامة والملاحة واعتدال القد وحسن التكوين وكانت بيضاء البشرة شقراء الشعر وكأنها احدى الاوروبيات الجميلات. وكانت إلى جانب ذلك ذكية القلب كثيرة النشاط حصيفة الرأي، وكان السلطان يستشيرها في كثير من أموره الهامة فكانت له نعم المستشارة ونعم الناصحة ولم يروى عنه انه ندم يوما ما على الأخذ بنصيحتها .

وقد تعرضت علاقتها المتينة مع ابيها لبعض الفتور ولفترة قصيرة من الزمن حين أصرت شريفة على رأيها بالزواج من ابن عم لها لم يره السلطان كفءً لأعز بناته على قلبه . فابتعدت في دار الزوجية عن دار ابيها ولكنها ما لبثت الا قليلا حتى عادت اليها بعد أن ثبت للسلطان صواب رأيها وتأكد له حسن اختيارها فزال غضبه عنها واعادها إلى سابق منزلتها من قلبه .

وقد سعدت شريفة بزواجها وظلت وحيدة زوجها لم يشرك معها زوجة أو جارية ورزقت منه بولد جميل اسمه شوان وقد انشأته امه نشأة صارمة رغم شديد تعلقها به .

وكان شوان رفيق لعبي وكان يأتي إلى زيارتنا كل يوم جمعة حاملا الي الكثير من الهدايا التي تنقلها اليهم السفن القادمة من مسقط في ايام الرياح الموسمية . وكان لشريفة وزوجها اقارب كثيرون في مسقط وكانت هي شديدة الاعجاب بمسقط كثيرة التعلق بها ومن غرائب الصدف ان تكون وفاتها – رحمها الله – في مسقط اذ ذهبت اليها برفقة والدي في رحلته الأخيرة اليها .

« ٢ »

خولة

كانت خولة مثل شريفة، احب بنات ابي اليه واقربهن إلى قلبه واكثرهن لديه حظوة ومكانة ، وكانتا أيضا – والحق يقال – اجمل بناته قاطبة بل وأجمل من حوته البيوت السلطانية من الآناث .

ولم تحتل خولة مركزها عند ابيها بجمالها الفتان وحسنها الآسر فحسب، بل ولخلقها الرفيع وأدبها الجم وذكائها الوقاد. ولم أر في حياتي شخصا اكتملت صفاته واجتمع فيه جمال الخلق والخلق مثل خولة.

وكانت بالاضافة إلى كل هذا ذات ذوق مرهف وكانت كلمتها في أزياء النساء هي القول الفصل كما كانت كلمة الامبراطورة اوجيني في زمانها. وكان مما يزيد جمالها ظهورا وحسنها بروزا جمال ذوقها في حسن اختيارها لثيابها وقدرتها على تنسيق الألوان بينها حتى لتكسف وهي في أبسط الثياب وأرخصها الاخريات الرافلات بأغلى الحلي والحلل.

وكانت امها من بلاد الرافدين وكانت ذكية ماهرة فعينها أبي ناظرة أو مسؤولة ادارية على بيت الساحل كله وهي مهمة عسيرة لا تنهض به الا ذوات العزم والهمة. وقد كانت خولة تساعد امها في ادارة البيت ومسؤولياته ثم تولت هي نفسها هذه الوظيفة. وكان من المستحيل عليها ان تدرك رضى كل فرد من افراد بيتنا المكتظ بعشرات المئات من السكان، ولكنها كانت تحاول ذلك من صميم قلبها ولكن سعيها كان يقابل ويا للأسف بالجحود والاساءة والنكران.

فقد أعمت الغيرة بصائر القوم وأكل الحسد قلوبهن فقد نفسن على خولة امتيازها عنهن بالحسن والملاحة ثم نفسن عليها محبة الوالد وايثاره لها من دونهن، لذلك كانت محل التشهير والانتقاد من اخواتها ونساء ابيها في كل مناسبة وبدون وجه حق، فاذا قل مقدار السمك في الطعام هذا اليوم وزادت اللحوم فالملوم هو خولة، واذا حدث العكس في اليوم التالي فالتقصير من خولة، واذا انتهى موسم الفاكهة فالذنب ذنب خولة. بل انها الملومة لو قل انتاج الورد في بساتين الأناضول وشحت كميات دهن الورد المستورد إلى زنجبار.

ولكن اذا ارادت احدى هاته النسوة طلباً من السلطان فهي تعلم علم اليقين ان لا وسيط لها ولا شفيع الاخولة، واذ ذاك تنهال عليها بكلمات التملق والاغراء والحب والوداد والتي تدوم حتى ينقضي الامر فتعود الامور سيرتها الأولى.

ولعل من غرائب الطباع ان تكون اشد النساء غيرة من خولة وحقدا عليها

اختها الشقيقة عائشة . فقد لقيت خولة منها الامرين ولكنها ظلت تداريها بالحلم والصبر وتسد اذنيها عن قالة السوء تأتيها من اختها وتمنع رفيقاتها ان يذكرنها بالسوء .

ولكن خولة كانت تتألم من سيرة اختها كل الألم، وكنت – على صغر سني – الوحيدة التي تستودعني اسرارها فكانت تبوح الي بألمها هذا بالكلام فتقول :
– ترى ما السبيل إلى ارضاء عائشة، لقد عملت معها كل ما استطيع واقتسمت معها كل ما كان يهبني ابي من هدايا ... ولكن لا ترضى... ما ذنبي اذا كان أبي يحبني اكثر منكن ويخصني بوده وثقته .

وكانت اكبر الغصص لدى هاته النسوة حين يصطحب ابي معه خولة إلى غرفة الكنوز أو يرسلها اليها وحدها حيث الثروات الطائلة التي تتقطع نفوسنا حسرات لمجرد مشاهدتها . وكانت ترتسم على وجوههن في هذه المناسبات أبشع صور الحقد والمرارة وكأنهن يحاولن افتراسها، وكذلك كان امرهن يوم اهداها أبي تاجا ذهبيا مرصعا باللؤلؤ والماس اشتراه لها خصيصا من ايران وكلفه مبالغ طائلة وكانت هذه الهدية ثروة كبيرة ونفيسة وبرهانا جديدا – حيث لا حاجة للبرهان – على الايثار والمحبة فلا عجب ان تغلي في صدورهن مراجل الحسد والحقد والكراهية .

وكلما اشتدت مرارة الحسد والعداء ضد خولة ازدادت هي طيبة قلب وحلاوة خلق، فلا تقابل الاساءة الا بالاحسان ولا الغضب الا باللطف ولم تكن تعرف للانتقام سبيلا، وكانت تردد دوما قولها :

عفا الله عنهم ... انني يكفيني رضى أبي عني...

• • •

وقد اعتنت بي خولة ايام طفولتي الأولى ومنذ انتقالنا من بيت الموتني ، وشغفت بها حبا واعجابا، وأصبحنا فيما بعد أعز صديقتين وازدادت صداقتنا وثوقا حين انتقلت خولة بعد وفاة ابي من بيت الساحل وسكنت معنا في بيت الثاني . وهناك

شاطرتها العيش لا نفترق ابدا ليل نهار، بل نعمل ونأكل وننام سوية. وكان لها تأثير كبير على حياتي سأشرحه فيما بعد.

وقد تعكر صفو ودنا بعض الشيء بسبب مصالحتي مع أخي ماجد اثر فشل مؤامرتنا عليه، مما سأحكي قصته في غير هذا المكان من هذا الكتاب، ثم عادت مودتنا إلى سابق عهدها وظلت تكاتبني (ولم تكن تعرف الكتابة) بعد خروجي من زنجبار، وقد اقترحت علي بعد وفاة زوجي عام ١٨٧١ أن أرسل اليها أحد أطفالي لتتبناه ولكن لم يهن علي فراق احد منهم.

وكانت مضرب المثل في الحلم وسعة الصدر وحب الخير، وكانت تعامل عبيدها في منتهى اللطف والرقة، فتصفح عن اهمالهم وتغفر لهم اخطاءهم، بل وتتدخل لتمنع الأذى عن خدم الغير ايضا. وقد اكتشفت مرة عدم امانة طباختي النوبية «زعفران» فحاولت مرارا ردعها عن اتيان هذه السرقات الطفيفة فلم ترعوي مما حملني على أن أقرر بيعها والتخلص منها. فما ان وصل علم ذلك إلى زعفران حتى انسلت في جنح الظلام إلى مزرعة خولة — وكنا آنذاك نسكن في المزارع — واستطاعت بلباقة لسانها وقوة عرضها ان تكسب خولة إلى جانبها وتثير عطفها وشفقتها فطلبت مني ابقاءها وكان لها ذلك طبعا.

ولم تزيد حصة خولة في ميراث أبينا عن حصة أية من بناته الاخريات، ولكنها ضحت بالكثير من اجل شراء مزرعة من اجمل مزارع أبي واكثرها اناقة واحسنها موقعا، ولهذه الأسباب فقد كانت غالية الثمن جدا وان لم تكن كثيرة الغلة.

وكانت هذه المزرعة هي المكان المفضل لأبي يذهب اليها للراحة أو الاستجمام مع ضيوفه أو أهله بعيدا عن مشاكل الحكم والسياسة.

ورغم قلة عائدات هذه المزرعة فقد دفعت فيها خولة ثمنا غاليا، وكانت مستعدة لأية تضحية في سبيل امتلاك هذه المزرعة اكراما منها لذكرى والدي الذي حباها بالحب والحنان واثرها على جميع بناته والذي كانت هذه المزرعة مكانه المفضل.

وكان في المزرعة قصر جميل هو عبارة عن بناء صخري متين تظلله الأشجار

الشاهقة، وتحوي هذه البناية صالونا كبيرا، فرشت ارضه بالرخام وغطيت جدرانه بالمرايا وتدلت من سقفه الثريات اللماعة وانتشرت في جوانبه كراسي الخيزران. وكان من عادة ابي ان يستقبل ضيوفه في هذا البهو حين يكون في سيبه.

وقد احتفظت خولة بكل آثار ابي في هذه المزرعة واغلقت غرفته الوثيرة الاثاث فلا تفتحها الا للضيوف الكبار.

وكانت خولة مضيافة كريمة للكثيرين الذين يستهويهم اسم سيبة وشهرتها، وكان من أسباب شهرتها أيضا حدائقها الغناء والحافلة بغرائب النبات والازهار.

وقد كنت أذهب مع خولة كل عام إلى هذه المزرعة أيام جي القرنفل، واني لاذكر الآن تلك الأيام ونحن نمشي بمنتهى الود والسرور بين الحدائق العطرة والاشجار الظليلة نلهو ونمرح ونراقب العمل ثم نزور اثاث الوالد العظيم نسترجع خاشعات ذكراه العطرة.

لكن الحبيبة والاخت الحنون خولة، والتي كانت تشع الحسن والحب والحنان. لم تعد في هذه الدنيا. فقد رحلت عنا عام ١٨٧٥ في حادث تسمم قيل انه كان متعمدا، وانا لا استبعد ذلك. ومهما حدث... فان خولة لم تمت بل ستبقى حية في قلبي وخاطري حتى نلتقي.

«٣»

عائشة

من النادر ان تختلف اختان شقيقتان اختلاف عائشة وخولة. فقد كانت عائشة قصيرة القامة سمراء اللون وخولة شقراء فارعة القوام، وكانت عائشة مجدورة الوجه غير جميلة المنظر في حين كان ماء الحسن والشباب يترقرق في بشرة خولة الصقيلة الصافية، وكانت عائشة متحفظة خجولا في سلوكها وعلى العكس من ذلك كانت خولة جريئة صريحة، وقد كانت هذه الفروق من الكثرة والتباين بحيث كان يصعب على اقاربنا في عمان ان يصدقوا ان هاتين الفتاتين اختان شقيقتان حقا

وكانت المسكينة عائشة مدركة جدا لوجهها المشوه وجمالها المعدوم فكانت لا تظهر – لأقرب اقربائها – الا محجبة، ولهذا السبب نفسه لم تكن تهتم بمظهرها الخارجي ولباسها، فكانت ترتدي ابسط الثياب وأرخصها ولم يكن لها الا عبده حبشية واحدة تقوم لها بكل وظائف « الوصيفات » وعاملات التجميل.

ولكنها امتازت وشاعت شهرتها بيننا على انها استاذة كبيرة في فنون الطهي وذواقة عظيمة في اختيار انواع الطعام وأصنافه. ولجودة طبخها ونفاسته فقد كانت تجهز اخانا ماجد بطعامه فترسل اليه يوميا من قصرها خمسة او ستة اطباق شهية مختلفة وكان ماجد يدفع لاخته ثمنها في كل شهر.

واشتهرت عائشة بالذكاء والفطنة وحسن التدبير وصواب التقدير فكان يرجع اليها لفض الخلافات بين افراد العائلة، وكانت ايضاً ربة بيت ماهرة ومدبرة اعمال ناجحة ولهذا كانت مواردها المالية في وضع مثالي دائما وكان رصيدها لا يعرف الجزر والهبوط حتى في اخريات المواسم الزراعية حيث تهبط ارصدتنا كل الهبوط حتى يأتيها المد والمدد بحصاد القرنفل.

• • •

وكان هلال أخاها المفضل، وكانت شديدة الحب له لذلك فقد آلمتها كثيراً نهايته المحزنة فانصبت عواطفها على ابنه سعود حيث ظلت تحيطه بالعطف والحنان بعد موت ابيه.

« ٤ »

خديجة

تعرف القراء في الفصول السابقة على الشيء الكثير من أخبار خديجة، شقيقة ماجد، ورغم جفوتها فقد كانت محبوبة. وقد انقطعت خديجة عن زيارتنا وركزت كل حياتها حول أخيها ماجد والعناية به وكانت تحبه أصدق الحب وأعمقه.

وفي اخريات ايامها تولت العناية بأخينا الصغير ناصر ولكنها ملت الحياة

في الدنيا بعد وفاة شقيقها ماجد، فاصطحبت ناصرا إلى مكة المكرمة حيث قررت العيش هناك، وهو آخر ملاذ يركن اليه المسلم الزاهد في الحياة. ولم تطل بهما الاقامة هناك طويلا بل توفيا بعد حين قصير من وصولهما إلى هناك.

«٥»

شيوان

رغم ان شيوان تكبرني سنا فقد كانت رفيقة لعبي أول انتقالنا إلى بيت الساحل. وكانت عصبية المزاج مشحونة بالعاطفة والانفعال شديدة الحساسية وكانت قوة شخصيتها تتركز في عينيها الواسعتين المعبرتين والتي تستطيع بها ان تصرع أسدا.

وقد جعلت لها صفاتها هذه دورا بارزا ومهما في حياتنا البيتية.

وقد سيطرت عليّ منذ أول تعارفنا واستخدمتني وصيفة لها تدفع بي إلى هنا وهناك لأقضي حوائجها وألبي لها طلباتها الجامحة، وكان مبررها الوحيد لاضطهادي وتعذيبي هو انني من نسل «القرود البيض» ذلك انها ورثت سواد البشرة من أمها الحبشية، والأحباش قوم مشهورون عندنا بالخشونة والعنف وبالخبث والدهاء أيضا. ولذلك فهي تبغض كل من يتمتع ببياض البشرة، وما دمت قد ورثت من أمي الشركسية بياض لونها فقد حقت عليّ حملات اقاربي من ذوي الجلود السود، وكان أخي جمشيد أسوأ مني حظاً اذ انه لم يرث بشرة امه البيضاء فحسب بل وورث عنها عيونها الزرق أيضا.

وقد فقدت شيوان في صباها شقيقها الاوحد علي [1] الذي كان أرق منها طبعاً وأسلس خلقاً وبالتالي اكثر منها تمتعا بالمحبة والاحترام. وقد مات ابواها في وقت متقارب ولهذا وجدت نفسها وهي لما تزل شابة يافعة، وحيدة في عالم قاس يختلف كلية عما كانت تتصوره أو تتمناه. فانعكس هذا شراسة طبع ونفرة من

(١) ان لم تكن المؤلفة مخطئة في الاسم فان هناك ابناً آخر للسيد سعيد اسمه علي. تولى سلطنة زنجبار عام ١٨٩٠ – ١٨٩٣ وتوفي عن ست وثلاثين عاماً اي انه من مواليد عام ١٨٥٥.

الاخوة والاخوات ولم يحظ بودها الا اخونا ماجد وذلك بسبب صداقته الحميمة لشقيقها الفقيد علي .

وقد جعل منها جسمها الضخم وجمالها التقليدي شخصية آمرة، وعلمتها تجارب الحياة الاعتماد على النفس وعدم استشارة الغير وكذلك عدم الاستماع إلى نصائحهم . وهذا الانفراد بالرأي أوقعها في قبضة زنجي مكار من عبيدها استغل جهلها بالكتابة فسلبها اكثر مالها .

ورغم خشونة مسلكها فقد كانت خيرة كريمة كما كانت عادلة منصفة مع خدمها وعبيدها رغم قسوتها عليهم في بعض الأحيان .

وكانت تجتهد دائما لامتلاك احسن العبيد واجملهم وتغدق عليهم الأموال والسلاح والمجوهرات وكانت تحيط نفسها بكل مظاهر الفخامة والثراء .

ورغم ما لقيته منها في الصغر من سوء المعاملة فقد كنت الوحيدة من اخواتها التي تستطيع ان تناقشها في أمورها . وقد اغتنمت يوما ما صفاء طبعها وهدوء بالها فأشرت إلى ما ينتقده الناس من كثرة بذخها واسرافها واحتفاظها بهذه الحاشية الكبيرة من العبيد والخدم . فكان جوابها مؤلماً ومثيرا للشفقة فقد صارحتني انها تشعر بدنو اجلها لذلك فهي تريد أن تتنعم في الأيام القليلة الباقية من حياتها وان تنفق كل ما لديها من مال على نفسها وعلى الفقراء المحتاجين .

وكانت في الواقع من اكثرنا ثراء اذ ورثت اخاها عليا إضافة إلى حصتها في ميراث أبينا السلطان . ولكنها مع هذا ظلت تسكن بيت الساحل رغم الشعور العام بالعداء نحوها من الجميع .

ولكنها لم تكن تهتم بأراء الناس، ومع انها تسكن في بيت واحد مع بضعة مئات من الأهل والأقارب فانها لم تهتم بأحد منهم أو تكلف نفسها ارضاءه وظلت تعيش لنفسها وبين عبيدها فقط مستقلة عن الجميع . ولذلك لم نقم بزيارتها في مرضها العضال الذي اودى بها لاننا لم نسمع به الا مؤخراً جدا . وحين أردنا زيارتها حال سماعنا الخبر امتنعت باصرار وعناد عن مقابلتنا سخطا منها علينا لاعتقادها ــ خطأ طبعاً ــ بجحودنا وعدم وفائنا لها .

ومع حزننا الشديد وأسفنا البالغ لقرارها هذا فلم نكن نملك الخروج على ارادتها الصارمة ومنعها البات .

ولما استشرى داء التدرن في جسمها واحست باقتراب الموت أوصت بألا يراها احد بعد موتها الا المرأة التي تقوم بالغسل والكفن . وقد طبقت وصيتها بالحرف الواحد فلم يسمح لنا بدخول غرفتها الا بعد أن لفت بكفنها ولم يعد يظهر منها شيء .

وفي غمرة الحزن والذهول رميت بنفسي على جثمانها المسجى واحتضنتها غير عابئة بتحذيري من عدوى المرض .

وعلى الرغم من اختلاف طباعنا، فأنا أحب شوانة وكنت التزم جانبها دائما في أي جدال وهي في نظري تستحق الحب والود من كل من يستطيع ان يتغاضى عن سلوكها الخشن وعاداتها الغريبة . وكان الطموح والتعالي وربما الغرور من أبرز طباعها فلا عجب ان تثير حسد الاخريات وعداءهن .

وكانت وصيتها الأخيرة نموذجا آخر من نماذج طبعها الغريب فلم تكتف بعتق جميع عبيدها في المدينة والمزارع بل ووهبتهم ايضا كل ما في حوزتهم من حلي وسلاح وخصصت احد مزارعها للصرف منها عليهم لانها لم ترد للذين خدموها ان يضطرهم العوز إلى الخدمة من جديد عند الآخرين .

«٦»

ملتة

كانت ملتة مثل شوانة حبشية الأم ولكنها لبياض بشرتها ورقة تكوينها أبعد ما تكون عن سمات قوم امها وملامحهم . وكانت امها مشلولة لا تستطيع الحركة وبالتالي لا تستطيع العناية بأطفالها ومع هذا نشأت ملتة وأخوها الشقيق رولاب احسن نشأة وأقومها فاكتسبا بخلقهما الرضي وسلوكها الطيب ود الجميع واحترامهم .

وكانا يحبان امهما حبا جما ويسهران على راحتها ولا يفكران الا في ارضائها .

وقد كانت ملته واخوها رفيقي لعبي في بيت الموتني وظلا صديقين عزيزين عليّ وكانت ملته رفيقة غير انانية وقد تجاورنا فترة من الزمان بمزارعنا فكنا نلتقي يوميا في جو من الاخوة الحقة والبهجة الصادقة وكان مما يسر رالوب أن يدخل علينا بأصدقائه على حين فجأة مسببا لنا الذعر لاننا لم نعتد على روية الرجال الغرباء عنا .

ولكني يجب أن اعترف هنا ان ذعرنا لم يكن يمنعنا من مشاركته السرور بهذا العمل ... وان لم نعترف له بذلك .

وقد تزوجت ملته بعد وفاه امها احد ابناء عمومتنا، وذهبت للسكن معه في دار الزوجية وقد أسعدها الله بزواجها ورزقها بولدين جميلين كانا موضع فخرها واعتزازها .

وكانت ملتة على العكس من شيوانه، اكثر افراد عائلتنا قناعة وزهدا في المظاهر، ولكن قومنا الذين كانوا ينتقدون شيوانه لبذخها واصرافها، ينتقدون ملتة لقناعتها واقتصادها وبساطة ذوقها ورخص ملابسها . ولكنها لم تكن تهتم بهذه الانتقادات « فانا » كما كانت تقول « سأظل ابنة ابي سواء لبست الحرير والديباج أو القطن والصوف . ولبسي هذا القماش أو ذاك لن يجعلني أقل أو أحسن من بقية اخوتي واخواني . »

ويجب ان اعترف مع الخجل الكبير انني لم استطع فهم هذه الفلسفة الحكيمة الا بعد وقت طويل وتجارب مرة .

« ٧ »

زجان

زجان وزمزم شقيقتان من ام حبشية وقد سبق ان ذكرت خبر الصداقة القوية التي كانت تربط بين زجان وامي اثناء اقامتنا في بيت الموتني . وكانت زجان تحبني حبا كبيراً وتدللني اكثر مما تسمح به أمي، وكان جناحها يقع بعيدا

عن جناح سكنانا وكنت اذا ذهبت اليها امكث عندها طيلة الوقت غير عابئة بالرسل المتابعة التي ترسلهم في أثرى أمي، حتى تضطر آخر الأمر ان تأتي الي هي بنفسها ونكون النتيجة انها تمكث معنا طيلة المساء.

وكانت زجان أول من علمتني التطريز بالخيوط الذهبية، ومهارتها في هذا الفن لا تبارى فهي تبتكر النماذج وتطرزها.

وكانت آية في طيبة القلب والحنان لا تتعب ابدا من معونة المحتاج ومواساة المريض. وكان يحق لنساء القصر ان يخرجن منه اذا لم يكن ابي موجودا فيه، لذلك كانت زجان تخرج من بيت الموتني في مثل هذه الأيام مع جملة من خدمها وعبيدها محملين بأنواع الهدايا لتوزعها على المحتاجين والفقراء الساكنين قرب القصر.

وحين آن موعد رحيلنا من بيت الموتني كان وداع امي وزجان وداعا مؤثرا ما زلت احس بحرارته ولوعته، فقد كانتا تعلمان ان لقاءهما بعد ذلك الفراق سيكون قليلا لان زجان تكره الذهاب إلى المدينة. وقد اهدتني زجان بعض الهدايا قبل السفر وأوصتني ان ابقى مطيعة لأمي.

ومع الأسف الشديد فقد فقدنا زجان في وقت مبكر.

‹٨›

زمزم

كانت زمزم اجمل كثيرا من شقيقتها زجان وكان عندها فوق ذلك كل الصفات الطيبة التي عند اختها. ولم اعرف زمزم جيداً وعن كثب الا في تاريخ متأخر حين سكنا بعد وفاة ابي مزرعتين متجاورتين، وحينئذ اكتشفت انها امرأة عملية مدبرة، بل هي ربة بيت وربة اعمال من الطراز الأول، عطوفة كريمة ولكنها لا تميل إلى البذخ وهي انيقة ولكنها تحب البساطة والنظام. وهي بتدبيرها ونظامها اقرب ما تكون إلى ربة البيت الاوروبية.

وكانت كثيرة الوفاء لذكرى اختها زجان، فاكراما لذكرى تلك الأخت التي كانت تحبني وترعاني فقد ظلت زمزم بدورها تنظر الي بعين الاخت والأم معا، وتشتد في نقدي وحسابي، وتشجب أعمالي وقراراتي كأي أم صارمة مع بنتها. ولكنها تعود فتسترضيني وتطلب الي ألا أغضب من شدتها تجاهي لانها انما تفعل ذلك كما كانت تقول «حبا بزجان التي كانت تعتبرك بنتا عزيزة لها». والا فان الاخريات يرتكبن اخطاء كبيرة ولكن دون أن اكلف نفسي مشقة الكلام معهن عنها.

وكانت كثيرة العون لي في اموري الزراعية فكنا نركب حميرنا أو نسير على أقدامنا الساعات الطوال في المزرعة وهي تصدر التعليمات والاوامر إلى ناظر مزرعتي أو تراقب تنفيذ ما سبق ان اصدرته من تعليمات. وكانت كثيرا ما ترسل ناظر مزرعتها وبعض عمالها للعمل في تنظيم مزرعتي.

وقد تزوجت زمزم في سن متأخرة من ابن عم لنا اسمه حمود (وكان العرف يقتصر زواجنا على ابناء الاعمام ما امكن). وحمود هذا هو نفسه الذي خطب من خالد مرة احدى اخواته فلم يكتف خالد بالرفض القاطع وانما شفع ذلك بالاهانة القاسية وصب جام غضبه على هذا الرجل.

وقد أعاد حمود الكرة مع نفس الاخت بعد وفاة خالد فلم ترضى به فمال إلى اختنا زمزم التي قبلته زوجا، وتزوجا في الحال بهدوء ودون جلبة او احتفال ذلك لان حمود كان ابخل من في عائلتنا من الرجال وأبعدهم عن الكرم العربي التقليدي رغم انه من اكبر الأثرياء في زنجبار. ولهذا لم يكن محبوبا من احد في زنجبار وان يكن مرهوب الجانب يخشاه الجميع لثرائه ونفوذه وبأسه.

ولم أعد أرى زمزم بعد الزواج الا لماما. ولكنها دون شك كانت سعيدة بزوجها غير المحبوب — ولعلها بطرقها العملية في الادارة والتدبير قد «دبرت» هذا الزوج الغريب الأطوار واعادته إلى سواء السبيل.

«٩»

نونو

قست الطبيعة على نونو فافقدتها بصرها ثم افقدتها امها، وأرادت الطفلة المسكينة ان تنتقم لنفسها من الطبيعة والناس فنشأت عنيفة قاسية فجلبت على نفسها سخط القوم ونفرهم بدلا من ان تكسب عطفهم وشفقتهم .

كانت نونو ابنة ام شركسية رائعة الحسن والجمال، سميت لجمالها « تاجا »، وكانت من سراري ابي الاثيرات عنده، ولهذا وذاك كانت موضع الحسد والغيرة من ضراتها الاخريات . وقد رزقها الله بانثى جميلة مثلها هي نونو ولكنها وضعتها عمياء . وبدلا من أن يبعث هذا الحدث الأسف والاسى في قلوب منافساتها فقد بعث الشماتة والفرح ورأين فيه جزاء وفاقا لتاج على ما قدمت، وهي في الواقع لم تقدم شيئاً ابدا ولم تؤذ احدا ولم ترتكب ذنبا وكل ما في الأمر انها كانت – لجمالها افضل منهن منزلة عند زوجهن .

ومهما يكن من أمر، فان الحادث قد آلم الأم ونغص عيشها ومع انها لم تر في النهاية بدا من التسليم بقضاء الله وقدره، الا أنها لم تتحمل النكبة ولم تعش طويلا لترعي ابنتها الضريرة وتعني بها بل اسلمت الروح بعد الولادة بقليل وتركت طفلتها وحيدة في ظلماء هذا العالم .

وقد هيأ الله للطفلة احد عبدات امها الحبشيات التي أقسمت للأم المتحضرة تاج بانها ستعني بطفلتها نونو ولا تتركها ما ظلت حية . وقد وفت هذه الحبشية النبيلة بوعدها احسن الوفاء ووقت هذه الطفلة من الكثير من ويلات الحياة، رغم ما كانت تلقاه من عنف الطفلة وقسوتها وسوء معاملتها .

وكانت العبدة لا تتلقى اوامرها الا من ابي الذي كان حبه للصغيرة نونو يدفعه إلى الاعتناء بها وتفقد احوالها وهو مالم يكن يفعله مع اطفاله الكثر الآخرين .

وكانت نونو اعنف وأشرس طفلة شاهدتها في حياتي . وكانت قاسية مستبدة تثير الرعب والذعر في قلوب الاطفال وامهاتهم على حد سواء . وظلت كذلك

حتى بلغت العاشرة من عمرها وفي هذه الفترة كانت تتربص بكل طفل في البيت اصغر منها وتمسك به لتقلع عينيه، وكانت تستفهم عن كل مولود جديد ان كانت عيونه سليمة ويستطيع الرؤية أم لا . وقد دلتنا التجربة على ان من الخير ألا نخبرها الحقيقة دفعا لاذاها عن الطفل الجديد ولأنه يسرها ان تعرف ان هناك غيرها ممن حرم نعمة البصر ورؤية الشمس والقمر والاضواء والألوان .

وكانت عقدة نفسها المستعصية هي العيون فقد ملأتها عاهتها حقدا مرا ولوما أسودا، فقد سمعت مرة أن لاحد اخوتها الاطفال أهداب طويلة جميلة فما كان منها الا أن استغلت غياب امه ومربيته فتسللت اليه واعملت المقص في أهدابه وكادت ان تفقأ عيني الطفل البريء لولا صراخه وزعيقه .

وقد اشاع هذا الحادث الذعر في اهل البيت فلم يتركوا بعدها طفلا لوحده قط خشية اعتدائها عليه، وكان لها قدرة خارقة على تعيين الامكنة والوصول اليها وكانت تسير وتنتقل من مكان إلى آخر بسهولة ويسر وسرعة، لا تتوافر لضرير غيرها . ولذلك فكانت توجد في كل مكان وكأنها شبح من الأشباح أو جنية من جنيات الأساطير .

ومن أبرز طباعها اصرارها على أن تعامل كما يعامل المبصرون، فكانت تصر على أن تختار ملابسها بنفسها وان ترتديها امام المرآة وتتحرك جيئة وذهابا، وحين تسمع ان لاحدهم عيونا جميلة أو اهداب طويلة فانها تصر على ان تلمس هذه الاجزاء بنفسها لتمتحن صدق الكلام .

• • •

ومن حسن حظ الجميع، فقد تغيرت طباع نونو وسلوكها بعد بلوغها العاشرة من عمرها واصبحت فتاة رقيقة هادئة وبدأت خصالها الطيبة ومعدنها الجيد تنكشف للعيان فأكسبها هذا حب الجميع واحترامهم واعجابهم .

• • •

وقد فقدت المسكينة خادمتها الحبشية بعد فقد أبيها، وكانت هذه الحبشية اكثر

عطفا وحنوا عليها من كثير من الامهات، ولأنها لا تستطيع العيش بمفردها فقد انتقلت إلى السكن مع أختنا عائشة وعاشتا معا .

« ١٠ »

شومبو وفارشو

شومبو وفارشو هما ابنتا اخي خالد ولم يكن له من الذرية غيرهما وقد نشأتا في العز والدلال ثم ورثتا عن ابيهما ثروة عظيمة .

وقد كانت هاتان البنتان رفيقتي في المدرسة في بيت الساحل، ومن هناك نشأت صداقتنا وامتدت وازدهرت على مر الأيام فشاركتاني في مستقبل الأيام ارائي السياسية ونالهما منها ما نالني من الخسارة والأذى .

وكانتا يسكنان بيتا مقابلا لبيتنا – بيت الثاني – ولان الشوارع في زنجبار ضيقة جدا فقد كنا نستطيع بسهولة تامة ان نتبادل الحديث من نوافذ غرفنا فنتكلم عن شؤون البيت وعن الأزياء وعن السياسة . وكنا كثيرات الحذر عند الحديث عن السياسة ولذلك كنا نترك في منعطفات الشوارع بعض خدمنا لينبهونا عند مرور بعض المشكوك بهم وكانت اشارات التنبيه صفيرا أو سعالا أو ما اشبه . وسأعود إلى الكلام عن نشاطنا السياسي هذا في غير هذا المكان .

ورغم ان شمبو وفارشو من امين مختلفتين فانهما نشأتا على حب احداهما للأخرى حبا عميقاً وتعلقهما ببعضهما تعلقا متين الرابطة قوي الأصر، مما كان يوقعها دوما في خصام شديد مع اميهما اللتين كانتا على اشد النفرة واعنف الغيرة من بعضهما البعض .

وكانت شمبو اكبر من اختها فارشو ببضع سنين وكانت لطيفة رقيقة لينة الطبع على العكس من فارشو فقد كانت شديدة الحساسية حادة المزاج عنيفة الطبع . وكانتا – كما قلت – قد ورثتا ثروة ابيهما الضخمة ولكن لحب احداهما للأخرى فقد صممتا على العيش معا وترك ثروتيهما مشاعا بينهما دون قسمة .

وقد اغاظ هذا القرار ام فارشو وكانت حبشية لها ما عند قومها من الحدة

والعنف، وقد ارادت لابنتها ان تنفرد بثروتها وتستقل بشؤونها عن اختها، ولكن البنت رفضت هذا الاقتراح بكل عناد وتصميم واعلنت عن قرارها القاطع بعدم قسمة ثروتها مع اختها وعدم الانفصال عنها ما دامتا كلتاهما غير متزوجتين .

وتجاه هذا التجاهل الشديد والرفض القاطع لرأيها ولامور اخرى لم تجر على رغبتها وهداها، فقد وجدت ام فارشو ان المقام مع ابنتها لم يعد مما يطاق فتركت بيتها سرا ولم تأخذ معها الا صرة صغيرة من الملابس ودريهمات معدودات .

وظل مكان اختباء الام مجهولا لم يستطع احد ان يهتدي اليه، ما ظلت معها بقية من دريهماتها المعدودات . فلما جاءت على آخر « بيزة » منها لم تجد بدا من العودة إلى بيت الموتى حيث ذهبت إلى اختي زينة وكانت اقربنا إلى اخينا خالد واكثرنا حبا له . وعاشت معها ورفضت ان تكلم ابنتها ما لم تأت فارشو بنفسها وتعترف بخطأها ثم تعتذر .

لكن البنت لم تلق بالا للموضوع ولم تكترث ولم تفكر في ارضاء امها أو زيارتها رغم علمها بمرض أمها مرضا وبيلا . وقد ذهبت عبثا محاولاتنا معها بتذكيرها بحقوق الامومة وواجبات البنوة .

وكان الشعاع الصادر من عينيها الكبيرتين يؤكد مقدار عزمها على الاصرار على قرارها حتى يكاد المرء ان لا يصدق صدور كل هذا العناد من مخلوقة صغيرة جميلة مثل فارشو .

وبعد خروجي من زنجبار علمت ان فارشو قد ماتت بالسل، ولا أدري ان كانت قد صالحت امها قبل الوفاة ام لا .

• • •

وقد ورثت هاتان الاختان عن ابيهما خالد مزرعة كبيرة ضخمة اسماها « مرسيليا » تعبيراً عن كبير ولائه للفرنسيين واعجابه بهم .

وكان في المزرعة قصر من افخم القصور هندسة وبناء وآثاثا، فكانت جميع جدرانه – عدا غرف الصلاة – مغطاة بالمرايا الكبيرة وارضه مفروشة بالرخام

الملون وكانت غرف القصر تعج بأنواع الساعات والتحف النادرة والمزهريات الصينية النفيسة .

وكنت اقضي في هذا القصر اياما ممتعة في ضيافة الاختين الصديقتين، وكان القصر يعج بالضيوف رجالا ونساء وكانت الاختان متحررتين نوعا ما من بعض التقاليد فكانا يواجهان الرجال ويجالسونهم ان كانوا مع زوجاتهم . وكانت اقامة الضيوف تدوم اياما أو أسابيع كنا نقضيها في احسن مرح وسمر .

ولكن هذا القصر الجميل تعرض للانهدام، فقد اتخذه أخي برغش حصنا له ومقرا لثورته ضد اخيه السلطان ماجد فاضطرت قوات الحكومة ان تقصف القصر وتدكه دكا وتتركه اطلالا .

وكانت خسارة البنتين جسيمة بحد ذاتها ولا شك، ولكن ثروتهما كانت من الجسامة بحيث لم يؤثر فيها فقدان هذا القصر البديع، وبحيث انهما اعتبرتا الحادث من التفاهة وعدم الاهمية بحيث لا يستحق الذكر والبحث .

«١١»

هلال

اكتفي بالكلام عن هاته الاخوات وانتقل للكلام عن اخوين اثنين فقط هما هلال وثويني وقد ذهب اولهما ضحية اخطائه وراح الثاني ضحية ابنائه .

فمن المعروف جيداً ان ديانتنا الاسلامية تحرم شرب الخمور وكل المشروبات الروحية تحريماً تاما لا بل ان مذهبنا الأباضي يتشدد إلى حد تحريم التدخين أيضا.

ولكن مع الأسف وبمرور الأيام بدأ يتأكد ما كان يصل الينا من أخبار سيئة من ان بعض المسيحيين وخاصة القنصل الفرنسي [١] قد افسدوا هلالا وعلموه على شرب الخمر . ذلك ان علائم الذهول والخمار بدأت تنتابه بوضوح، كما

---

(١) وكان اسمه المسيو دي بليني .

بدأت رائحة الخمر تفوح منه بشكل واضح، وفقد هلال المسكين القدرة على ادراك ما يحل به وايقافه عند حده .

• • •

وكان هلال الابن الاكبر والمفضل عند ابي الذي سببت له اخبار ابنه وحاله قلقا عظيما وهما كبيرا، فحاول اصلاح ابنه الضال بالنصح والكلام فلم ينفعا معه بشيء، فاضطر إلى حجزه في القصر لمنعه من الاتصال برفاق السوء واذ لم تنجح معه كل هذه الأساليب فقد اضطر إلى ابعاده عن محيط العائلة بكاملها .

وقد آلمنا جميعا هذا القرار ولكن عائشة كانت اكثرنا الما وحزنا لشدة حبها وتعلقها بأخيها هلال . لذلك سمحت له بأن يزورها سرا في القصر بعد طرده . وكان يدخل القصر بصعوبة كبرى وسرية تامة وحين يجلس لديها تطفىء انوار الغرفة لئلا ينم الضوء عن وجوده لديها . ولم يكن احد يطاوعه قلبه ليشي بخبره إلى أبينا فظل الامر على هذا الحال . ولكن عطف خديجة وحبها اضر به من حيث لا يدريان، فقد كان قصد ابي من قراره ان يمنع المال عنه عسى ان يرعوي عن غيه ولكن اخته بحبها وكرمها افسدت هذا القرار فساعدت في تحطيم هلال .

وقد ازداد هلال ادمانا وقلت ساعات صحوه وتردي حاله حتى انقذه الله تعالى من هذا الحال الزري بالموت السريع (١) .

• • •

---

(١) قد يكون لقصة هلال وجه آخر غير ماروته المؤلفة . كما وان هناك تفاصيل اخرى للموضوع يجب أن تذكر في هذا المقام .

كان هلال الابن البكر للسيد سعيد وقد ولد عام ١٨١٠ من أم حبشية ماتت عنه وهو طفل فنشأ وحيدا في بيت يعج بعدد غفير من زوجات الأب اللواتي تكيد كل منهن وتكافح من اجل الفوز لولدها بالحظوة والاسبقية عند ابيه السلطان . وكانت تنحية هلال – باعتباره الا بن الاكبر وخليفة ابيه الشرعي – هي الهدف الأول لكثير من هاته النسوة وعلى رأسهم أم خالد، وكانت اثيرة عند السلطان وكانت قوية الشخصية قوية الارادة ذات ذكاء ودهاء، وكان ابنها خالد المولود عام ١٨١٩ الا بن الثاني في تسلسل الوراثة فلا عجب اذا ما حاولت تنحية هلال لن طريق ابنها واستغلت مكانتها عند السلطان فأوقعت بينه وبين ولده هلال .

←

وعلى الرغم من كل ما حدث فقد كان حزن ابي على ابنه البكر اكبر من ان يوصف وكان يتظاهر بالصبر والتجلد ولكنه كان ينفرد في غرفته وينخرط في صلاة من اجل ابنه كنا نشاهد بعدها آثار الدموع في مآقيه . ولما سمع بخبر وفاته غلب الحزن عليه فقال : —

« آن : لو تدري مقدار حزني والمي عليك يا هلال »

• • •

وقد ترك هلال من بعده ثلاثة أولاد هم سعود وفيصل ومحمد . والأخير وهو أصغرهم تبنته زوجة ابي عزة بنت سيف وكانت عاقرا، فسيطر عليها سيطرة كاملة اثارت ذهولنا واستغرابنا . ونجح فيما لم ينجح فيه احد من قبل . فالسيدة عزة معروفة بالبخل والتقتير ولم يسمع عنها انها اهدت احد شيئاً ما . لذلك لم نصدق اذاننا وعيوننا ونحن نسمع ونرى مظاهر البذخ والاسراف التي يعيش فيها محمد من مال السيدة عزة . فلم يكن احد في بلدنا في ذلك الزمان يحلم بأن يقتني كلبا ولكن محمد طلب عددا كبيرا منها من اوربا فوصلته انواع من الكلاب لم نرها من قبل، وكان يقضي يومه باللهو مع هذه الكلاب ومع مجموعة نفيسة من الخيول اقتناها من مال جدته كذلك .

فقد كانت العلاقة بين الا بن وابيه جيدة وكان هلال ينوب عن ابيه في حكم مسقط رغم صغره ثم تولى ولاية بركه .

ويعتبر عام ١٨٤١ حدا فاصلا في العلاقة بين الاثنين اذا استدعى السيد سعيد في هذا العام ابنه هلالا من بركة إلى زنجبار وأمره بالمكوث فيها .

ثم كتب السلطان عام ١٨٤٤ إلى اللورد ايروين وزير الخارجية البريطانية بطلب موافقة حكومته على أن يخلفه عند وفاته ابنه ثويني على مسقط وابنه خالد على زنجبار وان يحرم ابنه هلال من كل حقوق الوراثة .

وقد وصل خبر هذا الاقتراح إلى هلال فتسلل من زنجبار إلى لندن في عام ١٨٤٥ وعرض قضيته على الوزير البريطاني الذي ضايقه ولا شك اقحامه في هذه القضايا العائلية . ولكنه على كل حال اكرم مثوى هلال واعاده على ظهر احدى السفن الحربية إلى زنجبار وكتب للأب جوابا دبلوماسيا يتملص فيه من الرد بصراحة على اقتراحاته ولكنه يوصيه بابنه هلال . ←

ولم يرضى محمد ان يكون طعام كلابه من فضلات المائدة بل جعل لها قسما قسما خاصاً بالمطبخ حيث يختار لها احسن اللحوم وخير العظام، وتقدم لها بأوقات معينة . وتذهب الاشاعات إلى أن محمد لا يسقي كلابه وخيوله الماء وانما يسقيهم الشامبانيا، وهي اشاعة لا مجال لتصديقها طبعا ولكنها تصور ما يتقوله الناس عن بذخ محمد واسرافه وبالتالي تصور مقدار التغيير الذي احدثه محمد على زوجة ابينا .

• • •

أما الابن الاول سعود فكانت نقطة ضعفه تقليده للاوربيين في نمط حياتهم وطرق سلوكهم، وكان في تصرفاته اشبه بابيه .

• • •

ويختلف الابن الثاني فيصل عن اخويه اختلافا كبيرا في العادات والطباع ، فلم يكن له عادة محمد في البذخ والاسراف أو طبع سعود في الظهور والانجراف مع الاوربيين . بل كان على العكس منهما يغلب عليه التواضع في سلوكه والبساطة في حياته ولباسه، والزهد في الحياة ومطالبها ولذاتها .

وكان يصدر في تصرفه هذا عن فلسفة معينة في الحياة لم يفهمها عنه اخواه فظل بالنسبة اليهم لغزا غير مفهوم دائماً .

ومهما يكن رد فعل السلطان تجاه رحلة ابنه إلى لندن وعرض أمره على المسؤولين فيها، فانه استقبل هلا لا عند عودته استقبالا حافلا وتعانق الأب والابن وجرت دموعهما امام الجماهير .

وقبل ان تجف الدموع عاد الجفاء بين الاثنين فأصدر سعيد أمرا بنفي هلال من زنجبار إلى لامو. وكان ذلك عام ١٨٤٩ ، ثم غادرها بعد سنتين بغية حج بيت الله الحرام فمر في طريقه على عدن وفيها مات في شهر ايلول من عام ١٨٥١ وكان المرض والحسرة والم الغربة والقلق قد هدت قواه وعجلت في منيته .

وقيل ان هلالا كان طويل القامة جميل المنظر انيق المظهر محترما شجاعا وكريما محبوبا من جميع العرب ولعله اقرب ابناء السيد سعيد شبها بأبيه قوة شخصية ومهابة . وقيل انه كان خير من ان يستطيع أن يزاحم أباه ويجمع حوله العرب لو أراد ذلك . وقيل ايضاً ان أم اخيه خالد وكانت من المفضلات عند أبيه وذات شخصية قوية، كانت خلف هذه الأحداث وهدفها القضاء على هلال ليصفو الجو لابنها خالد .

←

ولقد تيسر لي أن اتعرف عليه عن قرب وان افهمه حق الفهم، فقد كان يسكن مزرعة صغيرة مجاورة لمزرعتي التي كنت اسكنها، فكان يزورني يوميا ولا ينسى ان يحمل لي معه هدية صغيرة مما يقدم للاطفال فاني وان كنت عمته فانني اصغره بعدة سنوات وثقت بيننا اواصر المحبة والتفاهم، وكان لطيب مظهره ونبل مخبره وحسن سلوكه ورفيع أدبه يكسب ود الناس واحترامهم . وقد فتح لي نفسه وقلبه وحدثني عن شعور الوحدة الذي يحيط به وفقدان الحب والحنان الذي يحسه منذ ان فقد امه وهو طفل صغير .

وحدثني عن احزانه لان اخويه لم يفهماه ولم يكلفا انفسهما ذلك ولم يكترثا ويهتما به وبوجوده وكان الألم يعصر قلبي وأنا اسمعه يقول انه تستوي عنده الحياة والممات لان ما من احد يكترث به أن عاش، وما من احد يحزن عليه ان مات .

ولم يحزن احد لانتقالي من المزرعة وعودتي إلى المدينة حزن فيصل عليّ . فقد اعتاد أن يبث اليّ ذات نفسه وكأنني عمة كبيرة حقا لا مجرد فتاة لا خبرة لها في الحياة .

«١٢»

ثويني

ثويني هو الأخ الأكبر لنا بعد وفاة هلال، وقد ولد في مسقط وعاش فيها طول حياته ولم يكتب له ان يزور زنجبار قط او يحمل شعورا طيبا لهذا البلد الذي كان منبعا لا ينضب للأخوة والأخوات .

ونرى أن موضوع الشراب مبالغ فيه فلا يمكن لرجل سكير مدمن ان يكسب حب العرب واحترامهم كما فعل هلال، ولا يمكن لمثل هذا الرجل ان يقطع البحر إلى انكلترة لمطالبة بحقوقه أو يعتزم زيارة بيت الله الحرام .

وهناك شهادة الأب بادجر – وكان وثيق الصلة بأولاد السيد سعيد فهو يقول انه لم يشهد أو يسمع ان احدا من أولاد السيد سعيد يشرب الخمرة أو يدخن أو يشرب القهوة !! .

ولأن الرسم غير مباح في الاسلام، والتصوير الفوتغرافي لم يكن معروفا عندنا في ذلك الزمان، لذلك فقد ظل اخونا ثويني مجهول الصورة للغالبية من اخوانه واخواته الذين لم يزوروا مسقط فيرونه رأي العين .

ولكن ان غابت عنا سماته لم تغب عنا صفاته، فقد كنا نسمع الكثير عن فضله ونبل معشره وعن شجاعة قلبه وبسالته في الحروب . وكان في هذه الناحية مثل أبي رجل حرب وقتال، وكان جنديا اكثر من أي من اخوانه الآخرين . وكان يقضي خير اوقاته في مخيمات الجيش وميادين الحروب حيث يبعث مجرد وجوده الثقة والحماس في جنوده المخلصين له، وحيث يسبب غيابه الدائم الألم والأسى في قلب ابنة عمه وزوجته الشرعية راله التي انجب منها عدة بنين وبنات .

• • •

ولأن أبي اعتاد ان يقضي كل اوقاته في زنجبار، فقد كان ثويني نائبه والقائم مقامه في تسيير شؤون الدولة وادارة دفة القتال ضد الاعداء الطامعين .

فكان يقضي جل ايامه اما بمحاربة الفرس الطامعين باستعادة بندر عباس واما بمقاومة زحف القبائل العربية القادمة من اواسط الجزيرة العربية . وكانت جحافل هذه القبائل لا ينضب معينها ولا ينتهي عددها وهي قبائل فقيرة جائعة ليس لها ما تعمله او تقتات منه غير الغزو والنهب[1] . وكانت عمان هدفا من أهدافهم ولا يستطيع ان يصدهم عنها ويحتفظ بها في منأى عن ايديهم الا الحاكم القوي الشكيمة الغزير الموارد .

وهكذا كانت حالة الأمن في البلاد عند وفاة أبي، في طريق عودته من مسقط إلى زنجبار، ولو ان المنية اخترمته وهو في مسقط لكان من الممكن لثويني ان يضم اليه ملك زنجبار أيضا بدلا من أن يدع أخاه ماجدا يستأثر بها ويعلن نفسه سلطانا عليها .

---

(١) في هذا القول كثير من الافتئات على الواقع فان هؤلاء المهاجمين اما ان يكونوا من قبائل عمانية ثائرة او جيوش وهابية يدفعها إلى الحرب ما تحسبه جهادا دينيا .

وقد ذكرت من قبل ان ماجد وافق ان يدفع معونة سنوية إلى أخيه ثويني في عمان، ولكنه تخلى عن التزامه هذا بعد فترة قليلة و بمبررات مفتعلة .

وقد كان قرار ماجد محل الانتقاد من جميع الجهات لان عمان بلد فقير لا يستطيع أن ينهض بنفسه و يقف امام اعدائه من دون مساعدة زنجبار الغنية وعونها.

وكان ثويني يواجه ثورات في الداخل وغزوا من الخارج . وكانت هذه الحملات قد استنزفت موارده واضعفت موقفه، وفي هذه الظروف الحرجة قطع ماجد عنه معونته فجعله في وضع صعب وفي حاجة ماسة للمال الذي اضطر في سبيل تأمينه إلى ان يفرض بعض الرسوم الجمركية على بعض السلع . ومن حسن حظ عمان ان القروض العامة التي كانت السبب في تحطيم الكثير من الممالك الشرقية لم تكن قد عرفت بعد في ذلك الحين !

لكن الضرائب الجديدة اثارت استياء السكان وتذمرهم واستطاعت الفئة الناقمة ان تكسب إلى جانبها سالم ، أكبر ابناء ثويني والذي ارتكب ابشع جريمة يرتكبها انسان .

فقد ذهب سالم إلى ابيه في ظهيرة يوم ما، وكان الأب وحيدا في غرفته وقد عاد لتوه من اجتماع هام وكان يشعر بالتعب فالقى بنفسه على فراشه آملا في بعض الراحة . وحين دخل عليه ابنه وجده مضطجعاً في فراشه فطلب اليه الغاء الرسوم الجديدة، ولكن الأب بدأ يشرح لابنه موجبات وضعها، فما كان من الابن الجبان الا أن شهر مسدسه واطلق رصاصة على الأب المضطجع فأراده قتيلا [1] .

• • •

(١) ولد ثويني عام ١٨٢١ في مسقط من ام شركسية واغتيل عام ١٨٦٦ والقصة الشائعة عن مقتل ثويني تختلف من رواية المؤلفة . وهي ان ثويني وابنه سالماً كانا في احدى الحملات في صحار، وتسلل سالم في الظلام إلى مضجع ابيه النائم واطلق عليه رصاصتين من مسدسه فلما شعر ابوه هب واقفا يريد القبض على الجاني وهو ينتخي — على عادة العرب « أنا أبو سالم » ولكنه — لخيبة أمله — وجد أن الجاني هو ابنه سالم نفسه فصاح ... انت سالم !. ←

لكن الامور لم تستقم للابن القاتل الضال ولم يتمتع بثمار جريمته طويلا، بل لقي عقابه السريع جزاء فعلته الشنعاء، فما كاد أن ينصب نفسه على عرش ابيه القتيل حتى ثار عليه ابن عمه عزان الذي فاجأ مسقط بجموع كبيرة من البدو وقعوا فيها قتلا ونهبا، ولم ينهض احد للدفاع عن السلطان قاتل ابيه فاخذ الغزاة كل ما يقدرون على أخذه وحطموا البيوت والمتاجر وقصر السلطان نفسه .

واستطاع سالم ان ينجو بنفسه من هذه المجزرة الرهيبة ويلجأ إلى احدى سفنه في الميناء لا يملك شيئاً الا سيفه فقط . واستطاعت امه المسكينة ان تضحي بكل ما تملك من غالٍ ونفيس لتنقذ نفسها واطفال ابنها وتهرب بهم إلى السفينة لا يملكون شروى نقير (١) .

ولقد شاء حظ هذه الامرأة النبيلة ان يعثر احد التجار الهنود واسمه عبد الرب على مجموعة مجوهراتها النفيسة عند احد البدو فاشتراها منه بثمن بخس قيل انه ثلاثمائة دولار ثم قدمه هدية إلى هذه الأميرة المنكوبة المنكودة الحظ .

• • •

لكن عزان نفسه لاقى نفس المصير من قبل اخي تركي . وهذا لاقى نفس المصير على يد اخينا الصغير عبد العزيز ، التي تولت خولة تربيته والقوامة عليه، وقد اشتهر بالذكاء والشجاعة والنشاط ، ولعب وهو في الثانية عشرة من عمره دورا بارزاً في الصراع بيننا وبين ماجد . ثم عاش بعد ذلك وقتا في بلوجستان .

وامتطى سالم بعيره وقصد مسقط فلما وصلها اعلن ان والده توفي بالحمى، ولكن اباه لم يمت الا بعد يومين من اصابته .

وهناك قصة أخرى رواها المستر ويندل فيلبي (في كتابه : تاريخ عمان صفحة ١٣٩) عن السلطان تيمور بن فيصل المتوفي عام ١٩٥٦ عن احد شهود الحادث والضالعين مع سالم في مؤامرة القتل وخلاصتها ان سالم دس السم إلى ابيه بقصد قتله ولكن الأب لم يمت بل بدأ شعر رأسه بالسقوط . فخشي المتآمرون افتضاح امرهم فهددوا سالما ان لم يقضي على والده فانهم مخبروه بحادث التسمم ولهذا ذهب سالم وقتل اباه.

ومما يجدر ذكره ان ام السلطان تيمور هي ابنة سالم بن ثويني .

(١) قدرت الثروة التي تركها سالم خلفه بحوالي ٢٠٠ الف دولار . وقد مات سالم بالجدري في منفاه في كراجي عام ١٨٧٤ .

وقد استطاع ان يعيد السلام والأمن إلى مسقط فترة قصيرة ولكنه لم يستطع الصمود أمام اخيه تركي الذي عاد اليه بجيش كبير فلاذ بالفرار إلى بلوجستان وما يزال يعيش فيها حتى الآن .

• • •

هذه صفحات محزنة ودامية للنزاع العائلي ولا يمكن فهمها الا للذين عرفوا الشرق وعرفوا طموح الامراء الشرقيين وحدة مزاجهم . ولا يمكن للمرء في أمثال هذا الجو ان يكون حياديا أو متفرجاً وكذلك كان الامر معي فقد انغمست في هذه النزاعات واكتويت بنارها كما ساروي قصة ذلك بعد قليل .

الفصل الخامس عشر

وضع المرأة في الشرق

وقبل المضي في سرد احداث حياتي، أود أن أكتب بعض الفصول في وصف بعض وجوه الحياة الشرقية . لا أريد من هذا ان اعدد أو أشرح كل عاداتنا او تقاليدنا، وانما الذي اهدف اليه هو تمكين القارىء الاوروبي من تكوين صورة صحيحة عن بعض الانماط الهامة للحياة في الشرق (١) .

وسأبدأ بأكثر المواضيع دقة وخطرا وهو الكلام عن وضع المرأة في الشرق . وانني لأحس ولاشك بخطر الكلام في هذا الموضوع . فان كوني شرقية الأصل والمولد والنشأة سيعرضني للاتهام بالتحيز إلى بلادي القديمة وبنات جنسي . ولهذا السبب فما اظنني سأنجح في تصحيح الافكار الخاطئة عن وضع المرأة الشرقية وعن علاقتها بزوجها وهي الافكار الشائعة في اوروبا عامة وهنا في المانيا خاصة .

ولعل السر في شيوع هذه الافكار الخاطئة هو التسرع في الاحكام والأخذ بمظاهر الاشياء فقط واستقاء المعلومات من غير مصادرها الاصيلة . فعلى الرغم من شيوع المواصلات وسهولتها بين اوربا والشرق، فما يزال الشرق في نظر الغربيين بلد الغموض والسحر وقصص الخيال والخرافات . وعلى هذا الاساس فهو يستهوي الكثيرين للكتابة عنه لغرض الربح او الشهرة . فاذا حدث ان مر سائح ما مرورا عابرا في الشام او تونس او القسطنطينية او القاهرة فانه لا يتأخر عن

(١) ما سيذكر في هذا الفصل والفصول التالية يجب أن يؤخذ على انه وصف للحياة في بلد شرقي معين هو زنجبار وفي منتصف القرن الماضي . وهو – كما قالت المؤلفة نفسها – نمط واحد من انماط عدة للحياة الشرقية في ذلك البلد وفي غيره من البلدان .

الكتابة عن هذه الاماكن كتابة الخبير العالم بها وكل مصادر علمه هو خدم الفندق الذي ينزل فيه او اصحاب الحمير التي تنقله في تنقلاته . وليته يكتفي بما يسمع ويرى بل انه يطلق لخياله العنان فيضيف إلى كتابه اشياء خيالية لا أساس لها من الصحة والواقع ليضفي على كتابه مظهرا من مظاهر الجدة والاهمية ويضمن له النجاح وسرعة الانتشار . ولا يمر وقت طويل حتى يصبح هذا الكتاب مصدرا وحجة تستقى منه المعلومات وتبنى عليها الاحكام .

وقد وقعت نفسي في هذا الخطأ أول وصولي إلى أوربا بسبب انخداعي بظواهر الامور ، فقد خدعتني – وانا أزور بعض العائلات أو اخرج معهم – علائم البشر والابتهاج تغمر وجوههم ، فذهبت إلى الظن بأن الحياة العائلية في اوروبا اقرب إلى السعادة والهناء منها في بلادي . ولكن بعد ان كبر أولادي ولم يعودوا بحاجة كبيرة إلى رعايتي واهتمامي كما كانوا من قبل ، ازدادت علاقتي بالعالم الخارجي وكثر عدد معارفي من العائلات ونفذت إلى دخائل حياتهم العائلية ، فاكتشفت انئذ مقدار الخطأ في احكامي الأولى . وان حقيقة الناس والأشياء ودخائلهم وما يضمرون هو غير ما يبدون ويظهرون . فقد تعرفت على الكثير من الزيجات التي ظاهرها السعادة وباطنها شر انواع العذاب . وقد انتهت بي ملاحظاتي المتكررة إلى ان نظام الزواج المسيحي لا يفوق النظام الاسلامي في شيء ، ولا يحقق بذاته سعادة اكثر ، والحقيقة التي انتهيت اليها والتي لاشك فيها ان السعادة العائلية والانسجام الزوجي لا علاقة لهما بنظم الزواج ولا بدين المرء أو معتقده او تقاليده وانما يعتمدان أولا وأخيراً على مقدار تفهم كل من الزوجين للآخر . فهذا العنصر وحده ولا شيء غيره هو سر السعادة بين الزوجين ، وانعدامه بينهما هو سر الشقاء في حياتيهما .

وتجنباً للوقوع في الخطأ فانني اسارع إلى القول بانني اذا اتكلم عن حال النساء في الشرق فأنا اتكلم عن معرفة تامة بالأحوال في زنجبار وبصورة تكاد تقاربها عن الاحوال في عمان ، ومع هذا فانني استطيع تعميم الاحكام لتشمل المرأة الشرقية بصورة عامة ذلك لان احكام الاسلام الحقيقية تصدر من نبع اساسي واحد ،

وحيثما يسود الاسلام تتشابه الأحوال والأحكام باستثناء بعض المجتمعات التي غزتها فافسدتها سفسطات الغرب المسيحي

وأول ما اريد تصحيحه هو الفكرة الخاطئة التي تذهب إلى ان المرأة الشرقية تنزل في المجتمع منزلة اقل من منزلة زوجها، في حين ان الواقع ان الزوجة – وطبعا فان الجواري والمحظيات لسن موضوع الحديث – تساوي زوجها مقاما وحقوقا وامتيازات وان منزلتها الاجتماعية محل التقدير والاحترام. ومن التقاليد العربية الاصيلة – وربما كان مصدرها الشريعة الاسلامية نفسها – عدم جواز زواج المرأة بمن ليس كفء لها، اي من لا يساويها منزلة وحسبا . ولكن ما جعل المرأة الشرقية تبدو وكأنها لا حرية ولا حول لها هو الحجاب وحياة العزلة . وحجاب المرأة أمر واجب شرعا في كل بلاد الاسلام في الشرق فلا يجوز للمرأة ان تكشف عن وجهها الا لابيها واخوتها واعمامها وزوجها وابنائها ولبعض خدمها الخاصين بها . وكلما ارتفع مقام المرأة ومركزها الاجتماعي ازدادت هذه القاعدة شدة وصرامة . واذا اضطرت المرأة إلى الحضور امام رجل غريب او التحدث معه فعليها ان تحجب عنه وجهها وتغطي جسمها، ولها بهذا الشكل ان تخرج إلى الطريق العام ان شاءت . اما النساء اللواتي لا يملكن خدما وتضطرهن ظروف الحياة إلى الاكثار من الخروج إلى الشوارع فهن – نسبيا – اكثر تحررا من هذه القواعد ولو سألت احداهن عن السبب لقالت لك ان هذه القواعد لم توضع للنساء الفقيرات . ويجب ان اعترف ان المثريات من النساء يحسدن الفقيرات على حريتهن في الخروج والتجوال، والاخيرات يكثرن في عمان حيث لا تسمح لهن موارد بلدهن الفقير في امتلاك الخدم والعبيد .

على أن المرأة الثرية ليست محرومة من الخروج كليا، وانما يجب ان يكون لخروجها سبب مقبول او حاجة ملحة. فلها ان تعود المرضى من أهلها واقاربها، أو تحضر المآتم والافراح أو أن ترعى تجارتها . ولعدم وجود المحامين في بلادنا – لحسن الحظ طبعا – فللمرأة ان تبرز امام القضاة وان تترافع امامهم في قضاياها. والتقاليد الصارمة تمنع المرأة من الاسترسال في الانتفاع من هذه الاباحة كما

تمنعها من الاسترسال وراء ميلها الغريزي للتخفيف من مظاهر الستر والحجاب التي تبدو فيها بالشارع وكأنها دمية ملفوفة، ومع اعترافي بأن النظرة الشرقية في هذا الامر كثيرة الشدة والصرامة فاني اجد ايضاً ان تبرج المرأة الاوروبية في لباسها وزينتها وهي تظهر في الحفلات العامة لا يعدو كونه هو الآخر تطرفاً ممقوتاً في الاتجاه المعاكس .

والمرأة الوحيدة أي التي لا عائل لها من أب أو أخ أو زوج أو ولد يستحق حالها الرثاء حقا، فهي لعزلتها التامة بحكم الدين والعرف عن الجنس الآخر تفتقد رعاية الرجل وحمايته وارشاده فتتعرض لمتاعب اليمة وتقع فريسة خدمها وحاشيتها يبتزون اموالها بالغش والخداع . وكم من صديقة لي أقدمت على الزواج لا لسبب الا للخلاص من هذا الوضع الاليم . وهكذا نرى أن عزلة المرأة الشرقية قد تكلفها الكثير من المشاق، ولكني مع هذا لا أرى مبرراً لعواطف الاشفاق والأسى التي يبديها الاوروبيون تجاه ما يسمونه مأساة المرأة الشرقية، فالواقع انها لا تعيش في مأساة بل هي لا تشكو ولا تتذمر من حالها، فلقد الفت هذه الحياة واعتادتها، وللمرء من دهره ما تعود .

ويزداد هذا الاشفاق بسبب تعدد الزوجات واضطرارها ان تقتسم حب زوجها مع اخرى أو اخريات ، ولا جدال في ان الدين اباح للمسلم ان يتزوج اربع زوجات في آن واحد، وان يتزوج الخامسة فالسادسة كلما توفيت احدى زوجاته او انفصل عنها بالطلاق . كما اباح له ان يحوز من الجواري والسراري ما يشاء وما تملك يمينه، الا انني في كل حياتي بالشرق لم ار او اعرف رجلا متزوجاً من اربع نساء في آن واحد . فالفقراء من الرجال لا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً لضيق ذات اليد، والموسرون منهم يكتفون باثنتين على الاكثر ، ويكون لكل منهما بيت قائم بذاته مستقل عن الاخرى . عدا عن هذا فان بعض النسوة يشترطن على ازواجهن ان لا يشركوا معهن امرأة اخرى بالزواج أو الشراء ويحتفظن لانفسهم بحق الطلاق من الزوج اذا خالف هذا الشرط .

وعلى هذا فالسائد عملا في المجتمع هو الزواج بواحدة، ولكن اذا بدى لرجل

ما أن يمارس حقه المشروع في الزواج بأكثر من واحدة، فان النتيجة تكون وبالا عليه وكدرا لعيشه، بسبب عواطف الغيرة والبغضاء بين الزوجات والتي يلهبها الدم الشرقي العاطفي الحار فيحيلها دوما إلى مشاجرات عنيفة قاسية متكررة، والتي قد يدل تكرارها على ان المرأة الشرقية اكثر تعلقا بزوجها وتفانيا في حبه من اختها الشمالية الباردة.

ومشاعر البغضاء والشحناء هذه امر محمود في النتيجة رغم ما تسببه من اكدار وآلام، فكثيراً ما صدت اشجانها ومتاعبها الموسرين من الرجال عن التفكير في معاودة الزواج مفضلين العيش مع زوجة واحدة في راحة البال على الشقاء والعيش المنغص مع اثنتين او اكثر.

وبعد فمن الواضح ان ما من رجل، وبالاحرى، ما من امرأة تستطيع ان تجد عذرا او مبررا لتعدد الزوجات، ولكن ما هو حال الزواج بين المسيحيين وبين الاوربيين المثقفين منهم؟ ولاضرب الآن صفحا عن مزاولة تعدد الزوجات تحت اسم «مارمونيسم»[1] وهي طائفة مسيحية صرفة تقوم على ارض مسيحية صرفة، ولنرى هل ان الزواج عند الاوروبيين هو نظام مقدس فعلا؟ وأليس من السخف في اكثر الاحيان ان نتكلم عن «زوجة» واحدة للرجل الغربي؟ فصحيح ولا شك ان الشريعة المسيحية لا تجيز الزواج بأكثر من واحدة، ولنفرض جدلا انها على حق في ذلك. وصحيح ان الاسلام يبيح الزواج باكثر من واحدة ولكن اليس من الصحيح ايضاً ان التقاليد وواقع الحياة في الشرق قد خففت إلى حد كبير من انتشار هذه القاعدة في حين ان الغربيين يتعمدون آثمين مخالفة تعاليم دينهم باتخاذهم الخليلات بالخفى والفجور؟ ولعل الفرق الوحيد بين المرأة الشرقية وزميلتها الغربية ان الاولى تعرف بوضوح وبالضبط من هي منافستها أو منافساتها وعددهن وشكلهن ووصفهن في حين تبقى المرأة الغربية في جهل تام عن هذا كله.

---

(۱) مارمونيسم : طائفة مسيحية ظهرت في أمريكا عام ۱۸۳۰ وكانت تبيح تعدد الزوجات وعلى هذا لاقت عنتا شديدا من المسيحيين الآخرين مما اضطرها عام ۱۸۹٦ إلى أن تعدل عن هذه الاباحة، فاستقام امرها وكثر انصارها ويبلغ عددهم اليوم حوالي المليونين نسمة.

اما عن الرقيق والجواري، فلا يملكهن الا ذوو اليسار من الرجال . وعدا عن هذا فالأمة تعتق اذا ما ولدت طفلا، ولا يجوز بعد ذلك بيعها الا اذا مات طفلها ولا يلجأ الرجل إلى بيعها في هذه الحال الا في القليل النادر عن قلى او املاق .

والجواري يكتسبن حريتهن بموت سيدهن، ويتمتعن بعد ذلك بمطلق حريتهن ولهن ان يتروجن من شئن حتى ولو كان اخ سيدهن زواجا طبيعيا حرا .

ومن الأمور الباطلة الظن بأن الرجل العربي يعامل زوجه باحتقار وازدراء . فديننا الاسلامي يمنع ذلك منعا باتا ويساوي بين الجنسين، واذا كان الدين قد منح الرجال حقوقا اكثر من النساء فانه في الوقت نفسه اوجب عليهم حمايتهن ورعايتهن والمسلم يخاف الله ويرعى تعاليمه حتى آخر لحظة من حياته لانه يؤمن بلقاء الله بعد الممات ويأمل بثوابه ورضاه في الآخرة ايضا، ولهذا فهو احرص من كثير من الاوروبيين على رعاية نسائه وبناته طاعة لله واحتراما لاوامره .

ومن الطبيعي ان نجد في المجتمع العربي كما نجد في كل مجتمع آخر بعض المنحرفين الذين لا يبادلون زوجاتهم الحب الكافي أولا يقدرهن حق قدرهن . ولكني استطيع ان أجزم عن وعي وادراك بانني سمعت هنا اكثر مما سمعت في الشرق عن ازواج ظاهري الرقة والثقافة لا يتورعون عن ضرب زوجاتهم في بيوتهم . في حين ان العربي يترفع عن هذا التعدي لان شيوعه عنه يحط من قيمته بين الرجال . وليس الأمر كذلك مع الزنوج في بلادنا، فتبادل الضرب بين الزوجين وعلنا امر شائع بينهم وما اكثر ما تدخلت شخصياً اثناء اقامتي في المزارع في فض مثل هذه المشاجرات التي تتسم بالعنف الشديد والضرب المبرح.

وليس صحيحاً ايضاً ان المرأة الشرقية لا تملك الا الذلة والخنوع امام نزوات زوجها واهوائه، فالواقع انها تستطيع ان تشتكيه إلى أهله أو أهلها. وأن تشتكيه عند القاضي . وفي النساء – كما في كل انحاء العالم – من تستطيع أن تستخلص حقها بنفسها . واني اعرف صديقة في السادسة عشرة من عمرها رضيت بالزواج من احد اقاربها ممن يكبرها في العمر كثيرا، وكان من دأب هذا الرجل ان يقضي نهاره وجل ليله خارج بيته مطلقاً لنفسه عنان الشهوات والاهواء، وقد وسوس له

الشيطان ان زوجته الجديدة لن تملك من الامر شيئاً الا الصبر والاحتمال، ولذلك فقد فوجىء مفاجئة قوية حين عاد في احدى الامسيات إلى داره ولم يجد فيها زوجه وانما وجد منها رسالة شديدة اللهجة . وكان من عادتي ان أزور هذه الصديقة في أي وقت اشاء ودون خبر مسبق لعلمي بغياب زوجها المستمر عن الدار بحثا عن اللذات والنزوات، الا أنها زارتني يوما وطلبت مني ان اخبرها بمواعيد زياراتي مسبقاً لان زوجها لم يعد يفارق الدار الا إلى عمله في النهار ولساعات قليلة ولما سألتها مندهشة عن سر هذا التحول المفاجىء اخبرتني بالقصة وقالت انه لما قرأ الرسالة لحق بها في دار اهلها نادما وطلب منها الرجوع ولما رأى اصرارها وعزمها على الرفض اعتذر منها ووعدها بتحسين سلوكه ... وقد فعل .

ولا بد لي ان أروي قصصا اخرى عن حرية المرأة واستقلالها .

ان العادة الجارية في بلادنا اذا ما التقى الزوجان ان يقبل كل منهما يد الثاني. وان يتناولا طعامهما مع اطفالهما، وتقدم المرأة بين ذلك بعض الاعمال الودية الطفيفة لزوجها، كأن تسقيه الماء اذا ما طلبه أو ان تعطيه سلاحه عند الخروج أو تخلعه عنه عند العودة . وهذه الأعمال الطفيفة تؤديها المرأة من تلقاء نفسها ودون ما طلب من احد او اكراه عليها ولكنها على تفاهتها تشيع الود والبهجة والرضى بين الزوجين.

أما الاعمال البيتية فالحكم المطلق فيها للمرأة وليست هناك ميزانية مخصصة للمصروف البيتي وانما ينفق الرجل ما تطلبه المرأة، وحتى اذا كان للرجل زوجتان او اكثر فلكل منهن بيت منفرد تستقل بأدارته وحدها . اما الحد الذي تستطيع فيه المرأة ان تحافظ أو تزيد من امتيازاتها البيتية فأمر موقوف على شخصية المرأة وطباع الزوج، ومقدار التفاهم والانسجام بينهما . واذكر انني اقمت مرة دعوة عامة للسيدات في مزرعتي، ولكني لاحظت كثرة الغائبات عن الدعوة وعلمت ان السبب في ذلك هو عدم توفر وسائل الركوب . وهنا عرضت على احدى صديقاتي ان ترسل حميرها وبغالها مع الخدم لنقل المدعوات . ولما سألتها ان

تستأذن زوجها في الامر أولا اجابتني بأدب ولكن بشكل قاطع بان تقرير مثل هذه الأمور يعود اليها فقط، وانها لا تستأذن زوجها فيها .

واذكر ايضا صديقة اخرى من صديقاتي في زنجبار حققت لنفسها استقلالا أوسع في تدبير امور البيت والتجارة فقد سلم لها زوجها بادارة مزارعه واملاكه فتولت ذلك ودبرته خير تدبير بحيث لم يعد يتدخل في شيء بل ولم يعد يدري شيئاً عن الريع أو الايجار أو الدخل، ولم يكن يستنكف ان يأخذ منها مصروف يومه . وقد كان من حسن تدبيرها ووافر نشاطها ان اصبحا من اثرياء البلد المعدودين .

ومن حسن حظ المرأة العربية ان تربية الاطفال تقع على عاتقها وتتولاها بنفسها، سواء كانت زوجة ام أمة . ففي حين تضطر المرأة الانجليزية إلى اخذ اطفالها إلى دور الحضانة كل صباح، وفي حين تضطر المرأة الفرنسية إلى ارسالهم إلى الارياف حيث يتولى العناية بهم اناس اغراب عنها، فأن المرأة العربية تتولى اطفالها ببالغ عنايتها المستمرة، فهي التي ترضعهم وترعاهم وتراقبهم في اللعب والأكل ولا تدع احدا منهم يغيب عن ناظريها حتى يشبوا عن دور الطفولة حيث تجني بعد ذلك جزاء تعبها ثمارا حلوة من الحب العميق والاحترام الصادق بينها وبين بنيها، وفي هذا ما يعوضها بعض الشيء عن آلام تعدد الزوجات .

ولو قدر لاحد ان يشهد علائم السعادة والابتهاج في نفوس النساء الشرقيات وعلى وجوههن لايقن في الحال ببطلان الاشاعات الكاذبة عن بؤس الشرقيات وذلهن وغير ذلك من نعوت العطف والرثاء او الزراية والاستخفاف . ومرد هذه الاحكام ـ هذا اذا احسنا الظن بنيات اصحابها ـ هو النظر السطحي السريع، في حين ان الحكم الصحيح على الاحوال الاجتماعية يتطلب النفاذ إلى بواطن الامور واصولها وهذا لا يتأتى في زيارة عابرة لا تدوم ـ ان طالت ـ الا بعض اجزاء الساعة .

وعلى الرغم مما يشتهر به العربي من حب الضيف وكرم الوفادة فانه ينفر ممن يحاول التصمل على دخائل حياته واسرار بيته . وخاصة اذا كان هذا المتطفل

اجنبيا عنه في الجنس والعقيدة واللسان . وكثيراً ما كنا نستقبل في بيوت السلطان بعض الزائرات الاوربيات . فكان الحديث مع الواحدة منهن يقتصر على غرائب الازياء والثياب، فثيابها غريبة علينا وثيابنا مصدر العجب والدهشة لها ثم نقدم لها اطايب المأكول والمشروب حسب ما تقتضيه الضيافة العربية وبعد ان يرش عليها الخدم ماء الورد تودعنا محملة بهدايا الوداع كما هي العادة، وتخرج منا وهي ليست اكثر علما باحوالنا وطباعنا منها حين دخلت علينا، فهي قد كانت في قصر الحريم وانها شاهدت البائسات المحجبات من نساء القصر، وانها أعجبت بلباسنا الغريب وحلينا النفيس وقدرتنا على التربع على الارض بخفة ورشاقة ... وليس اكثر من هذا . وحالها حال الاخريات ممن سبقنها أو جئن بعدها . فهي لم تتبسط في الحديث معنا ولم تنفذ إلى دخائلنا ولم تر من البيت غير مكان الا ستقبال الذي قادها الخدم اليه وأخذوها منه . فكيف يصح لزائرة مثل هذه ان تدعي العلم ببواطن الامور والنفاذ إلى دخائلها ومن ثم اصدار الاحكام عنها ؟

• • •

ولا بد لي من الاشارة إلى مظهر آخر من مظاهر الحياة الزوجية في الشرق قد يستغربه القراء في هذه البلاد، وهو ان الفتاة لا تفقد في الزواج اسمها العائلي ولا مستواها الطبيقي، فزوجة الأمير ان كانت من ابناء الشعب لا تحلم في أن ترتفع إلى منزلة زوجها، فرغم رابطة الزواج بينهما تظل هي « فلانة بنت فلان » . وتظل تدعى بهذا الاسم . ومن جهة اخرى فاذا زوج احد الامراء او احد الشيوخ ابنته او اخته إلى احد خدمه، – ونادرا ما يحدث هذا – فان نظرته اليه لا تتغير فطالما كان الرجل عبده فسيظل عبدا لابنته كذلك . ومع ان الرجل لا يظل عبدا بالمعنى الصحيح فانه يظل بحكم العادة ينادي زوجه بصاحبة السمو أو « ستي » ومن العادات العريقة كذلك ان الرجل اذا ما جاء في حديثه على ذكر زوجته – وهو ما يفضل عادة ان يتجنبه كلية امام الرجال – فانه لا يدعوها زوجتي وانما يشير اليها على انها « بنت فلان الفلاني » أو أم العيال سواء انجبت منه ام لم تنجب .

وكما يحدث في كل انحاء العالم وعلى مر العصور، فقد يتعذر الوفاق بين طبائع الزوجين وينجم الخلاف والشقاق بينهما ويغدو استمرار حياتيهما معا صعبا او مستحيلا، فيلجئان إلى الانفصال بالطلاق، وهنا تتجلى حكمة الطلاق في الشريعة الاسلامية. فمن الاسلم والافضل – دون شك – ولأي زوجين تباينت طباعهما واختلفت مشاربهما ان ينفصلا بهدوء وسلام من ان يظلا طول حياتهما مكبلين بأغلال زوجية تعسة بائسة تعود على كليهما بالنكد والشقاء وقد تدفع بهما إلى أعمال تخالف الاخلاق أو القانون.

والطلاق في الاسلام يبيح للمرأة ان تستعيد لنفسها كل ما تملك وتبقى حرة التصرف دون قيد أو رقيب. واذا طلب الزوج الطلاق فللزوجة ان تحتفظ بكل هدايا العرس وجهازه ولكنها تفقد هذا الحق ان جاء طلب الطلاق من جانبها.

وبعد فأرجو ان يكون في كلامي هذا ما ما يثبت ان المرأة الشرقية ليست ذلك المخلوق المظلوم المضطهد البائس الذي لا حول له ولا مقام في الحياة كما يحاو للناس هنا ان يكرروا ذلك دوما. وليس ادل على بطلان قولهم من النماذج التالية لبعض نسائنا. وأول مثل هي زوجة ابي عزة بنت سيف، فقد كانت لها السيطرة التامة على السلطان السيد سعيد فما من شأن من شؤون البيت أو الحكم أو السياسة الا وخضع إلى رأيها وهواها، وما كان احد من أهل بيته يستطيع ان يطلب من السلطان شيئاً ان لم يتقدم بطلبه اليها أولا وينال موافقتها عليه، وقد ظلت لها الكلمة العليا دون منازع طيلة حياة زوجها السلطان.

ويحضرني الآن مثل آخر هي ابنة احد الضباط العمانيين التي جاءت واستقرت مع زوجها في زنجبار، وكانت قارصة اللسان حاضرة البديهة كثيرة المزاح والتنكيت وافظع من هذا كله فقد كانت على جانب من القبح مخيف ولكنها مع هذا كله كانت سليمة الطوية متينة الخلق، وكان زوجها، دون شك متيما بحبها ولها بها، فكان يتقبل نزواتها واهوائها بصبر أيوب، وكان، مكرها ام راضيا – لا ينفك عن مرافقتها إلى كل مكان تذهب اليه لا يوفر لنفسه وقت فراغ أو راحة حتى غدا وكأنه عبد لها.

وفوق هذا وذاك فهناك شخصية اخرى تنفي كل الأوهام الشائعة في الغرب عن « تفاهة » المرأة الشرقية، وهذه الشخصية هي عمة ابي التي ما زالت حتى هذا اليوم مضرب المثل في الدهاء والشجاعة والهمة. فقد ترك جدي حاكم عمان وامام مسقط عند وفاته اولادا ثلاثة هم ابي سعيد وعمي سالم وعمتي عائشة، وكان ابي هو الوارث للعرش[1]. ولكنه لانه لم يكن قد اتم التاسعة من عمره بعد، فكان لا بد من تنصيب وصي عليه، ولكن عمته – وخلافا لكل السوابق – اعلنت انها ستتولى بنفسها حكم البلاد والوصاية على ابن اخيها حتى يبلغ سن الرشد ويتولى شؤون الملك. وقد صدم هذا القرار المفاجىء رغبات الوزراء الذين الذين كانوا يريدون استغلال صغر سن ابي وضعفه للاستيلاء على السلطة واستغلالها لمصالحهم الخاصة، ولكنهم على كل حال لم يجدوا في نهاية الامر بدا من الطاعة والخضوع وصار عليهم ان يفدوا إلى ديوان الأميرة الوصية كل نهار ليرفعوا اليها تقاريرهم عن شؤون البلاد ويتلقوا اوامرها حولها، وقد أمسكت الامور بقوة وحزم – وراقبت الاشخاص والأشياء بعين يقظة ساهرة وكان الويل كل الويل للمخاتل أو الكسلان من رجال الحكم والادارة. وقد نبذت قيود العرف فكانت تكتفي بوضع « الشيلة » على كتفها حين تجالس وزراءها وتناقشهم في الشؤون العامة غير عابئة بكلام الناس ونقدهم فقد كان همها وتصميمها ان تنجز مهمتها بنجاح واخلاص.

ولم يمض على توليها شؤون الوصاية الا وقت قصير حتى تعرضت شجاعتها لامتحان عسير، فقد نشبت في البلاد ثورة هوجاء، وهو امر مع الأسف كثير الحدوث في عمان، فقد نهض فرع من عائلتنا يريدون اغتصاب الحكم لانفسهم وقد خيل اليهم لصغر سن ابي وخلو مركز الوصاية الا من سيدة، انهم بالغون اربهم بسهولة ويسر. وفعلا فقد جمعوا الجموع واكتسحوا البلاد بالحديد والنار واعملوا السيف في رقاب من قاومهم من السكان حتى وصلوا في زحفهم إلى مسقط وضربوا حولها الحصار. وكانت مسقط منيعة التحصين كثيرة السلاح ولكنها

---

(١) لم يكن السيد سعيد الوارث الشرعي لأبيه فقد كان أخوه سالم اولى بذلك لانه الاكبر سنا وانما اختير السيد سعيد لنباهته وذكائه ولترشيح السيدة موزة له. انظر ص ١٨ من مقدمة المترجم.

تفتقر إلى العتاد الحربي وكانت ايضا قد امتلأت يوم ذاك باللاجئين اليها فرارا من زحف الثوار وتنكيلهم او طلبا للأمان والنجاة فيها، فاشتدت الحاجة إلى الطعام وما نفع الجدران السميكة والحصون العالية اذا ما شح الطعام ونفد العتاد ! !

وهنا كشفت الاحداث عن معدن هذه السيدة : حكمة في الرأي وصلابة في التصميم ونشاطا في العمل حتى كسبت اعجاب الاعداء انفسهم . ولم تكتف بتدبير الامور من بعيد بل كانت تشرف من كثب على التنفيذ بنفسها، فكانت تركب وحدها كل ليلة متنكرة بلباس الرجال لتتفقد احوال الحاميات النائية المتاخمة لمراكز العدو وكثيراً ما كادت ان تقع في اسره لو لم تنقذها اصالة فروسيتها وسرعة حصانها . وقد خرجت ليلة ما، وكانت حزينة منقبضة النفس، فقد سمعت ان العدو قد لجأ إلى الرشوة والمال يستميل بهما المدافعين عن حصون المدينة بغية احتلالها بالحيلة والخداع بعد أن عجزت قوته وجيوشه عن ذلك، فذهبت بنفسها تريد ان تمتحن ولاء ضباطها وجنودها، فالتقت هناك، وكانت متنكرة بلباس الرجال بضابط احد المواقع المهمة وحاولت باعتبارها من « رجال » العدو اغراءه بالمال والوعود على أن ينفض يديه من الإميرة الوصية وينضم إلى معسكر الثوار . لكن غضبة الضابط الشهم وغيظه افرحتها وردت اليها معنوياتها، وان كان الحادث كاد ان يكلفها حياتها على ايدي اتباعها باعتبارها من جواسيس العدو ولو لم تكشف لهم عن هويتها .

وازدادت محنة مسقط واشتد البلاء عليها باشتداد الحصار وإحكامه فقد نفذ الطعام وانتشرت المجاعة وانقطع الامل في أي عون يصل إلى المدينة من الخارج وران عليها جو من الكآبة واليأس، وهنا قررت الأميرة ان تقوم بهجمة اخيرة لفك الحصار فتموت ميتة كريمة بدل ان تستسلم . وكان لديها من البارود ما يكفي معركة واحدة، ولكن لم يكن عندها معه الحديد اللازم . لذا فقد أمرت ان تجمع جميع المسامير في البلد، تخلع من الابواب والصناديق ومن كل شيء وان يجمع الحصى بالحجم المناسب ايضاً ليكون حشوا مع البارود لقذائف المدافع والبنادق . كما جمعت كل ما هو مصنوع من الحديد أو الرصاص أو النحاس في

البلد وصهرته إلى قذائف وطلقات وقنابل، لم توفر دون ذلك شيئاً، حتى الدولارات الفضية في خزائن القصر صهرتها طلقات للبنادق. وتم الامر بسرعة ونشاط وبعد ان تيسر لها هذا القدر من العتاد بدأت بالهجوم المنتظر وكان النجاح حليفها فيه. فقد اخذ العدو على حين غرة فتفرقت جموعه في كل جهات الارض مولية الادبار بعد أن ترك خلفه نصف جيشه بين قتيل وجريح وأسير... وسلمت مسقط! وعادت البلاد جميعها إلى حكم الأميرة دون منازع واستمرت في تنظيم البلاد وادارتها حتى بلغ ابي سن السابعة عشرة فتسلم منها الحكم، وكان من اثر حسن ادارتها واستقرار البلاد ان استطاع ابي ان يوجه انظاره إلى فتح اقطار جديدة وكان منها زنجبار، فنحن ندين إلى هذه الأميرة الكريمة بفضل وجودنا في زنجبار[1].

وكانت عمة أبي هذه امرأة شرقية !!.

(١) لا شك ان السيدة المقصودة في هذا الكلام هي السيدة موزة بنت الامام وعمة السيد سعيد والتي تولت الوصاية على ابن أخيها عام ١٨٠٤ واستمرت ذا أثر فعال في السياسة وتسيير الامور حتى عام ١٨٤٠. ولعل المؤلفة تشير في قصتها إلى احداث عام ١٨٣٢.

وهناك امرأة اخرى تستحق الذكر وهي جوخه بنت محمد بن الامام، استطاعت ان تثور على ابن عمها السلطان انتصارا لأخيها السجين. أنظر المقدمة ص ٢٧ وما بعدها.



نساء ينقلن الماء

الفصل السادس عشر

الخطوبة والزواج في بلاد العرب

عزلة الجنسين عن بعضهما في الشرق وضعت على الأب أو رب العائلة تبعة تزويج بناته، وليس هذا بالأمر المستغرب، فغالبا ما يحدث مثله في أوربا حيث حرية الاختلاط بين الجنسين على أوسع نطاقها . وفي العالمين، الغربي والشرقي قد يقدم الأباء على هذا العمل بنية حسنة وبشعور في المسؤولية كما قد يكون الأباء هناك أو هنا قساة القلوب أو أنانيين لا يكترثون لسعادة ابنائهم ومستقبلهم، فيتعسفون في استعمال حقوقهم بما يعود على ابنائهم بالضرر والتعاسة والشقاء . فكم من رجل مبذر متلاف لا يجد وسيلة للفكاك مما ركبه من الديون الا بتضحية ابنته وتزويجها لدائنه، وكم من أم انانية فاجرة دفعت بأبنتها إلى زواج فاشل لمجرد الرغبة في ازاحتها عن طريق ملذاتها وفجورها .

لكن الناس في الشرق على العموم لا تنظر إلى قيام الأب بتزويج ابنته نظرة الشك والريبة ولا يرون في مثل هذا العمل تعسفاً في استعمال السلطة الأبوية بل انهم ينظرون اليه على انه أمر واجب على الأباء لا مفر منه تضطرهم عليه الظروف الاجتماعية السائدة في البلاد أي عزلة النساء واحتجابهن عن الرجال .

ومع ان النساء في الشرق يعشن في عالم ضيق خاص وفي عزلة تامة عن عالم الرجال وفي حجاب تام عنهم لا يرين ولا يكلمن الا النفر القليل من محارمهن، أي أقرب القربى اليهن وبعض خدمهن ومع ان القاعدة العامة السائدة ان الخطيبين لا يرى ولا يكلم احدهما الآخر الا في ليلة الزفاف، فالواقع ان الحجاب لا يمنع دوما الاتصال والتعارف بين الجنسين، فالفتاة تستطيع ان ترى خطيبها من

نافذة غرفتها كما يستطيع الشاب أن يلمح خطيبته عرضا . وعلى كل حال فان كلا من الخطيبين لا يبقى جاهلا كل الجهل بشؤون الخطيب الآخر ، فالامهات والاخوات والعمات والخالات يتنافسن في نقل اخبار كل من الطرفين إلى الطرف الآخر وفي المبالغة وفي وصف محاسن كل منهما للآخر .

وقد يكون الخطيبان من اصدقاء الطفولة والصبا ، فالبنات يخالطن الصبيان ويلعبن معهم حتى يفرض عليهن الحجاب عند بلوغهن التاسعة من اعمارهن . فلا يستبعد أن يعود رفيق الصبا بعد سنوات قليلات فيطلب يد رفيقته في لعب الطفولة البريئة بعد ان تكون امه او اخته قد مهدت له السبيل مع الفتاة نفسها .

ومهما تكن وسيلة التعارف والاتصال ، فان طلب يد الفتاة يتم عن طريق ابيها او ولي أمرها ويفترض في الخطيب او يجب عليه أن يتظاهر بانه لم يسبق له ان رأى أو عرف زوجته المقبلة ، ولذلك فان اول سؤال يوجهه الاب لمن يتقدم بطلب يد ابنته هو :

وكيف تيسر لك ان ترى أو تعرف ابنتي ؟

والجواب التقليدي في مثل هذه المقابلة ومهما كانت حقيقة الحال هو :

اني لم أتشرف بروية أو معرفة ابنتكم المصونة ولكن أهلي وقريباتي حدثني عن كامل أوصافها وحسن اخلاقها .

• • •

ولا يقابل بالرفض القاطع ومن اول مرة عادة ، الا غير المرغوب فيه نهائياً . والا فالعادة جرت ان يطلب الأب من الخطيب مهلة من الزمن للتفكير في الامر .

ولا يفاتح ابنته او زوجته بالموضوع بل يظل يرقب الامور ويرصدها في داره ليكتشف ما اذا كانت الانباء قد سبقته إلى الدار .

ثم يختلي بابنته وزوجه ويعلن لهم عن عزمه على اقامة حفلة عشاء لبعض اصدقائه ويبدأ بتعداد اسماء هؤلاء الاصدقاء المدعوين إلى حفلته ثم يدس بينهم اسم الخطيب او ابيه ويدقق النظر وهو ينطق باسمه في وجهي زوجه وابنته

ليرصد رد الفعل لديهما، فاذا لمح علامة رضى وسرور على وجه البنت أو أمها علم بان النساء من خلفه قد اكلن الصفقة ولم يبق له الا الحفاظ على المظاهر، وعندئذ لا يتحرج من اخبار ابنته ان فلاناً الفلاني قد طلب يدها وان الامر موقوف بكليته على قرارها النهائي.

ويتبنى الاباء فعلا – الا القساة منهم – ما تقرره بناتهم في هذا الموضوع من رفض أو قبول.

وكذلك كان الشأن مع ابي فقد كان يترك لبناته حرية تقدير مستقبلهن. ومن شواهد ذلك ان اختي الكبرى زينة كانت في الثانية عشرة من عمرها حين تقدم لخطبتها سعود، احد ابناء عمومتنا الابعدين، ومع ان السلطان لم يكن راغباً في هذا الزواج لصغر سن الفتاة فانه لم يشأ ان يقطع في رفض طلب الخطيب الشاب الا بعد استشارة الفتاة نفسها. وكانت زينة قد فقدت امها من وقت قريب، ولم يكن لها في بيت الموتني من يرعاها او يعطف عليها، وكانت تحس بالوحدة والوحشة، لذلك فقد رحبت بالزواج وفوجىء ابوها السلطان بموافقتها ولكنه لم يملك الا ان يرضى برأيها ولو على مضض.

وقد يحدث في بعض الاحيان ان تتم الخطوبة وحتى الزواج في سن مبكرة جدا. واذكر في هذا الصدد ان اثنين من الاخوة في زنجبار، رزق احدهما بولد والثاني ببنت – قد قررا ربط ابنائهما بالزواج ولما يبلغ الولد سن السابعة عشرة من عمره والبنت عامها السابع. وكنت جارة لهما في مزرعتي، فجاءت الي ام الولد تشكو من عناد زوجها واخيه واصرارهما على فرض هذه العروس الصغيرة عليها وتحميلها مسؤولية تربيتها والعناية بها. اما ام البنت فكانت مصيبتها بخسارة وحيدتها الصغيرة وفي هذا السن الغض مصيبة لا تعوض، وقد اتفقت السيدتان على القيام بمسعى موحد لتأجيل الزواج سنتين على الاقل.

ولا أدري ما تم بالأمر بعد ذلك لاني تركت زنجبار بعد هذا الحادث بأمد قليل.

• • •

واذا ما تمت الخطبة انطلقت خادمات بيت العروس وهن في ابهى حللهن وزينتهن يطفن على بيوت الاهل والمعارف ليعلن خبر الخطبة ويوزعن الدعوة إلى حضور حفلة عقد القران وليقبضن مقابل هذه البشائر ما تيسر من الهدايا والنقود .

ولأن فترة الخطبة لا تدوم اعتياديا اكثر من شهر او بضعة اسابيع ، لهذا فما ان تعلن الخطبة حتى تبدأ الاستعدادات لحفلة الزفاف، فينقلب بيت العروس إلى خلية نحل كبيرة ومركز عمل مستمر .

ومتطلبات العرس في جنوبنا السعيد اقل وابسط مما هي عليه في اوربا . فالعروس الجنوبية لا علم لها بالكثير من الامور التي تراها العروس الغربية احتياجات ضرورية ، ولربما تصعق الفتاة الشرقية لو قدر لها ان ترى جهاز العروس الاوربية .

وصداق المرأة العربية قليل نسبيا . فهو يتألف حسب مقام العروسين ومقام اهليهما، وهو في كل حال لا يخلو من الملابس والحلل وبعض العبيد من الجنسين وبعض الدور والمزارع وشيء من النقود الذهبية . هذا عدا عما ينصب على العروس من الهدايا من افراد عائلتها وعائلة زوجها ومن الاقارب والاصدقاء ويكون كل هذا ملكا خالصاً لها .

وملابس النساء في كل مكان وزمان هي شغلهن الشاغل، وتستعد الفتاة لايام العرس بكمية منوعة كافية من الملابس . فالمفروض في العروس ذات اليسار ان تغير ثيابها مرتين او ثلاث مرات في اليوم خلال الاسبوع الاول من الزواج وان تستمر في تحري الاناقة والنظافة بعد ذلك ايضاً . ويشمل التغيير في كل حالة كل قطعة من قطع اللباس من قمة رأسها حتى اخمص قدميها . ويترك للعروس حرية اختيار انواع الثياب والوانها وغالبا ما تأتي الوانها خليطا من الالوان المختلفة التي لا تزدريها العين ولا يمجها الذوق .

وتلعب العطور دورا بارزا في عمليات الاستعداد للعرس، بل وفي حياة المرأة الشرقية عامة . والعطور الشرقية على انواع اهمها « الريحة » وهو دهن للشعر غالي

الثمن ويتكون من خشب الصندل المطحون والمسك والزعفران مخلوطا بدهن الورد، وتستخرج العطور من الورد والياسمين والنباتات العطرية، كما تستعمل انواع البخور لتعطير الجو والمكان واغلى انواع البخور وافخرها هو «العود» ويصنع من خلط خشب الند والمسك والعنبر.

ومن العادات الغريبة في مراسم العرس في الشرق عادة توجب على العروس ان تقضي اسبوعها الاخير في دنيا العذارى في غرفة مظلمة تتخفف فيها من جميع ملابسها الا من قميص خفيف ترتديه ساعات محدودات من النهار فقط وذلك على افتراض ان هذا الحبس الاختياري يجعلها تبدو أنضر عودا وأرق بشرة في الساعة الموعودة. وفي هذا الاسبوع والاسبوع الذي قبله تكون العروس عرضة لزيارات كثيرة متعددة من اناس لم تسمع بهم من قبل او لم ترهم منذ زمن طويل، وعلى رأس هاته الزائرات مربياتها اللواتي لم تقع عينها عليهن منذ سنين وسنين. والخدم والخادمات الذين خدموها طيلة حياتها. وكلهم يأتونها لتهنئتها وانتظار العطايا والهدايا. ولا يتأخر رئيس الخصيان، ذلك المارد الذي حلق لها شعرها في اليوم الاربعين من عمرها عن زيارتها وتذكيرها بالخدمة التي أداها لها في ذلك اليوم التاريخي الاغر، والطريقة الرائعة التي انجز فيها مهمته تلك بكل دقة واتقان، والتي لولاها لما ظلت على قيد الحياة لتشهد هذا اليوم السعيد. ثم لا يخرج منها الا محملا بأفخر الهدايا واغلاها كالساعات الذهبية والأقمشة الحريرية وما اشبه.

ورغم ان العريس احسن حظا من عروسه من حيث عدم خضوعه للحبس الاختياري او امتحان الجمال، الا أنه لا يختلف عنها من حيث وجوب تقديم الهدايا للزوار والطارقين من كل من سبق ان قام له او لعروسه بخدمة ما يوماً ما.

ويمكث العريس في داره في الأيام الثلاثة السابقة ليوم الزفاف ليستقبل الاصدقاء والمقربين وليتبادل الهدايا والاخبار وترتيبات الزفاف مع عروسه عن طريق الاهل والخدم.

ثم يأتي اليوم الموعود، يوم عقد القران. وتتم مراسم عقد القران مساء في بيت احد العروسين وليس في المسجد كما هو الشائع، ويقوم بها قاضي المدينة او ينوب بها عنه احد رجال الدين او من عرف في الجماعة بالورع والتقوى.

واظرف ما في هذه المناسبة ان « بطلة الرواية » لا تظهر على المسرح. ابدا، وكيف لها أن تظهر في مجتمع الرجال، وانما تنيب عنها اباها أو أخاها أو قريبا من اقاربها فان لم يكن لها احد منهم حضرت بنفسها ملتفة بعباءتها بحيث لا يرى منها شيء البتة إلى غرفة خالية ثم يدخل عليها القاضي والعريس وبعض الشهود. وبعد ان تجمجم ما يفيد قبولها بالزواج بكلمات متقطعة وصوت خفيض لا يسمع، يخرج القاضي ومن معه من الغرفة ليتيحوا للعروسة مجال الخروج منها والعودة إلى غرفتها، في حين يحيي الرجال تلك الليلة في حفلة عشاء ضخمة يقيمها العريس بهذه المناسبة.

وعقد القران لا يعني بالتبعية الزواج المباشر، بل قد يتأخر ذلك يومين او اكثر. وفي ليلة الزفاف تتحلى العروس باحلى زينتها واكمل حليتها ثم يأتي اهل العريس من رجال ونساء ليزفوها إلى بيتها الجديد الذي تتحرك اليه في حاشية من نساء قومها في حوالي الساعة التاسعة أو العاشرة مساء.

وحين تصل بيت الزوجية الجديد يستقبلها العريس واهله وينثروا بين قدميها النقود والحلويات ثم يأخذونها إلى غرفتها الخاصة، وبعد ان تستقر هناك تستأذن النسوة منها بالانصراف ليذهبن إلى صالون البيت حيث تجري الافراح ثلاث ليال.

ولا تخلو اللحظات الاخيرة من قواعد صارمة واجبة الاتباع، فبعد انصراف النسوة يدخل العريس الغرفة على عروسه وتقضي الاصول ان تنهض الفتاة لاستقباله الا اذا كانت أعلى منه مقاما فانها تستقبله جالسة في مقعدها، وعلى أي حال فان العروس لا تكلم زوجها وانما يجب أن يبدأها هو بالتحية والكلام، وان يرفع عن وجهها البرقع السميك الثمين الذي ما يزال يغطي وجهها، ليتسنى له ان يرى ذلك الوجه وربما لأول مرة واظهارا لاعجابه بوجه العروس وترضية لها عن رفع برقعها فلا بد من هدية بهذه المناسبة تكون عند فقراء الناس بضع دريهمات ولكنها عند أغنياء القوم حفنات كبيرة من الذهب والفضة.

• • •

واحتفالاً بليلة الزفاف أو بالزواج فان اب العريس يفتح ابواب بيته في دعوة

عامة يحضرها الاهل والاقارب والاصدقاء والمعارف بل وكثير من الغرباء ايضاً، ويحتفى بهم جميعاً على قدم المساواة .

وتستمر الافراح والليالي الملاح هذه اياما قد تقصر إلى الثلاثة فقط وقد تطول الى الاسبوعين . ينعم الجميع فيها بالحبور والمرح والانشراح .

وصحيح ان النبيذ والمسكرات جميعها لا وجود لها في مثل هذه المناسبات لان المذهب الأباضي الذي تنتمي اليه يحرمها بل ويحرم التدخين ايضا، الا أن القوم لا يعدمون وسائل أخرى للهو والسرور فعدا عن الاكل المتنوع الوفير فان العبيد يطوفون على الضيوف بانواع من عصير الفواكه وشربة اللوز . ويمتع الضيوف انفسهم بالاستماع إلى الغناء او المشاركة في رقصات الحروب او الاستماع إلى رواة القصص والحكايات، في جو عابق بالبخور والعطور .

ونحن في الشرق نجهل جهلا تاما رحلات شهر العسل، وانما يختلي العروسان في بيتهما اسبوعاً او اسبوعين لا يقابلان احدا، ثم يخرج بعدها الرجل إلى عمله وتبدأ المرأة تستقبل مساء كل يوم المهنئات من أهلها وصديقاتها، ثم تعود الحياة طبيعية يوما بعد يوم .



ساقي القهوة العربية

الفصل السابع عشر

زيارات النساء ومجالس الرجال

كررت القول فيما سبق عن تبادل الزيارات بين النساء واننا نستقبل الصديقات في بيوتنا كما ونرد لهن الزيارة في بيوتهن . ويروق لي الآن ان أصف أجواء هذه الزيارات وما يتخللها من مراسم ومجاملات.

والإخبار المسبق بالزيارة هو اول المراسم الواجبة في هذا الصدد . فنحن لا نعرف الزيارات المفاجئة وانما يجب علينا حين نرغب في زيارة صديقة ما ان نبعث لها بخادمتنا لتخبرها خبر الزيارة ووقتها .

وتتزين النساء في هذه الزيارات باحلى زينتهن ويضعن عليهن اجمل فساتينهن لا اكراما للصديقة المراد زيارتها فحسب، بل اظهاراً لذوقهن واناقتهن وافتخارا وتباهيا بجمالهن وحسنهن كما هو دأب النساء في كل مكان .

على أن المرأة العربية لا تكشف عن وجهها حتى في داخل بيتها الا في القليل النادر وانما تحجبه طول الوقت بقناع يغطي مواضع الفتنة والاغراء، والقناع الذي تستعمله نساؤنا غير القناع الذي تضعه المرأة المصرية على وجهها وهو قناع كثيف قبيح الشكل كاتم للانفاس، فقناعنا يصنع عادة من الحرير الاسود وتطرز حواشيه بخيوط الذهب والفضة ويتكون من قطعتين تغطي الاولى جبهة المرأة فقط في حين تغطي الثانية انفها وبعضاً من خديها وتتدلى إلى فمها فرقبتها، اما سحر العيون فيبقى مكشوفاً مباحاً دون حجاب .

واذا كان المحل المقصود داخل المدينة ذهبنا اليه سيراً على الأقدام وان كان خارجها ركبنا اليه البغال أو الحمير .

والمسلمات يتجنبن الظهور في الشوارع في وضح النهار ولذلك جرت العادة ان يكون خروجهن في الصباح الباكر او بعد حلول الظلام . ولم تكن في أيامي في زنجبار شوارع مضاءة وكان على كل سائر في الطريق ان يؤمن وسائل الاضاءة لنفسه . وكنا نستعمل لهذه الغاية الفوانيس الكبيرة التي نتفنن في صنعها ونتنافس في حجمها وجمالها، حتى ان محيط البعض منها كان يصل إلى حوالي الستة اقدام، وكان اجملها صنعا ما كان على شكل الكنائس الروسية فيتوسطها قبة كبيرة ثم ثم تحيط بها اربع او خمس قبب صغار من الزجاج الملون التي تضاء جميعها بالشموع . وكان على السيدات الساعيات في ظلام الليل ان يأخذن معهن عددا من هذه الفوانيس يحملها العبيد الأقوياء في حين تكتفي النساء الفقيرات أو متوسطات الحال بمصباح واحد فقط .

والسيدات ذوات المكانة واليسار يرافقهن في ترحالهن عدد كبير من عبيدهن بكامل سلاحهم، لا لحمل المصابيح فحسب وانما للحماية وحفظ المظهر ايضاً وغالباً ما يخدع مظهر هؤلاء عن مخبرهم فرغم ما يثير منظرهم من التيه والخيلاء في نفوسهم، ومن الخوف والرعب في نفوس المارة، فانهم لسادتهم وسيداتهم مصدر الكثير من المتاعب والباهض من النفقات فعدا عما يكلفه لباسهم الزاهي وزينتهم الفاخرة وسلاحهم — وكله عدا البنادق والمسدسات — مطعم بالذهب والفضة فانهم يكلفون اسيادهم من المال فوق هذا بكثير ، ذلك ان هؤلاء الاوغاد لا يتورعون عن رهن سلاحهم عند أول هندي او بانياني مقابل دراهم معدودات تبيح له الحصول على جرعات قليلة من اليومبا (وهو نوع من النبيذ المحلي المصنوع من التمر)، وليس امام سيدتهم في مثل هذه الحال الا أن تعوضهم عن سلاحهم بسلاح جديد او ان تستعيد سلاحهم المرهون باضعاف امثال ثمنه، وكما يكون الخسار في الحالين من نصيب مولاتهم يكون العقاب بالجلد المبرح نصيبهم في الحالين ايضاً، ورغم قسوة هذا العقاب الصارم وما يتركه في جلودهم من آثار دامية فانه لا يصدهم عن معاودة ارتكاب الفعل نفسه مثنى وثلاثا وكلما طاب لهم الشراب .

ويتألف موكب السيدة ذات المقام العالي من عشرة او عشرين من هؤلاء العبيد

الضخام الاجسام المسلحين باحسن السلاح والحاملين فوانيس الاضاءة امام سيدتهم وبين يديها والتي يسير خلفها عدد من خادماتها بأحسن زينتهن وازهى ثيابهن . فاذا التقى هذا الموكب الضخم بآخر مثله لصديقة تريد نفس الاتجاه اندمج الموكبان في موكب واحد يسير نحو هدفه تتوسطه السيدتان الصديقتان وبأبهة أكبر وهيبة افخم .

واذا التقى هذا الموكب باحد المارة مهما علت مكانته أومأ له العبيد ليغير اتجاهه إلى اقرب شارع فرعي او زقاق او مجرد دكان، حتى يمر الموكب بعيدا عن انظار اصحاب الفضول، لكن قاعدة اخلاء الطريق لم تكن سهلة التطبيق في غير موكب سيدات العائلة الحاكمة، ومع حب الشرقي للجد والرزانة في كل حياته والحفظ الحشمة والوقار في الشوارع العامة فان مرور موكب فخم مثل هذا لا بد وان يكون مثار التعليق والمزح والتحرش من بعض الشباب مما قد يجر احيانا إلى اصطدامات خفيفة بينهم وبين عبيد الموكب يتفرج عليها الناس لاهين من سطوح منازلهم او نوافذ غرفها .

• • •

وحال وصول الموكب إلى البيت المقصود، يرتفع الخبر إلى ربة البيت بوصول الضيوف، والزائرات في الشرق لا يعرفن الانتظار المل حتى تنتهي ربة البيت من وضع آخر اللمسات في زينة وجهها او تسريحة شعرها بل يقودهن الخدم إلى غرفة السيدة المضيفة او إلى سطح المنزل النظيف البارد حيث يكون مجلس النساء في الليالي المقمرات الرائعات .

وتجلس ربة البيت على « المدة » وهو اريكة ترتفع عن الارض زهاء الست اقدام يمتد فوقها فراش طويل زاهي اللون مطرز بخيوط الذهب والفضة وتتكأ على وسائد مصنوعة من نفس قماش الفراش .

ولا تقضي المجاملات او العادات ان تخرج ربة البيت لاستقبال ضيفتها كما هو الشأن في هذه البلاد، بل انها لا تنهض من مجلسها الا اذا كانت زائرتها اعلى منها مقاما وارفع منزلة فتنهض لها دلالة المزيد من الاحترام والتوقير .

• • •

ويبدأ السلام بالقبلات والمصافحة . فالزائرة تقبل يد ربة البيت أو رأسها، أو وجنتيها او كتفها على حسب النسبة بالمكانة بين الاثنتين . أو أن يكتفيا بالمصافحة ان كانتا على منزلة متساوية، ثم تجلس الزائرة إلى جانب ربة البيت على « المدة » ان كانت صنواً لها او بعيداً عنها قليلا، والا فتجلس على الارض ان لم يؤهلها مقامها للجلوس العالي جنب ربة البيت.

وتتحلل الزائرة بعد جلوسها من الشيلة - اي العباءة - فترميها على كتفيها او خلفها، ولكنها لا تنزع عنها قناع الوجه او اي شيء آخر مما ترتديه الا حذاء القدم . فالقباقب الخشبية الجميلة التي ترتدي داخل البيوت يحل محلها عند الخروج احذية جلدية نفيسة الصنع، وهذه تخلع في باب الغرفة عند الدخول، وهذا امر واجب لا استثناء فيه حتى للسلطان نفسه، وعلى الخادمات الواقفات عند الباب تقع مهمة ترتيب هذه الاحذية المتشابهة بحيث تستطيع صاحبتها ان تجدها بسهولة عند الخروج . وهنا وفي هذه النقطة في الذات تطبق قواعد الاتيكيت بدقة متناهية فيوضع حذاء اعلى النساء الموجودات منزلة في الوسط ثم تحيط به احذية الاخريات على حسب درجتهن ومقامهن وعلى شكل نصف دائرة .

وبعد جلوس الزائرة بقليل تدار فناجين القهوة العربية، ثم الفواكه فالحلويات وتعاد هذه للجميع مرارا وتكرارا عند قدوم اي زائرة جديدة .

والالحاح على الزوار بالشرب أو الاكل غير مستحب، وغير مستحب أيضاً ان ترفض الزائرة كل ما يقدم لها .

• • •

ولا يطلب من ربة البيت ان تبدأ الحديث وتقوده وان تستمر فيه كما هي العادة المؤذية المصطنعة في اوربا . بل يترك الامر إلى الجالسات يتبادلن الحديث بحرية وعفوية عن أي موضوع يعن لهن .

ولان حياة المرأة الشرقية محدودة فان مواضيع الحديث تكون محدودة أيضاً، فليست هناك مسارح أو حفلات موسيقية أو حفلات استقبال ليعلقن عليها، كما أن الطقس في البلاد رائق رائع طيلة ايام السنة فليس فيه ما يصلح مادة

للحديث، لهذا يقتصر الحديث على الاخبار العائلية والامور الشخصية ثم عن شؤون الزراعة، فالزراعة مهنة غالبية ذوي اليسار في زنجبار . ويستمر الحديث في ود وصفاء وبشاشة وحبور تقطعه الابتسامات المشرقة أو الضحكات الصادقة لاننا نحن الشرقيات نحب الطبع المرح السعيد والصفاء والانشراح، اخذنا ذلك من سماء بلادنا الصافية وشمسها الساطعة التي تملأ الدنيا نوراً وحياة ومن طبيعتها السخية المعطاء التي تغدق علينا في العطاء فلا تدع لاحد مجالا للتفكير في الغد .

• • •

والنساء العربيات على العموم متحفظات كتومات امام الغريبات لكن حواجز الحيطة وفوارق العنصر والسن والجاه تزول بين الصديقات والمعارف . ولا استطيع ان انكر ان النساء الجنوبيّات اكثر من الشماليات ميلا نحو الحسد والغيرة والحقد، ولكنهن في نفس الوقت اذا احببن فهن في الحب والوفاء والاخلاص أعنف وأعمق وأصدق من رفيقاتهن الشماليات . ذلك ان القلب – بعواطفه وجموحه – هو المرشد والدليل هناك، في حين ان العقل بمنطقه الجاف الصارم هو المتحكم في الطباع في هذه البلاد .

ولا يجوز مطلقاً لرب البيت او ابنائه البالغين او أي رجل آخر، ان يدخل غرفة زوجه او امه او اخته حين وجود الضيوف لديها . ولا يستثنى من هذا القانون الصارم الا السلطان واقرب المقربين اليه . ولهذا فحين كنا نزور اخواتنا المتزوجات كان ازواجهن يبقون بعيدا عنهن حتى نرحل . واذا ما طرأ امر ما يستدعي ان يدعو الزوج زوجه او بالعكس، بعث أحدهم إلى الآخر احدى الخادمات يدعوها او تدعوه إلى اللقاء في غرفة ثانية .

ويستمر تطبيق هذه القاعدة حتى لو استمر بقاء الزائرات في البيت من الصبح حتى المساء وهو ما يحدث في بعض الأحيان . وهذا امر مزعج ولا شك، ولكن الشرقيين لا يحسون بوقعها وازعاجها ذلك لانهم نشأوا وشبوا على عادات وتقاليد معينة يعتقدون بصحتها وصوابها لانهم لم يتيسر لهم ان يشهدوا غيرها ليقارنوا بينهما ويكتشفوا ما في عاداتهم من خطأ او صواب .

ولا أستطيع بأية حال من الاحوال ان انكر ما في الكثير من عادات الشرق

من الترمت او التطرف، ولكن هل تخلو اوربا من امثالها ؟ فهناك العزلة التامة بين الجنسين وهنا الاختلاط والاباحة بينهما، وهناك التستّر والغطاء والحجاب في بلاد تبلغ الحرارة فيها اقصاها، وهنا في بلاد البرد والجليد نجد الصدور المكشوفة والسيقان العارية، ولهذا فانك تجد التطرف في كلا الجانبين وما منهما من استطاع ان يكتشف القاعدة الذهبية، قاعدة الاعتدال والتوسط بين الامور.

• • •

وتدوم الزيارة حوالي الثلاث أو الاربع ساعات، وحين يحين موعد الانصراف يجرى ايقاظ الخدم والعبيد من نومهم ليستعدوا لمسيرة العودة وبعد تبادل هدايا الوداع . تسمح المضيفة لزائرتها بالانصراف لتصل بيتها قبل منتصف الليل وهو آخر موعد لتأدية صلاة العشاء .

ويبدأ موكب السيدة الزائرة مسيرته قافلا كما جاء اول مره حتى تنتهي إلى بيتها واهلها .

• • •

«٢»

وكما أن للنساء مجالسهن الخاصة بهن فكذلك للرجال مثلها ولا شك، ولكنني لا أستطيع لها وصفا لبعدي عنها بسبب مركزي وجنسي . ولكنني استطيع ان اصف المجالس العامة او الرسمية للرجال وهو امر كنا نشهده يتكرر كل يوم في بيت الساحل .

• • •

من التقاليد القديمة الشائعة في زنجبار وجوب الحضور في حضرة السلطان مرتين كل يوم، الاولى في الصباح قبل الافطار والثانية بعد صلاة الغروب في المساء، حيث يحضرها الذكور من ابنائه ووزراؤه ومستشاروه وبقية موظفيه وحاشيته بل وكل من يرغب في السلام على السلطان او مكالمته في امر ما .

وتقع البرزة – وهي صالون الاستقبال – في الطابق الارضي من بيت الساحل في جناح قريب من البحر ويشرف على منظره الرائع بل وتغتسل جدرانه بمياه البحر في ساعات المد .

وبالرغم من سعة هذا المكان فقد كان يزدحم بالزوار دوما حتى يضيق بهم، وكانت البرزة كأي غرفة عربية تمتاز بالبساطة في البناء والآثاث، فهي لا تحوي الا السجاد الفارسي على ارضيتها والمرايا الكبيرة والساعات المنوعة على حيطانها . ولان العربي لا يسير الا ومعه عدد من الاتباع والحراس والمرافقين، فان هناك حوالي المائتين من هؤلاء الحراس المرافقين يملأون باحة القصر ومدخل البرزة والسعيد منهم من يجد له مكانا على مصطبة حجرية في مدخل البرزة ليستريح فيه في حين يظل الآخرون واقفين يتسكعون بسلاحهم الثقيل ينتظرون خروج اسيادهم أو رفاقهم من مجلس السلطان .

وكان منظر الوافدين إلى البرزة والمنتظرين خارجه فرجة وتسلية لنا فقد كان الرجال يأتون البرزة بكامل بزتهم، اي بالعمامة والجبة والحزام .

وحين يكون العربي داخل منزله فانه يضع على رأسه الحليق دوما، غطاء ابيض صغيراً مصنوعاً من خيوط القطن ومطرزاً بخيوط ملونة، ولكنهم في الخارج يعتمرون العمائم الكبيرة التي يحتاج لفها إلى دقة ومهارة خاصتين، قد يستغرق انجازها نصف ساعة او اكثر . ولهذا يحرص الرجل على رفع عمته بكل حذر وانتباه .

واذ لا يشترط ان يكون قماش العمامة من النوع الغالي، وهو في الواقع لا يكلف اكثر من خمسة او ثمانية دولارات، فان قماش المحازم يكلف اضعاف اضعاف هذا الثمن وقد يصل ثمنه إلى المائتي دولار . وهو من الحرير الكشميري الممتاز .

والرجل من علية القوم يمتلك عددا كبيراً من هذه المحازم وهو يغيرها بين الحين والآخر كما يغير الرجل الاوربي رباط عنقه . ولا يستثنى من ذلك الا الشيوخ الطاعنون في السن او رجال الدين الذين يكتفون بحزام واحد من الحرير الاسود أو الابيض .

ولا تكمل بزة العربي الا بالسلاح، وتقوم زوجة أو اخته بتسليمه اليه قبل خروجه من الدار كما سبق لي أن ذكرت ذلك من قبل.

• • •

وقبل أن يدخل الرجل حضرة السلطان يخلع نعليه بعيدا عن باب الغرفة، ويستطيع المراقب ان يحكم على طبقة الرجل ومكانته من طريقته في خلع نعليه، فالعامة من الناس يخلعونها بعيدا عن باب الغرفة في حين ان عليه القوم يخلعونها بعد ان يجتازوا بها عتبة البرزة. وهذه كما قلت من قبل عادة شائعة يتساوى فيها الجميع ويخضع لها الجميع عن طيب خاطر ودون ما شعور بالامتهان أو التحكم.

وحين تمتلأ البرزة بالزوار يظهر السلطان .وكان موكب السلطان ايام ابي يتكون اولا من صفوف من الحرس الزنوج ثم يليهم عدد من الخصيان برئاسة رئيس الخصيان ويتبعهم السلطان ويحيط به اولاده الكبار حسب أعمارهم ثم أولاده الصغار.

وعلى باب البرزة يصطف الحرس والخصيان صفوفا متراصة يخترقها ابي وابناؤه إلى داخل المجلس فيقف له الحاضرون تحية واجلالا ولا يجلسون الا بعد جلوسه اولا.

وتتكرر هذه المراسم عند مغادرة السلطان مجلسه ويمكث الزوار في المجلس مدة مكوث السلطان فيه، لكن اذا اراد احدهم الاستئذان من السلطان بالانصراف وكان من كبار القوم ورؤسائهم فان السلطان ينهض له ويمشي معه بضع خطوات قد تطول او تقصر حسب مقام الشخص في حين يقف جميع من في المجلس احتراما.

والقهوة تقدم عادة في المساء ولا تقدم في اجتماعات النهار الا نادرا. ويحق لكل فرد ان يتقدم إلى السلطان فيعرض له حاجته او ظلامته ويجيب السلطان عنها شفاها، فاما ان يأمر بقضائها او يحيلها إلى القاضي أو أحد الحاشية لدراستها واعلامه بحقيقتها، ويجرى كل هذا شفاها دون اللجوء إلى وثيقة او قرطاس.

وتستمر الجلسة ساعتين او ثلاثا ثم ينفض المجلس ويغادره السلطان في نفس

الموكب الذي وصل به اليه . وتوجل بقية القضايا إلى الاجتماع القابل في مساء نفس اليوم او في صباح اليوم التالي .

والحضور اختياري لأولاد السلطان الذين تقل اعمارهم عن السادسة عشرة، اما الكبار منهم فحضورهم اليومي اجباري... وكذلك يتوجب الحضور في مجلس السلطان مرة واحدة على الاقل كل يوم على جميع وجوه البلد واعيانه ولا يجوز الامتناع عن ذلك الا لاشد الظروف الطارئة . فاذا طال انقطاع شخص ما دون سبب بين ارسل السلطان من يسأل عنه فاذا وجده مريضاً ذهب السلطان بنفسه إلى عيادته، وما من مرض مهما كان خطرا او معديا، حتى الجدري والكوليرا ـ يستطيع ان يمنع هذه الزيارة، فلا خوف في الشرق من العدوى فان الاشياء جميعها مرهونة بارادة الله .

• • •

ولكل رجل من اعيان البلاد ووجوهها برزته الخاصة به وتقع في الطابق الارضي من بيته بعيدا عن دار النساء، وفيها يستقبل زواره واصدقاؤه .

والعربي لا ينتقل من مكان إلى آخر الا لهدف محدود فهو لا يعرف الزيارة لغرض الزيارة ولا المشي لغرض المشي او الرياضة، واذا رأى العربي اوربيا يتمشى فوق سطح داره ظن انه يؤدي احد شعائر الدين المسيحي ولا تخطر بباله فكرة الرياضة او التنزه .

وكما قلت من قبل، فان زيارات الرجال تماثل زيارات النساء ولست في وضع يتيح لي اعطاء التفاصيل عما يدور في هذه الزيارات ولكن المؤكد ان الاحاديث تتناول مواضيع شتى منها المحلي والخارجي فيجري ذكر ما جرى في مجلس السلطان وتبحث القضايا وتحل المشاكل وتنهى المنازعات . والجدير بالذكر ان الاوربيين مسموح لهم بحضور برزة السلطان وزيارة اعيان البلاد لذلك فهم اكثر خبرة واطلاعا على هذا الجانب الرجالي من حياتنا منهم على حياة المرأة الشرقية المحجبة .



مكة المكرّمة والحجر الأسود الشريف أثناء موسم الحجّ

الفصل الثامن عشر

الصيام والأعياد في الاسلام

للمسلمين – كما هو معلوم لدى غالبية القراء – شهر كامل في كل عام، يصومون فيه، أي يمتنعون فيه عن الاكل والشراب منذ شروق الشمس حتى غروبها طيلة هذا الشهر الذي يسمونه شهر الصيام أو شهر رمضان.

والصيام فرض واجب على كل مسلم ومسلمة متى ما بلغوا الثانيــة عشرة من اعمارهم. ولكن امي لشدة تدينها وتقواها قد حملتني على أن أبدأ صيام شهر رمضان وأنا دون التاسعة من عمري، ولم يكن الامتناع عن الاكل والشرب مدة اربع عشرة ساعة في اليوم بالأمر الهين على طفلة في مثل عمري. واذا كان الجوع محتملا بعض الشيء فان المشقة الكبرى هي في احتمال العطش طيلة النهار في تلك المناطق الاستوائية. لذلك فانني في أول رمضان صمته استرقت بعض الجرعات من الماء أبل بها ريقي الجاف اثناء النهار وقد علمت أمي بالأمر وسألتني عنه فاعترفت لها مع الخجل والاعتذار فغفرت لي ذنبي على أن لا أعود اليه ثانية. وقد وفيت لها بوعدي.

ويبدأ الصيام في الساعة الرابعة صباحاً حيث تعلن طلقات المدافع من سفينة أبي « الرحماني » الراسية دوما في الميناء، بداية الامساك حيث يتوقف عند سماعها الجميع عن الاكل والشرب حالا ومباشرة ولا يجوز بعدها لأي شخص بالغ أن أن يضع في فمه لقمة طعام أو قطرة ماء حتى غروب شمس ذلك النهار.

ويرتفع أذان المغرب عند غياب الشمس في الساعة السادسة، وينصرف الناس إلى أداء الصلاة فلا يبدأون الافطار الا في الساعة السادسة والنصف حيث

يبلون ريقهم الجاف بقطرات من الماء البارد المخزون في جرار الطين . ثم تجتمع العائلة حول سفرة الافطار . وطعام الافطار في رمضان وافر الكميات متعدد الاطباق شهي الانواع ، وينال الصائمون من الطعام اكبر منال قبل ان ينصرفوا إلى بدء لياليهم الرمضانية الرائعة .

وليالي رمضان في الشرق أروع واجمل من أن توصف، فيجتمع الناس بعد آذان العشاء في الجوامع والمساجد ليقضوا قسطاً من الليل يتعبدون في الصلاة والتسبيح وقراءة القرآن والاستماع إلى المواعظ الدينيـــة ، ثم ينصرفون إلى مجالسهم الخاصة حيث يسمرون ويتنادمون وتدور عليهم المآكل والمشارب بين الحين والآخر، ويستمرون في ذلك حتى تعلن مدافع الرحماني حلول ساعة السحور وهو آخر وجبة للصائم ويتناوله في غرفة نومه عادة بين الساعة الثالثة والرابعة . وينقضي الشهر على هذا المنوال، قيام في الليل الا قليلا ونوم في أغلب ساعات النهار ، وفي أول ايام الشهر يدرك التعب والاعياء بعض الصائمين ويبدو عليهم النحول ولكنهم ما يلبثوا ان يعتادوا عليه بالتدريج .

والصيام كما قلنا فرض واجب على كل فرد، وهو رغم شدته وقسوته فرض ينتظره المؤمن بفارغ الصبر ويتقبله بكل غبطة ورضى ويؤديه بكل محبة وامتنان وايمان . ورب البيت مسؤول عن صيام اهل بيته وخدمه جميعاً لا يستثنى من ذلك الا عمال المزارع وهم اصلا لا دين ولا عقيدة لهم فهم أحرار ان صاموا أو فطروا ، كما يستثنى من ذلك الأطفال ممن هم دون العاشرة من العمر والمسافرون والمرضى على أن يقضي المريض هذا الواجب الديني المحبب إلى النفس بعد شفائه من مرضه والمسافر بعد عودته إلى بيته . وكذلك تعفى النساء فترة قصيرة خلال الشهر في احوال طبيعية خاصة على أن يعوضن هذه الفترة بالصيام فيما بعد .

والصيام ليس مظهراً خارجياً اي عمل امتناع عن الطعام فحسب، وانما هو للمسلم امتحان للنفس وحساب لها عما قدمت من خير لتستزيد منه وما اقترفت من ذنب لتستغفر عنه، والصيام ايضا امتحان للارادة فهو امتناع عن الفعل السيء

والقول البذيء واقبال على عمل الخير والعبادة وفضائل الاخلاق . لهذا فان صيام رمضان يهدف إلى صفاء القلب وسمو الروح وجلاء العقل .

ويصل الكرم العربي التقليدي في رمضان ذروته حتى ليكاد ان يصبح من شعائر هذا الشهر الدينية فيفتح كل امرىء ابواب داره لاستقبال القادمين وان لم يكونوا من المعارف والأصدقاء، بل ان الناس تسأل ائمة المساجد ان يرسلوا اليهم كل ليلة مَنْ عندهم من الزوار والفقراء ليشاطروهم تناول الأفطار . ولا تقتصر هذه الولائم على الفقراء والمحتاجين بل ينضم اليها ذوو اليسار من الناس ايضا فما من احد يستنكف ان يقبل الدعوة إلى الطعام والشراب في رمضان ممن هو اقل منه مقاما او ثراء . ومن الواضح ان امثال هذه الولائم تبهج قلب العربي المكرام وتثلج بالسرور صدره . وهكذا يجتمع الناس اخوة سواسية في دين الله وتزول الضغائن والاحقاد وما اسعد هذا الشعب الذي يجعل الوداد والاخاء فرضا واجب الأداء .

ولأن العيد الصغير أو عيد الفطر يلي رمضان مباشرة فان ايام رمضان، والأخيرة منها خاصة تشبه الأيام التي تسبق عيد الميلاد في هذه البلاد، فترى الجميع منهمكين في اعداد وانتقاء الهدايا للاطفال والأصدقاء والأهل والأقارب وفي جو من السرية والتكتم لتأمين المباغتة وزيادة الفرحة عند تقديم الهدايا . ولعل [illegible] ساهد النسوة يتسللن إلى سطوح بيوتهن ليعكفن على انوالهن في ضوء القمر الساطع في الليالي الافريقية لحياكة هدية ما يباغتن بها حبيبا أو صديقا .

وتفضل الهدايا الجاهزة وغالباً ما تكون من الحلي والمجوهرات، وهذه التجارة يتولاها عندنا البانيان الهنود الذين لا يبزهم احد في الغش والمكر والنصب والخداع وابتزاز المال، كما لا يبزهم احد في حذقهم في الصياغة . ولذلك تنهال عليهم الطلبات في هذا الموسم حتى تزيد الطلبات على قابليتهم على الانجاز وهم لا يرفضون منها شيئاً اما التنفيذ والتسليم فأمر آخر، قد يطول أمده ما طال حبل كذبهم وخداعهم . وكنا اذا اردنا ان نضمن اخذ طلباتنا في وقتها المحدد انتدبنا اثنين من عبيدنا المسلحين ليقيما في باب دكان الصائغ ليضمنا انصرافه إلى تنفيذ طلبنا ومنعه من المراوغة والعمل في تنفيذ الطلبات الأخرى . وهذا اجراء صارم ولا شك

وقد ابتكرته احدى اخواتي ولكنه دون شك ايضاً هو الاجراء الحاسم الوحيد مع هؤلاء المخادعين والغشاشين المماطلين .

وعدا عن المصوغات والمجوهرات فان الهدايا تشمل السلاح ايضا، وقد يستغرب القارىء ان تهدي المرأة زوجها أو ابنها أو أخاها قطعة من السلاح في مناسبات الأفراح هذه لكن السلاح عند العربي ليس أداة قتال وحسب، بل هو مظهر رجولة وأداة زينة، فالخناجر والسيوف الدقيقة الصنع المطعمة باللؤلؤ والماس والياقوت اعمال فنية تستحق الاهداء في هذه المناسبات .

ويمكن اهداء كل ما هو غال أو نفيس، فمن الهدايا المفضلة في الأعياد الخيول الأصيلة والجمال وكذلك — وارجو ان لا يصدم قولي هذا شعور الاوربيين — العبيد من الرجال والنساء أيضاً .

لذلك فان الاسبوع الاخير من رمضان مفعم بالحركة والترقب وفي خلال هذا الاسبوع تقع ليلة القدر وهي ليلة مباركة مقدسة عند المسلمين اذ فيها انزل القرآن اول مرة .

• • •

وفي نهاية هذا الاسبوع وحين يحل غروب اليوم الأخير من رمضان لا يبق للناس من شاغل الا محاولة رؤية هلال الشهر الجديد . ولا قيمة للتقاويم في هذا المجال، فشهر الصيام لا ينتهي الا برؤية هلال شهر العيد رؤية العين وليست هذه الرؤية بالشيء العسير في سماء بلدنا الصافية ومع هذا فمن يملك في هذه الحالة منظارا مكبراً فهو ذو حظ كبير، وهذه الآلة المحسودة تنتقل من يد إلى يد .

وقد كان أبي يرسل بعض الرجال حادي البصر إلى سطح القلعة وهي من بقايا آثار الاحتلال البرتغالي للبلاد أو إلى رؤوس الصواري في سفنه لمحاولة رؤية ذلك الخيط الفضي الرفيع الذي تعلقت به أبصار الناس وافئدتهم وآمالهم .

ويظل الناس في ترقب وانتظار لصوت المدافع التي تعلن رؤية الهلال وثبوت العيد، فاذا ما دوت المدافع بالبشرى هذه انطلق الناس إلى الشوارع والطرقات في

كل انحاء المدينة في فرح عام وابتهاج شامل يهنىء بعضهم بعضاً بنعمة الله عليهم باتمام واجب الصيام وحلول العيد السعيد .

والساكنون في الأرياف يرسلون إلى المدينة رسلهم ليعودو اليهم بالخبر الصحيح، كما يرسلون بعض عبيدهم لتسلق الاشجار العالية بغية روية الهلال . وكثيراً ما يخطىء هولاء العبيد الروية فيتوهمون روية الهلال ويعلنون ذلك للناس فيفطر الناس على هذا الأساس ثم تصل الرسل من المدينة بعكس هذه الأنباء وهذا يعني العودة إلى الصيام .

• • •

وللمسلمين عيدان صغير وكبير، وأولهما العيد الصغير أو عيد الفطر ويلي رمضان مباشرة وقد علمنا فيما سبق ان الاستعدادات له تجري قبل حلوله بأسبوع وأكثر .

الا أن ثمة استعدادات لم نذكرها فيما تقدم هي تهيئة الطعام والمؤن لأيام العيد. وعدا عن عمليات الخبز الواسعة النطاق فان اصطبلات البيوت وباحاتها تمتلأ بأعداد غفيرة من الثيران والأغنام والماعز والغزلان والدجاج والحمام ولن يحرم الفقراء من المشاركة على قدر الحال في هذه المراسم، ذلك لأن الموسرين يجودون بالمال سرا عن الفقراء لشراء حاجاتهم من مؤن العيد .

وعلى صوت المدفع الذي يعلن بدء العيد الصغير يصبح بيت المسلم خلية نحل دائبة ومسرحاً لحركة وجلبة وابتهاج وسرور . فكل شخص يذهب إلى بيت كل شخص فتجد المئات من الناس داخلين خارجين بملابسهم الزاهية خالعين عذار المهابة والوقار تطفح على وجوههم علائم البشر والحبور وتمتلأ قلوبهم بأصدق عواطف المودة والأخاء وكل همهم ان يهنئوا بهذا اليوم السعيد اهليهم واصدقائهم . وفي وسط هذه الأحاسيس الدينية الرقيقة الطاغية ينسى الناس احقادهم فيتصافح الاعداء ويتصالح الخصوم متناسين ما كان بينهم راجين الله ان يعفو عما سلف منهم وان يبارك صلحهم الجديد ويجنبهم شطط الرأي في المستقبل.

وفي وسط هذا الفرح تستريح الخادمات من اللعنات التي تنصب عليهم عادة طيلة ساعات الليل والنهار في مختلف الألسنة واللهجات .

ويشمر الجزارون عن اذرعهم ويعملون سكاكينهم الحادة في رقاب الحيوانات المنتظرة بعد أن يذكروا اسم الله عليها . وسرعان ما تنفصل الرؤوس عن الاجساد وتسلخ الجلود وتنظف الاحشاء وتقطع الذبيحة إلى قطع كبيرة من اللحم ترسل إلى المطبخ حيث يتلقفها الطهاة لتهيئتها لحفلة الغذاء في الغد .

وتبدو ساحة بيتنا في مثل هذه الايام وكأنها بركة من الدماء لكثرة ما يذبح فيها. وقد يستغل بعضنا هذه الفرصة لايذاء البانيان والتشفي منهم . فالبانيان الهنود يعبدون البقر وهم بطبيعة الحال لا يستحلون ذبحها واكل لحومها وهم لذلك يكرهون اعيادنا ويتحاشون الخروج في مثل هذه الأيام تجنباً لرؤية الدماء والذبائح .

ولكن هؤلاء البانيان هم – كما قلت من قبل – التجار والصاغة الحقيقيون في الجزيرة وبيدهم حركة البيع والشراء . وهم كما قلت أيضا من أكبر المرابين الجشعين الذين لا يرحمون ضحاياهم ولذلك يحاول بعض المسلمين الانتقام والتشفي منهم أو الاستهزاء والسخرية بهم فيغروهم ببريق الذهب ويرسلوا اليهم من يخبرهم ان احدى السيدات ترغب في شراء سلعة ما ولأنهم اكثر خلق الله جشعاً وحبا للمال فانهم يتناسون حيطتهم ويهرعون إلى بيت تلك السيدة حيث يتلقاهم العبيد ويرغموهم على المشي فوق الدماء ومس اللحوم وهذا عندهم من أكبر الكبائر . وعلى كل ومهما يكن من امر غشهم وخداعهم في التجارة والمعاملة – وهم في ذلك لا يبارون – فمن الحق ان اعترف ان عبدة البقر أو النجوم هؤلاء من اشد خلق الله تمسكا بعقيدتهم الوثنية .

ولا تدع الجلبة والضوضاء للنوم سبيلاً إلى عيون سكان الدار، ولكن ليست الضوضاء وحدها هي التي تبقى السيدات ساهرات أرقات ليلة العيد . وانما الذي يؤرقهن ويطرد الرقاد من جفونهن هو التفكير في اختيار الثياب والزينة وكيف تستطيع الواحدة منهن ان تبهر الانظار وتبز الرفيقات غدا وبعد غد وخلال ايام

العيد الثلاثة حيث يجب ان تغير المرأة لباسها مرة واحدة على الاقل في كل يوم وترتدي لباسا جديدا في كل شيء من قمة الرأس إلى أخمص القدم .

والعطور في كل مناسبة عنصر هام من عناصر زينة المرأة وتنفق الواحدة من سيداتنا حوالي ٥٠٠ دولار سنوياً على عطورها، وكمية العطور التي تستعملها النسوة ايام العيد تفوق اي تصور او تخمين ولولا ابوابنا وشبابيكنا المفتوحة دوما لربما أدت كثرة التعطير إلى الاختناق .

والحناء عنصر هام آخر في زينة المرأة الشرقية، وهو ورق شجر متوسط الطول تستعمله النساء والاطفال لصبغ ايديهم بلون احمر قان دام . كما يستعمل علاجا لبعض الأمراض الجلدية الخفيفة كالدمل والنمش والحكة . ولكن ورق الحناء لا ينفع لوحده وانما يستعمل بعد تجفيفه وطحنه وخلطه بعصير الليمون وبعض الماء ثم يجبل في عجينة تترك في الشمس بعض الوقت ثم تستعمل مع عصير الليمون ثانية لمنع جفافها .

وتوضع الحناء في القدمين واليدين ومن اجل هذا تضطجع المرأة على قفاها وتوضع العجينة بين اصابع قدمها الواحد بعد الآخر، على أن يبقى باطن قدمها نظيفا لا يمس ثم توضع فوقها اوراق طرية وتشد بعد ذلك . وينتقل العمل إلى اليدين فيبدأ باليد اليمنى ثم اليسرى ويقتصر على الأصابع واحدا بعد الآخر إلى أول المفصل الأخير من كل أصبع على أن لا تمس الحناء باطن الكف وظاهره وتبقى الجميلة المسكينة على وضعها هذا لا تتحرك ولا تتململ خشية أن يتحرك الحناء من موضعه إلى اماكن أخرى يجب الا تخضب فاذا ساحت اليها الصبغة فسدت العملية وصار الأمر مخزيا وقبيحاً . وليس لجميلتنا المسكينة من وسيلة ظاهرة للدفاع ضد البعوض والذباب الا أن تكون من الموسرات فتتولى عبداتها الترويح عنها حتى الصباح حيث يرفع العجين وتغسل الأكف والاقدام ثم يعود العذاب ثانية في الليلة الثانية والليلة التي تليها فلكي تكون الصبغة حمراء قانية تدوم اسابيع عديدة لا بد من تكرار وضع الطلاء ثلاث ليال متعاقبات .

• • •

وفي صباح العيد ينهض الجميع في الساعة الرابعة ويبدأون بتسابيح الشكر لله تعالى على ما حباهم من نعمة الصوم وعلى كل ما اسبغ به عليهم من خير أو ما امتحنهم به من بلاء . وبعد انتهاء هذا الابتهال تسرع النسوة المتبرجات في بيتنا إلى الشرفة الكبيرة لعرض مفاتنهن وزينتهن للآخريات فترى هناك عرضا للأزياء الشرقية والجمال العالمي .

والالوان المفضلة لثياب النساء هي الالوان الزاهية والبراقة وقد لا تستسيغ المرأة الأوربية الزي العربي بألوانه الصارخة كأن ترى الفستان الحريري الاحمر الطويل المخيط بخيوط الذهب والفضة وتحته السروال الحريري الاخضر، وهذا نفس ما حصل لي عندما شاهدت الاوربيات اول مرة يلبسن الالوان الغامقة ويلائمن بينها . وقد بقيت مدة طويلة قبل ان اقنع نفسي بقبول هذا الزي الأنيق .

وفي الساعة السادسة تنطلق طلقة مدفع أخرى وتبدأ تحيات العيد ... فكل باخرة حربية أجنبية تصل الميناء تطلق واحداً وعشرين طلقة وكل عربي يشارك ويعلن عن فرحه باطلاق الرصاص حتى ليخيل للغريب الداخل إلى المدينة انها في حالة حرب وبعد ساعة تمتلأ المساجد بالمصلين حتى تضيق بهم وتمتد خارجها صفوف غفيرة من المصلين، والصلاة في الاسلام تتضمن تحريك الجسم قياما وقعودا وركعة وسجودا والسجود هو وضع الجبهة على التراب خضوعا وخشوعا امام الله، ولا يشترط ان يكون أداء الصلاة في المسجد الا في المناسبات الدينية مثل ايام الجمع والعيدين ولهذا فان عوائق الطبيعة من مطر أو ريح أو غيرها لا تمنع المسلم عن أداء صلاته وهو يفضل ايام الاعياد أداءها في الجوامع أو قربها .

وعلى هذا دأب أبي السيد سعيد فقد كان يذهب وأبناؤه وحاشيته الكبيرة إلى المسجد لأداء الصلاة وتطلق المدافع طلقاتها بانتهاء الصلاة وبعد ذلك يبقى كل شخص حرا ليملأ جوفه بأنواع الشراب والحلويات تعويضاً عما فاته منها في الثلاثين يوماً السالفة .

وكنا نحن النساء ننتظر السلطان في جناحه الخاص عند عودته من الصلاة فاذا دخل المكان نهضنا جميعا واقفات ثم تقدمنا واحدة بعد اخرى نقبل يده ونلقي

اليه بتحية العيد . وايدي الرجال والنساء من ذوي الجاه والمقام تتعرض في مثل هذه المناسبات لوابل من القبل ولذلك فهي تغسل بين الحين والآخر بالماء والعطور . والنساء يقبلن صديقاتهن في الخدود .

وفي هذا العيد والعيد الكبير تنفتح خزائن أبي ليفرق منها هداياه الكثيرة والنفيسة علينا . ويصطحب أبي معه اختي خولة ورئيس الخصيان جوهر إلى غرفة الكنوز التي تحتوي على أروع التحف وأنفسها مما دق صنعه وغلا ثمنه ومن كل شكل ونوع من المصنوعات الذهبية إلى اللؤلؤ والماس والمرجان ومن الخلاخل والأساور إلى القلائد والتيجان والاقراط ومن النقود الذهبية والفضية لكل الدول الاوروبية علاوة عما تحويه من فاخر القماش وذاخر العطور وكل ما يخطر على البال.
وكان ذهاب اختي خولة مع ابيها امتيازا خص السلطان به امها أولا ثم انتقل إلى خولة، وهو برهان على ما تتمتع به نجمة الصبح من مقام وحظوة عند ابيها السلطان، وان كانت حظوتها من الظهور بحيث لا تحتاج إلى برهان جديد . لكن هذا الامتياز كان يسبب لخولة الكثير من الازعاج ويثير عليها موجات الحقد والسخط دون أن يعود عليها بأي نفع . وكانت تعلم بهذا كله ولا تستطيع له دفعا وكانت تدعي انها مكرهة على هذا العمل لا تستطيع ان ترفض امر ابيها السلطان، ولكنها كانت تسر الي بغبطتها وافتخارها بهذا الامتياز... وحق لها ذلك .

ومن المستحيل على أبي ان يعرف ما عند كل واحدة من نسائه وبناته ونساء ابنائه من الحلي والمجوهرات ليهديها غيره او ما ترغب في الحصول عليه لذلك فقد كان يستطلع الامر مقدما بطرق خفية ويستعين بخولة ان تدله أو تذكره بما يجب أن يقدم لكل واحدة منا . وتنقل الهدايا إلى الصالون وقد كتب عليها اسم المهداة اليها ويقوم جوهر بالتوزيع وقد تتقدم له احدى السيدات بطلب تبديل هديتها وكان يتقبل ذلك راضيا سعيدا .

ولم تكن هدايا أبي مقصورة على افراد البيت السلطاني من رجال ونساء في بيت الموتني وبيت الساحل بل كان ملزما ايضا ان يهدي جميع الرؤساء العرب

والافارقة الموجودين في زنجبار وكل القادمين اليه من عمان طمعاً في نيله وعطائه وكذلك جميع حرسه وجنوده وموظفيه وربابنة سفنه وملاحيها ونظار مزارعه الخمس والاربعين وإلى كل عبيده البالغ عددهم حوالي الثماني آلاف عبد . لذلك فاني لأعجب الآن كيف لا تنضب خزائن أبي نتيجة هذا البذل والعطاء وما سبب ذلك على ما اعتقد الا أن ابي كان مديرا ناجحاً وتاجرا ماهرا .

ويأتي العيد الكبير بعد سبعين يوما من العيد الصغير ، وهو في أكثر مراسمه واحتفالاته وشعائره تكرار لعيد الفطر ويمتاز عنه بمناسبة روحية تطهر القلوب وتسمو بها وهي أداء فريضة الحج إلى مكة المكرمة وهو فرض على كل مسلم استطاع اليه سبيلا ولكنه في الواقع امل كل مسلم وطموحه ومبتغاه، فاذا كتب للمسلم أن يحج الى مكة ولو مرة واحدة في العمر فقد تحقق له حلم حياته المقدس.

وفي الحج يجتمع مئات الألوف من المسلمين يطوفون بالكعبة وبقبر الرسول طالبين العفو والغفران والبركة . وبعض الناس والمحتاجون منهم خاصة يقطعون المسافات الطويلة بين بلادهم ومكة مشيا على الأقدام أو على ظهور الخيل والحمير والجمال أو يحشرون حشراً على ظهور السفن تتقاسم مصيرهم رياح البحر وارادة الله . ولكن ما من خطر أو صعوبة أو عائق في بر أو بحر او من مرض أو عدوى تستطيع ان تصد هؤلاء المؤمنين عن هدفهم المقدس .

والعيد الكبير يقع في اليوم العاشر من الشهر الأخير من السنة الاسلامية ويستمر من ثلاثة إلى سبعة أيام وعلى كل مسلم قادر أن يضحي بهذا العيد بذبيحة توزع لحومها على الفقراء ولهذا سمي بعيد الأضحى، والشريعة تقضي ان تكون الذبيحة سليمة خالية من كل العيوب وليس لصاحب الذبيحة أو أفراد عائلته أو خدمه ان يحتفظوا بقطعة منها وانما يجب أن توزع جميعها على الفقراء والمحتاجين . ولم يكن من الميسور الحصول على هذه الأغنام في مدينة زنجبار بل بل كنا نأتي بها من الأرياف حيث يسوم العبيد ثمنها اضعاف مضاعفة .

وتقضي شريعة الاسلام ان يتنازل المسلم عن عشر ما يتبقى لديه من ريع زراعته أو ايجار بيوته أو ربح تجارته أو أي دخل يدخل اليه . واكثر من هذا فان ما لديه

من الذهب والفضة والأحجار النفيسة يجب أن يقيم من قبل خبير ويعطي عشر قيمتها للفقراء وهي ضريبة دخل وضريبة عقار في آن واحد . ويطلق عليها الزكاة وتتم هذه العملية بدون قوانين أو تشريعات من السلطان وانما هو امر الله والرسول وهو واجب الطاعة وعلى كل فرد أن يقوم به من تلقاء نفسه دون تعليق أو نقاش أو ضجة وضوضاء بل يجب أن يتم الامر بالسر بحيث لا تعرف يسراك ما أعطت يمناك .

ويؤدي الناس هذه الضريبة بمنتهى الدقة وعن طيب خاطر ابتغاء مرضاة الله وراحة الضمير ، وهذا النظام فريد من هذه الناحية، ناحية عدم التهرب من الدفع لذلك فيصح اعتباره أحسن نظام ضرائبي في العالم . لكن غياب التنظيم الدقيق في توزيع هذه الضريبة الاختيارية خلق في بلاد المسلمين أفواجاً كبيرة من الشحاذين وليس جميعهم بالضرورة من الفقراء المحتاجين بل ان بعضهم يملك في الواقع أكثر مما يكفيه، وانما أصبحت الشحاذة عند هؤلاء مهنة واحترافا لا يستطيعون عنها فكاكا . وفي بعض الأحيان تنتقل الشحاذة كمهنة بالوراثة إلى الأبناء فغالباً ما تسمع بعضهم يقول : هل تعرفني ؟ أنا ابن (أو بنت أو أخت أو الخ...) فلان الفلاني الذي كنت تعطيه أو تعطيها عندما كان (أو كانت) على قيد الحياة وأنا الآن مكانه أو مكانها لذلك فاذا كان عندك ما تعطيه فأرجو أن ترسله الي .

وحينما نريد أن نؤدي النذور والتي تحدث عدة مرات في السنة فأن هؤلاء الشحاذين يتجمهرون علينا لينالوا نصيبهم من الخيرات . أو اذا كان أحدنا مريضا فانهم يتلقفون الواقعة وينتصبون تحت الشبابيك طالبين كذا وكذا من كذا وكذا من الأشياء ليرسلوا أدعيتهم لشفاء المريض .

والعطاء لا يقف عند حدود العيدين فالذين يمنعهم المرض أو السفر عند حضور التوزيع في العيد لا يتنازلون عن حقهم أبدا، وقد تمضي أسابيع وأشهر على العيد وقد يقارب العيد الثاني... ومع هذا يأتون اليك يطالبون بهداياهم من العيد الماضي .

هذه هي أعيادنا الرسمية ولكن السنة لا تخلو من مناسبات خاصة كالولادة، والزواج والختان حيث يحتفل الناس بها ويتبادلون التهاني والهدايا ويحيون الولائم والحفلات .



منظر جانبي لمدينة زنجبار

الفصل التاسع عشر

الطب والعلاج والنذور والأرواح

يولد الناس في بلادي ويعيشون ثم تنتهي آجالهم، دون أن يهتموا بالصحة وقواعدها ودون أن يعرفوا العناية الطبية. والناس عندنا لا تلجأ للعلاج الا في المرض العضال والحالة المستعصية وما علاجهم في هذه الأحوال الا الشعوذة والدجل.

والعلاج الرئيسي العام هو الفصد أو الحجامة. وكان هذا هو العلاج لكل مرض من الجدري إلى الكوليرا وما بينهما، وكان الاعتقاد ان نزيف الدم هذا لا يشفي من جميع الأمراض فحسب. بل انه وسيلة وقاية أيضا. وعلى هذا الأساس فان غالبية الناس، وحتى الأصحاء الأقوياء الذين لا يشكون من ألم، يسلمون أنفسهم إلى مشرط الحجام مرة واحدة على الأقل في كل عام، لينظف دمهم وتقوى أجسامهم ويكتسبوا المناعة والوقاية من الأمراض، كما كان يفعل الناس ذلك في أوربا في قديم الزمان.

ولا أعرف بالضبط مدى الفائدة الصحية لهذا النوع من العلاج، ولكن حتى مع التسليم بفائدته الصحية فان طريقة تنفيذه لا تخلو من مخاطر أكيدة يحملها يد الحجام القذرة أو أداته القديمة أو قلة خبرته، وقد رأيت مرة في احدى ممرات بيت الموتني الكثيرة احدى اخواتي مطروحة دون حراك فظننتها قد ماتت فملأت الجو صراخاً اجتمع على أثره القوم من حولي ونقلوا أختي إلى فراشها وكان قد أغمي عليها من كثرة ما نزف من دمها نتيجة الفصد.

والتدليك علاجنا الثاني وهو امر ممتع ونافع والضرر منه معدوم. وكانت خادماتنا

خبيرات في هذا الشأن وكنا – كما قلت ذلك من قبل – ندخل عالم النوم ونخرج منه على لمسات رقيقة من اصابعهن المتدربة على هذا الأمر .

والقيء علاج شائع في بلادنا ويتم بتناول بعض الأعشاب الكريهة المطبوخة بحيث أن مجرد اقترابها من الأنف يؤدي إلى النتيجة المطلوبة .

أما في حالات المرض الشديد فليس لنا من علاج الا رحمة الله نطلبها بالدعاء وتلاوة آية الذكر الحكيم أو بكتابة الأدعية . والأدعية هي آيات من القرآن الكريم يكتبها رجال من أهل الورع والتقوى بماء الزعفران على صحن أبيض ثم يغسلون الكتابة بماء الورد فيصبح الدعاء شرابا سائغاً يشربه المريض ثلاث مرات في اليوم مع وجوب الحذر الشديد من أن تنسكب قطرة من هذا العصير الغالي على الأرض فيبطل مفعوله . وقد جربت بنفسي هذا الدواء لعدة أسابيع أثر اصابتي بحمى خبيثة.

وفي حالات نادرة جدا حين يشتد المرض على مريض عزيز على الوالد، فقد يستدعي « مطبب » للكشف على المريض، وأقول مطبب لأن هذا الرجل قد يكون طبيباً حقاً أو أن يكون مجرد دجال مشعوذ، واذكر في هذا المجال ان اختي خولة ظلت أمدا طويلاً تعاني من ألم شديد مزمن في أذنها فلما اشتد عليها الألم استدعى لها أبي « حكيما » فارسيا مشهورا، ولأني كنت صغيرة آنذاك فقد سمح لي بحضور المعاينة الطبية . وقد جاءت خولة ملفوفة من أعلاها إلى اسفلها في عباءتها السوداء لا يظهر منها شيء الا اذنها المريضة وجلست على كرسي معد لها وقد وقف أبي عن يمينها وأخي خالد عن يسارها وتحلق حولهم أخوتي الآخرون بلباسهم الرسمي وبكامل اسلحتهم .

ثم أدخل الطبيب الغرفة محاطا بعدد من الخدم والخصيان في حين انتشر عدد كبير آخر منهم في انحاء الدار ليبعدوا أية انثى عن طريق هذا الحكيم الفارسي . ولم يكن هذا الحكيم ليجرأ بالطبع على توجيه الكلام إلى المريضة مباشرة، بل كان يوجه أسئلته ويتلقى اجوبته عن طريق أبي أو خالد .

وفي مرة ثانية، وفي تاريخ متأخر جدا، اصبت بالتيفوئيد، وبعد أن فشلت كل محاولات العلاج معي، قررت عمتي عائشة ان تستدعي لي طبيبا اوربيا .

وكان ابي قد توفي في ذلك الحين وأصبحت إلى حد كبير سيدة أمري ، لذلك فلم تتكرر مراسيم العيادة التي جرت لخولة .

وقد كنت في الواقع فاقدة الشعور فلم أحس بما جرى ولكن عمتي روت لي بعدئذ قصة ما حدث، فان الطبيب الاوربي رغم علمه التام بالتقاليد العربية فانه أصر على أن يجس نبضي مما اضطر عمتي التي كانت جد قلقة عليّ، على الموافقة على ذلك . ومع هذا فقد كان لفيف من الخصيان يحرسون المكان ويحيطون بنا في الغرفة، وكان عليّ، كما كان على خولة، أن أحضر إلى الطبيب ملفوفة لفاً محكما بحيث لا يمكن لاحد أن يميزني . ولما طلب الطبيب المداوي أن يرى لساني نهره جوهر رئيس الخصيان على هذا الطلب الوقح السفيه، مما اضطر تلميذ بقراط إلى الانسحاب من القصر في الحال لاهانته في كرامته المهنية .

والعرب لا يميزون بين الأمراض ولا يعرفون من أصنافها غير صنفين اثنين « أوجاع البطن » و « أوجاع الرأس » ويدخل تحت الصنف الأول كل أمراض المعدة والكبد والكليتين والقلب، ويقع تحت الصف الثاني قائمة طويلة بكل أعراض الآلام التي تصيب الرأس سواء كانت صداعا أو ضربة شمس أو التهابا بالسحايا الدماغية . والعربي لا يعرف شيئاً البتة عن أصل المرض أو سببه فاذا عجزت العقاقير المحلية عن شفاء المريض، ارسل أحد الخدم إلى طبيب القنصلية يطلب منها بعض العقاقير للمريض، والفشل نصيب هذا الطبيب وعقاره حتما، فهو لم يكشف على المريض ولم يعطى الا معلومات عامة غامضة عن طبيعة المرض لهذا فلا غرابة بعد هذا في أن يصف العلاج الخاطىء أو على أحسن الأحوال علاجا في غير محله .

والحمية امر غير مسموع به في بلادنا ، فالمصاب بالحمى أو ابجدري أو الكوليرا أو التيفوئيد يقدم له كل ما يزخر به المطبخ من أنواع الطعام اذا ما اشتهى أو طلب من ذلك شيئاً . فالافتراض هو ان كل ما تشتهيه وتطلبه البنية فهو جيد لها .

والاعتقاد بالقدر يعمي المسلم عن اخطار الامراض المعدية، فلا أحد يفكر

في عزل المصابين بالجدري مثلا . وحين انهدم الحمام الذي ذكرت موقعه في الممر الواصل بين بيت الساحل وبيت الثاني تحول إلى مكان للنفايات، ولما اشتدت الحاجة إلى مساكن اضافية فقد بنيت مكانه بيوت جديدة، فاصبح سكانها يعيشون فعلا فوق الأوساخ .

ومن المؤسف ان الجدري كان يكتسح جزيرتنا في غزوات متكررة يحصد فيها الوف الضحايا في كل مرة، وكان العبيد يلطخون جسم المصاب بكامله بالدم ثم يتركونه في الشمس، وقد يستعاض عن الدم بحليب جوز الهند . وحين يكتسي جسد المريض بالقروح بحيث لا يتحمل بعدها أن يلامس الفراش، ينام على حصيرة من القش أو على اوراق كبيرة من ورق الموز بعد أن تستخرج منها الاجزاء الصلبة . ويمنع عنه الماء نهائياً، ولكن ما من احد يفكر في معالجة اصل الداء .

ولسوء الحظ فان الدرن الرئوي لم يكن بالزائر النادر في جزيرتنا، وهو أيضاً لا لا يحظى بأي معالجة مهما كانت على كونه من أخطر الامراض وأشدها فتكا وأكثرها عدوى، ويخاف الناس هذا المرض خوفا كبيرا، ويعتبر المصاب بالسل منبوذا يتجنب الناس مصافحته ومجالسته والشرب والاكل معه أو من الاقداح والصحون التي شرب وأكل فيها .

وأذكر ان احدى جواري أبي الشابات الجميلات قد اصيبت بهذا المرض اصابة خطرة، وكانت حين تستطيع ان تترك فراشها تذهب لزيارة صديقاتها، ورغم صغر سني آنذاك فقد كنت الاحظ علائم عدم الترحاب ترتسم على وجوه الصديقات . وكان هذا التصرف يؤلمني وكنت احس بالعطف نحوها فلما اشتد بها مرضها ولزمت فراشها كنت اذهب اليها سرا لاعينها واسري عنها وكان لها ولد واحد ولم تكن لها بنت لتعتني بها .

وقد لقي عدد غير قليل من افراد عائلتنا نحبهم في مقتبل حياتهم بهذا المرض الوبيل وكانت مخلفاتهم وحاجاتهم تعامل معاملة خاصة فكانت ملابسهم وفرشهم تغسل على ساحل البحر وتترك تحت شمس الاستواء اياما، اما الذهب والفضة ومخلفاتهم من المعادن كالساعات والخناجر والسيوف فكانت تغسل بالماء المغلي أو تسخن على للنار إلى درجة عالية تكفي لتعقيمها .

والسعال الديكي مرض شائع بين اطفالنا شيوعه بين اطفال هذه البلاد، ويشرب اطفالنا لعلاجه عصيرا مستخرجاً من ورق الموز وتتكفل الخرافات بالبقية فيوتي بقشرة يقطينة جافة وتقطع إلى حلقات مدورة تعلق في رقبة الطفل المصاب .

وكان علاج الدمل والبثور في تغطيتها بقشور البصل بدل المرهم والرباط.

وكانت الوصفات المحلية تجرب جميعها الواحدة بعد الاخرى أما العلاج الطبي الصحيح فلا وجود له البتة . وفي مثل هذا الحال، حال غياب العلم واطباق الجهل فلا عجب اذا اشتد الطلب على المنجمين والمشعوذين وراج سوقهم وعلت اجورهم . وكانت مستشارتنا الأولى في حالات المرض بصارة عجوز عوراء من أهالي حضرموت .

وكانت عدة عملها عبارة عن كيس جلدي قذر يحوي ادوات سحرها وعملها ولم تكن تتعدى بضع أصداف بحرية وعظام حيوانات صغيرة كالفيران والعصافير ثم قطع زجاج وفخار وبعض المسامير المصدية وقطع نقود فضية ونحاسية .

وعندما كنا نسألها جواب امر ما، تبدأ بدعوة الله لهدايتها إلى جلاء الحقيقة ثم تهز حقيبتها وتطرح محتوياتها على الارض امامها . وعلى ضوء مواقع هذه النفايات تتنبأ بشفاء المريض .

ويبدو أن الحظ كان يعمل إلى جانبها فكثيراً ما اتفقت نبوآتها مع واقع الحال مما رفع من قدرها وانمي تجارتها وزاد في أرباحها، وكانت كل نبوءة ناجحة تجلب اليها عطاء أكثر .

وكانت الاصابات الخارجية أهون امرا واسهل علاجا، فالرماد الحار أو أغطية الصوف مثلا توقف الجروح النازف ولكن الامر يختلف كثيراً مع كسر العظام، كما تعلمت ذلك بثمن غال . فقد كنت صغيرة جدا ولهذا غير موهلة للجلوس إلى سفرة السلطان، ولذلك فقد ارسل الي السلطان صحنا به بعض الحلوى فركضت من شدة فرحي لأخبر امي به فزلت بي القدم على السلم ووقعت ارضا وانكسر عظم ذراعي الأيسر . وقد لفه لي كل من أخي برغش وعمتي عائشة ولكن العظم لم يلتئم بطريقة صحيحة وما زال أثر ذلك واضحاً في ذراعي يذكرني دوما بحاجة ابناء بلدي إلى الأطباء والجراحين .

وكان السحر، أو الحسد والاصابة بالعين سببا رئيسيا لكثير من الأمراض. فقد كنت في حدود الخامسة عشرة من عمري، فارتديت يوما ما فستانا حريرياً جديداً زاهي اللون، فاصبت في اليوم الثاني بالتهابات جلدية قوية سرعان ما شخصها القوم بانها اصابة من عين حسود وعلاجها ان اخلع الفستان الجديد لاتجنب مصدر الداء. ولكنني لم اكن أؤمن بمثل هذه الخرافات قط، فاصررت على الاستمرار بارتداء الفستان، ولكن الالتهابات زادت وصحبتها حمى عالية الزمتني الفراش اياما واضطرتني إلى ترك فستاني الجميل الذي ما ان خلعته حتّى بدأ الداء بالزوال.

وأنا لا أذكر هذا المثال برهانا على صحة الاصابة بالعين، بل ربما كان سبب مرضي لا علاقة له بالفستان، او ربما كان لجسدي بعض الحساسية ضد بعض اصباغه.

• • •

ومما يتصل بهذا الموضوع من قريب أو بعيد، النذور. فقد كنا نعتقد ان لبعض الينابيع قوة سحرية خارقة لا تستمدها من مائها وانما من الارواح الخاصة الساكنة حولها والتي تستطيع ان تعمل المعجزات — فهي تشفي المريض وتعيد الغائب وتجمع بين الحبيبين وتهب الأولاد للعاقر وأشياء كثيرة أخرى.

وكان الينبوع المفضل في زنجبار هو عين شمشم وتقع على بعد أميال من المدينة وكانت تزار من كل الطبقات ولشتّى الاغراض الصحية والعاطفية.

ومن بساطة النذور المقدمة لهذا الينبوع يستطيع الزائر ان يعتقد حالا بقناعة الروح الذي تسكنه وبساطة مطالبيها وكان نذورها المفضلة هي الحلوى والعطور والبخور، ونحر الخراف.

وللنذور شروط ومراسم، فيجب على الروح ان تؤدي واجبها ضمن فترة معينة من الوقت والا سقط حقها في النذور وبالعكس فان على صاحب النذور أن يعجل بالوفاء بنذره والا تعرض لانتقام الروح وعقابها.

وكنت اخرج مع أهلي إلى هذا العين كلما خرجوا اليها لوفاء نذورها وكنا

نخرج اليها جمعا كبيراً من النساء والعبيد والخصيان، ومن أول الفجر ولا نعود منها الا بعد هبوط الظلام . وكان السفر نوعا من الرياضة والنزهة في الهواء الطلق، تعود على أجسامنا الكسولة ببعض الحركة والنشاط ، وتعود زيارتنا على أهل المنطقة بالخير والعطاء وعلى الأرواح الطيبة ساكنة الينبوع بالشكر ووفاء النذور .

• • •

وأخيراً فلا بد من الكلام عن شخصية هامة في عالم الطب والعلاج، بل وفي كل مناحي الحياة — هي شخصية الشيطان الرجيم .

فقد كان من نتائج غلبة الجهالة والظلام على العقول اعتقاد اكثر الناس بالأرواح الخيرة والشريرة وسكناها الأجساد البشرية ، فما يكاد الطفل منا يولد حتّى يتقمصه الشيطان ويسكن جسده، فاذا بكى الطفل أو صرخ أو جفاه النوم ولم يعرف سبب واضح لذلك فالسر هو ركوب الشيطان له والواجب طرده من الجسد حالا وأبسط الطرق لهذا الطرد هو تعليق قلادة من رؤوس الثوم ورؤوس البصل الصغيرة حول عنق الطفل وهي لعمري طريقة مجدية وأكيدة المفعول فلو كان للشيطان أنف يشم لما ظل لحظة واحدة في ذلك الجسم .

وكلا الجنسين معرضون للمس الشيطاني ولكن النساء اكثر تعرضا له من الرجال، والحبشيات منهن اكثر تعرضا له من غيرهن . واعراض هذا المرض هو الانتفاضات العصبية، والشحوب والذهول وفقدان الشهية للطعام والميل إلى العزلة والظلام وغير ذلك من الاعراض السوداوية .

وهناك حفلات ومراسم غامضة غريبة يجري اتباعها للتحقق من دخول الشيطان جسد المرأة أو لمحاولة اخراجه منها، وتجري هذه الحفلات في غرف مظلمة قد امتلأت بدخان البخور وروائحه، وتجلس المريضة وسط حلقة من أهلها وقد لف وجهها ورأسها لفا محكما بحيث لا يخترقهما النور . ويحضر الحفل عادة مجموعة من النسوة اللواتي ثبت اصابتهن بالمس الشيطاني من قبل، ويتحلقن حول المريضة ثم يبدأن جميعا بهز رؤوسهن وهن يغنين أغنية غريبة غير مفهومة اكثرها الغاز وطلاسم، ويدار على الحاضرات شراب حلو المذاق مصنوع من الحنطة والتمر،

وتحت هذه المؤثرات تروح المريضة في سبات وتبدأ بالهذيان بكلام غير مفهوم وهي ترتجف ويخرج الزبد من فمها وتتلوى بجسمها على الأرض .

وهذه علامة المس الشيطاني . فالروح قد ملأت جسمها، ويبدأ المتفرجون يكلمون هذه الروح ويسألونها عن طبيعتها وعما تريد، اذ ان هناك ارواحا خيرة تسكن اجسام البشر لحمايتهم وهدايتهم كما ان هناك أرواحا شريرة تسكنهم بقصد الأذى والشر، ولا يستبعد ان تسكن الروحان معا جسد شخص واحد في وقت واحد والويل حينذاك لهذا الجسد الممزق بين الروحين المتصارعين .

والعرافات المتمرسات يستطعن طرد الروح الخبيث بالتعاويذ والأدعية، في حين يعقدن مع الأرواح الخيرة صلحا ينظمن بموجبه أوقات زيارة تلك الروح لجسد المريضة .

ويتعلق بهذه الخرافات الجنونية عادات اخرى اشد وحشية وقساوة وهي ان بعض الأرواح لا تخرج من اجسام أصحابها الا بالقرابين والنذور، لذا تذبح الأغنام والطيور أمام المريضة ويطلب اليها ان تشرب من دمها الحار وتأكل من لحمها النيء، فلا عجب بعد هذا كله ان يتردى الحال وتصل المريضة إلى شفا الجنون والدمار .

والملاحظة الغريبة في هذا الشأن هو ضعف المقاومة تجاه هذه الخرافات، وقوة سيطرتها على العقول وسرعة تغلغلها وانتشارها بين الناس . ومن الأمثلة على ذلك ان أهل عمان يستنكرون هذه الخرافات الشائعة في جزيرتنا ويرفضونها وحين تأتي إلى زنجبار احدى قريباتنا العمانيات ويصل اليها خبر هذه الخرافات فانها تستنكرها وتشمئز منها وتضيق بالحياة معنا لانها تنظر الينا نظرتها للزنوج المتوحشين . ولكن هذه الزائرة وأمثالها سرعان ما تقع صريعة هذه الأفكار التي اشمئزت منها وتصبح مؤمنة بها كل الايمان وتمارسها شأنها شأننا تماما .

واكتفي بهذا القدر عن هذا الموضوع . ولا بد لي في ختام هذا الكلام من القول بانني اعتقد ان من الأفضل للعالم المسيحي أن يرسل إلى زنجبار طبيبات بدل البراندي والمشروبات المسكرة المحطمة للروح والمفسدة للأخلاق . واني لأعجب من أمر الغربيين ولا أدري لماذا يجب أن تقترن المدنية عندهم بالرذيلة.

ان هذه فرصة طيبة لاظهار الحب الأخوي المسيحي – ان وجد – بصورة مادية محسوسة، والصعوبات ضد تحقيق هذة الفكرة ليست بالشيء الكثير . ولا ولا يشترط لانجاز هذه الفكرة نجاحها من الوجهة المالية، فهي عمل خيري انساني لا يقصد به الربح . انما العامل الأول في انجاح عمل البعثة ان تكون الطبيبة والممرضات نساء فالنساء يفضلن الطبيبات على الأطباء حتى في اوربا، ومجال نجاح الطبيبة المرأة في زنجبار عشرة أمثال نجاح الرجل فيها، فهي تستطيع بأيسر الجهد، بالرقة والبشاشة والعطف والعمل الصالح ان تكسب ثقة المرأة العربية وودها وهذا أول السبيل إلى نجاحها كرسولة طب ورسولة حضارة .



الزنوج ينقلون الفواكه إلى المدينة

الفصل العشرون

الرقيق

الكلام عن الرق والرقيق من اشد المواضيع حساسية واكثرها مدعاة لاختلاف الرأي هذه الأيام. واني لأعلم مقدما بانني لا استطيع ان اقنع جميع أصدقائي وقرائي بالتسليم بوجهه نظري ولكنني مع هذا ارى من الواجب عليّ تبيان وجهة نظري هذه بكل صراحة وتفصيل.

والغريب في الامر هو الجهل السائد بين الناس حول الموضوع، فالكثيرون من المتحمسين له يجهلون عناصره الرئيسية، بل حتى اولئك المشتغلون بالموضوع فانهم يتجاهلون دوما حقيقة واقعة ناصعة وهي ان اثارة موضوع الرقيق واظهاره للوجود لم يكن سببه العواطف الانسانية عند الفرد الاوربي فحسب، بل كان للعوامل والالاعيب السياسية اثر كبير في بعث الامر والتهويل به.

كنت ما ازال طفلة بعد، حين حل الموعد المضروب الذي حددته اتفاقية عقدت بين الانكليز وابي السلطان السيد سعيد والذي يجب فيه حالاً ومباشرة تحرير عبيد جميع الرعايا البريطانيين المقيمين في زنجبار.

وكان هذا القرار شديد الوقع على الرعايا البريطانيين، وبضمنهم الهندوس والبانيان، مالكي العبيد في زنجبار والذين اشتكوا منه مر الشكوى وارسلوا الينا زوجاتهم وبناتهم يطلبن منا الرحمة والعون ولكن لم يكن في ايدينا ان نتدخل في هذا الامر وان نعمل لهم شيئاً ذا بال.

وقد كان البعض من هؤلاء الرعايا البريطانيين يملك المئات من العبيد الذين يشغلهم في ادارة مزارعه، ومعنى تسريحهم جميعهم في يوم واحد توقف العمل في

مزارعه وانقطاع موارده ثم دماره دمارا تاما . وعدا عن هذا فقد كان من نتيجة قرار التسريح الكامل والمباغت ظهور مشكلة كبيرة هي تعكير الامن في جزيرتنا الهادئة الجميلة التي امتلأت بغتة بالالوف من اللصوص والمتسكعين والعاطلين عن العمل . فقد كان معنى التحرير لهؤلاء العبيد المعتقين هو التحرر التام عن أداء اي عمل، ثم حرية النهب والسطو وتجربة قدرتهم على اغتصاب الطعام والسكن من الآخرين .

لكن مرارة واقعهم الجديد سرعان ما ايقظت هؤلاء الاطفال الكبار من نشوة احلام الحرية والتحرر ، فقد وجدوا انفسهم ولأول مرة في حياتهم ، بلا قوت ولا موارد البتة . وقد تخلى عنهم الجميع وبضمنهم الانسانيون، رسل مكافحة الرقيق . فقد ظن هؤلاء انهم قد أدوا امانتهم وانجزوا رسالتهم فقد جاهدوا مر الجهاد لتحرير هؤلاء العبيد ونجحوا في مسعاهم فلم يعد لديهم ما يربطهم بهم او ما يستطيعون تقديمه اليهم، باستثناء ما كانت تقوم به زوجاتهم – الانسانيات مثلهم – من حياكة الجوارب الصوفية السميكة وتقديمها للحفاة من سكنة خط الاستواء، اما ما عدا ذلك فعلى حاكم للبلاد ان يتصرف كما يريد مع هذه العصابات السائبة العابثة بالأمن والعازفة عن كل عمل، والعزوف عن العمل وحب الراحة والاسترخاء طبع اصيل في الزنوج يعرفه عنهم كل من زار البرازيل أو شمالي امريكا او أي بلد آخر يسكنه الزنوج، فهم على الرغم من صفاتهم الطيبة الاخرى فانهم لا يقدمون على الاتيان بعمل ما لم يقسروا عليه قسرا .

وأعود للقول ان منع تملك العبيد من هذا التاريخ المعين كان قاصرا على الرعايا البريطانيين فقط. والسبب كما كان يراه ابي هو ان بريطانيا تستطيع ان تمنع رعاياها عن مزاولة ما تعتقد انه خطأ، ولكنها لا تملك الحق في ان تفرض رأيها وارادتها على حكومة بلادنا ، لهذا فقد ظل الرقيق، وما زال، سائدا في زنجبار وفي جميع البلدان الاسلامية الشرقية .

على ان وضع الرقيق في الشرق الاسلامي ليس كوضعهم في شمال امريكا فالواقع ان الاسلام حقق للرقيق حقوقا وامتيازات ووضعا قانونيا واضحاً حدد فيها حالات التملك وحالات العتق .

وهنا يجدر التمييز بين تملك الرقيق وبين تجارة الرقيق، والاخيرة هي الحافلة بالشرور والاسواء المثيرة للشكوى والضجيج، فقد دأب تجار الرقيق على التوغل في غابات افريقيا وادغالها لصيد العبيد وجمعهم، فيأخذون هؤلاء المساكين من بيوتهم ومن ثم يقسرونهم على قطع الطريق الطويل إلى ساحل البحر مشيا على الاقدام فيموت العشرات منهم صبرا وعطشا واعياء ويتعرضون لشتى المتاعب والاهوال، ولكن هذا ما يحدث ايضا لتاجر الرقيق نفسه المرافق لهم، فيتعرض لمثل ما يتعرضون له من الاخطار والصعاب لذلك فلا موجب أو مبرر للظن بان التاجر يتعمد اختلاق المتاعب لقافلته من العبيد ذلك لان هؤلاء المخلوقات هم سلعته وتجارته وان القافلة هي كل ثروته ورأس ماله، لهذا فان من مصلحته الابقاء على العبيد احياء سالمين ليتسنى له بيعهم في الاسواق، فاذا ما وصلت القافلة هدفها تبدأ العناية الكاملة بأفرادها، وصحيح ان عليهم ان يعملوا مجانا ولكنهم في مقابل ذلك معفوون من القلق على قوتهم اليومي، واثقون من العناية بهم، فأسيادهم يريدون لهم الصحة والخير .

والزنوج قوم محبون للراحة كسولون جدا لا يمكن ان يقدموا على عمل مهما قل ما لم يقسروا عليه قسراً ولن يؤدوه حق ادائه ما لم يراقبوا رقابة شديدة صارمة .

ثم ان سوء النشأة وفساد التربية قد جعل بين الزنوج الكثيرين من المجرمين العابثين بالأمن كاللصوص المشردين والسكيرين والنشالين .

فما الذي يجب عمله تجاه قوم هذا طبعهم وهذه تربيتهم ؟ طبعا لا بد من عقابهم عقابا مؤثرا مفيدا والا فان غض النظر عنهم معناه تشجيعهم واستشراء فوضاهم، فما هو هذا العقاب المجدي ؟ .

ليس هو السجن بالتأكيد . فما أصدق ما يرحب هؤلاء بالسجن ويرغبون فيه . فهو مكان بارد ظليل يقيهم شر التشرد في الطرقات ليل نهار، ويمدهم بالأكل والشرب ليستردوا ما خسروه من قواهم وليستعدوا لمزيد من الاعمال العدوانية حال خروجهم من السجن .

فهل من علاج انجح وانفع من العقاب الجسدي ؟ لكن هذا النوع من العقاب

يثير السخط والاحتجاج في بعض الأوساط الاوربية التي تتمسك بالافكار النظرية المجردة دون النظر في حقائق الامور العملية .

لا شك ان الضرب عمل غير انساني والقسوة مهما تنوعت اشكالها عمل ممقوت يجب ان يشجب من الجميع وبكل قوة سواء وقع على زنجي اسود جاهل في اواسط افريقيا ام على ابيض متعلم يكدح في مجاهل سيبريا .

لكن يجب أن نعلم ايضا انه لا يمكن تطبيق نفس قواعد الخطأ والصواب في كل مكان لاختلاف الشعوب في تقييمها للأعمال والامور . وعلى هذا تتغاير نظرة الشرقيين والاوربيين إلى الرقيق بتغاير تقاليدهما وعاداتهما .

فالرقيق في الشرق نظام اجتماعي قديم اشك في امكان القضاء عليه كلية في تلك البلاد، وعلى كل حال فمن السخف التسرع في محاولة تغيير نظام اجتماعي عميق الجذور بجرة قلم، وبموجة حماس . وانما على الاوربيين ان كانوا صادقين في نياتهم جادين في عزمهم ان يسيروا في هذا الطريق بكل بطء وحذر وعليهم اولا وقبل كل شيء ان يبدأوا بأنفسهم ليكونوا مثالا وقدوة للغير ، في حين نجد ان ما يحدث الآن هو العكس .

فغالبية الاوربيين الساكنين في بلاد الشرق يشترون العبيد ويقتنونهم في بيوتهم ومزارعهم . وهم يخفون علم ذلك عن مواطنيهم في وطنهم أو يبررون ذلك بحجة « البحث العلمي » في حين يجب الا يستعمل العلم مبررا وذريعة إلى امثال هذه الاعمال الدنيئة، ولا فرق من حيث المبدأ والواقع بين تشغيل الزنوج عمالا في المزارع كما يفعل بهم العرب، او تشغيلهم كولية كما يفعل بهم الاوربيون وان كان العمل الثاني في الحقيقة وواقع الامر أصعب مراسا واكثر مشقة .

وأكثر من هذا فقد برهن الاوربيون انهم اقل انسانية تجاه الرقيق من العرب، فالعربي يعتق جواريه ولا يبيعهن اذا ما انتفت حاجته اليهن، حين يعمد الاوربيون — المضطرون بدافع السفر إلى التخلي عن رقيقهم — إلى بيعه في الأسواق واذكر مرة ان الاستياء عم جزيرة زنجبار حين باع احد الانكليزين المسافرين خليلاته السوداوات إلى معاونه العربي سرا .

وفي مرة اشتكى القنصل الفرنسي جاره العربي انه يسيء معاملة جواريه السود، ثم اتضح ان لهذا الفرنسي نفسه خليلة زنجية وانها وضعت له بنتاً سوداء جميلة تولت رعايتها وتربيتها الجمعية التبشيرية .

فلا غرابة – وبعد هذه الحوادث وأشباه لها استطيع ان أرويها، ان ينظر العرب الى زوارهم المتحضرين بعين الريبة والسخط وان يتمنوا عودة تلك الأيام السعيدة التي لم يعرفوا فيها هذه الافكار الدخيلة الهدامة، وان يعتقدوا ان غرض الاوربيين من الحملات ضد الرقيق هو القضاء عليهم شعباً ووطنا ودينا .

• • •

واذا ما خلصت النيات حقا واتفقت الآراء فعلا على الغاء الرقيق فيجب السير بالامر بكل تؤدة وحذر وان تتخذ أولا خطوات تمهيدية تهيئ الأذهان لهذا العمل وتقلل من نتائجه الضارة . فالغاء الرق أو تحرير العبيد معناه ترك الافواج من هؤلاء الناس مشردين دون عمل وبالتالي دون اكل ولا مأوى، ومعناه ايضا القضاء المبرم على الزراعة في البلاد لرحيل العمال الزنوج عنها بعد التحرير . لهذا وذاك يجب أولا خلق الشعور بالعمل والرغبة فيه عند الزنوج ثم ادخال الزراعة الآلية إلى البلاد حيث تغني الآلة الواحدة عن عشرات العمال مع اعطاء احسن النتائج بأقل الجهود، ويجب قبل هذا وذاك ان يدرك الناس الاغراض الانسانية من وراء تحرير العبيد وانه لا يقصد به الاضرار بهم أو بمصالحهم أو معتقداتهم .

وطريقة العمل بهذه تبدو لي اكثر انسانية واكثر فعالية بل واكثر جدية ايضا من الافكار المرتجلة المبتسرة كفكرة بناء كنيسة في المحل الذي كان يقوم فيه سوق النخاسين، وهو عمل سطحي اعتباطي لان الكنيستين الموجودتين سابقاً في زنجبار واحداهما كاثوليكية والثانية بروتستانية تشكوان من قلة الزوار، عدا عن ان هدم السوق لا يعني ابطال حركة البيع والشراء، اذ في الامكان اختيار مكان آخر قد يكون سريا هذه المرة فيكون الضرر منه اكبر واعظم .

والعرب، كبقية الشرقيين – متمسكين بتقاليدهم حريصون على كرامتهم لا يقبلون بأن تفرض عليهم آراء وافكار جديدة لم يفهموها أو يتبينوا حكمتها، أو

معتقدات تخالف معتقداتهم وتقاليدهم . ولكن المؤسف ان المسلم ما ان يختلف بالرأي أو النظرة إلى الامور مع الاوربي حتى يتهم بالتعصب الديني والتخلف الفكري . وهذا امر ظالم ومبالغ فيه .

ولا شك ان العربي شديد الحفاظ على احكام دينه والتمسك بها . ولكن هذا لا يعني العصبية اي الجمود وضيق الافق، وقد شهدت بنفسي روح السماح وسعة الافق عند المسلمين اثناء عودتي إلى زنجبار بعد غيبة تسعة عشر عاما عنها، وكنت قد خرجت منها مسلمة وعدت اليها مسيحية، ولهذا فأنا بنظر اهل بلدي خارجة مرتدة ولهذا فانني استحق منهم احتقارا اكثر مما استحقه لو كنت مسيحية اصلا. ومع هذا فقد قوبلت بالترحاب الشامل والود العميق والعواطف القلبية الصادقة .

واذن فان دافع العربي إلى سلوكه ليس التعصب الديني وانما الرغبة في حماية نفسه ومعتقداته وتقاليده ضد محاولات بعض الجهلة والتافهين ممن يدعون تمثيل الفكر المسيحي مهاجمة افكاره وتسفيهها .

ومن جهة اخرى فان الزنوج آخر من يهتم بأية عقيدة أو دين، وهم انما يعتنقون المسيحية بسبب ما تقدمه لهم الارساليات التبشيرية من اقناعات مادية « ويستمر اعتناقهم لها ما استمر اغداق العطايا عليهم، وقد شكى لي أحد رجال الدين الانكليز العاملين في ممباسة (وهي جزيرة إلى الشمال من زنجبار) بأن عدد تابعيه يختلف زيادة ونقصانا باختلاف كميات المؤن التي ترد اليه من الوطن . ولهذا، وهنا ايضا يجب العمل ببطء ودأب لكي نخلق عند الزنجي الشعور الديني قبل ان نحاول رفعه إلى اعلى درجات السمو الروحي .

ولا شك ان هناك من يعترض على ارائي هذه في الرقيق ويرميني بالانحياز وعدم الموضوعية في نظرتي إلى هذا الامر بسبب تربيتي العربية ونشأتي الشرقية وإلى هؤلاء أقدم شهادات اوربية لا يرعى الشك إلى شدة اوربية قائليها :

فقد كتبت الرحالة المستر ريشاد عام ١٨٨٠ من كوندا يقول :

« في ليلة ١٢ اكتوبر استيقظت على صراخ امرأة تحاول الدخول عليّ . وبعد الاستطلاع تبين لي ان هذه المرأة قد تخاصمت مع زوجها واتلفت له بضاعة

نفيسة وانها لذلك وبموجب التقاليد المحلية تصبح امة لنا . ولم يكن هذا هو الحادث الفريد من نوعه ولم يكن من النادر ان تجد رجلا يضيق بالحرية ويطلب الاسترقاق . وهذا برهان واضح قاطع على مبالغة وتحيز التقارير الكثيرة عن الرقيق والتي تصف احواله بألوان سوداء أو الوان لا وجود لها البتة .

ولا شك أن ظروف الحياة الجديدة للعبد احسن بكثير من ظروف حياته الماضية والرقيق عند العرب احسن حالا من غيرهم، فهم يعتقون اذا خدموا سيدهم باخلاص عشر أو خمسة عشرة سنة . وهم لا يتعرضون للضرب والجلد والجلد من اسيادهم الا في الحالات التي لا تنفع فيها وسائل العقاب الأخرى .

وقد كتب الانكليزي المستر جوزيف تومبسون في كتابه « رحلة إلى بحيرات اواسط افريقيا » ما يلي :

(وفي هذه البلاد (زنجبار) يعم الحبور والهناء جميع طبقات الشعب، وهي بلاد مثالية حيث يستطيع المرء ان يعيش يومه باربع شلنات فقط . ولا وجود في هذه البلاد للعبيد الجياع أو المعذبين . ذلك انه اذا ارتفع إلى السلطان خبر قسوة احد الأسياد على عبده فانه يعتق العبد في الحال ويحميه من شر انتقام سيده منه. ويبدو لي ان هذه الطبقة من الناس في هذه البلاد ينعمون بوضع من الراحة والاطمئنان ويتمتعون من الحرية بعشرة أضعاف ما يتمتع به الالوف من العمال والعاملات في بلادنا .

وقد لخص لي أحد الانكليز الذين عملوا لفترة طويلة في الافريقية الشرقية وعلموا عن كثب حقائق الأشياء ، لخص لي حركة مقاومة الرقيق بمظاهرها المختلفة بانها مجرد « دجل » .

وفي الختام لا بد ان أذكر هنا واقعة اخرى هي أن كوردون الذي كان يوما ما من اشد انصار مكافحة الرقيق بدأ فترة حكمه الثانية في السودان بالغاء جميع قوانينه التي أصدرها في هذا الخصوص . وهذا لا يعني ايمانه بضرورة وجود الرقيق في افريقيا ولكنه يعني ادراكه استحالة هدم التقاليد المتأصلة دفعة واحدة وتفضيله العمل على تشذيبها وتحسينها بالتدريج .



منظر عام لمدينة زنجبار

الفصل الحادي والعشرون

مؤامرة وفتنة

عشت بعد وفاة أبي مع أمي وخولة في قصر الثاني سعيدة برفقتهما وحنانهما، وقد دام هذا الهناء ثلاث سنوات ثم انتشر في البلد وباء الكوليرا وكان يطحن الناس طحنا ويقضي على العشرات من سكان الدار يوميا، وفي احدى الليالي وكنا في عز الصيف لم استطع سبيلا إلى النوم في فراشي لشدة الحر داخل غرفتي فطلبت من الخادمة أن تفرش لي على الأرض حصيرة لاضطجع عليها طلبا للبرودة والراحة.

وقد رحت في غفوة لا أدري أقصرت أم طالت ولكن ليتصور القارىء مقدار فزعي اذ استيقظت من النوم فوجدت أمي الحبيبة عند قدمي تتلوى من الألم. فسألتها مرتاعة عما بها فأجابتني بأنين وألم بأنها قضت نصف الليل على حالها هذا في فراشها واذ شعرت ان اجلها قد حان فقد زحفت الي لتكون بقربي في لحظاتها الاخيرة.

اذن فالوباء الوبيل قد أصاب أمي العزيزة ويوشك ان يقضي عليها، وزاد في ألمي وهلعي انني لا استطيع أن اقدم لها نفعا ولا أدفع عنها ضرا. وظلت تقاوم الموت يومين ثم أسلمت روحها الطاهرة وفارقتني إلى الأبد... وكان حزني عليها يفوق كل حد وكل تصور. فقد ظللت أحضن جثمانها متشبثة بها لم احفل بانذاري من خطر العدوى، ذلك لأني كنت أتمنى على الله أن يأخذني اليه مع الراحلة العزيزة، ولكن المرض تخطاني ولم يكن لي الا أن أقبل بقضاء الله الرحيم الحكيم.

وهكذا أصبحت وفي سن الخامسة عشرة يتيمة الأم والأب، مثلي مثل سفينة

فقدت دفئها فراحت تتخبط بين الامواج، فقد كانت أمي لي نعم المرشدة ونعم المادية وكانت تجنبني المسؤوليات، والآن أقف وحدي أمام واجبات ومسؤوليات لم أعرفها من قبل لاتجاه نفسي فقط بل تجاه الآخرين ممن عليّ أن أرعاهم وأعيلهم. وشكرا لله تعالى الذي اذ شاءت ارادته ان يثقل كاهل امرىء بالمسؤولية أعطاه القوة والجلد لتحملها. وعلى هذا فقد أعدت النظر في وضعي بهدوء ورتبت أموري بنفسي دون عون من أحد.

• • •

لكن الامور لم تسر على هذا النحو من الهدوء وراحة البال فما عتمت ان برزت في جو حياتي متاعب جديدة أخذت تتجمع وتتراكم حتى وجدتني منساقة دون اختيار مني إلى المؤامرة ضد سلطان البلاد أخي النبيل ماجد.

وقد بدا وكأن وفاة أبي كانت الاشارة المنتظرة لاندلاع نار الشقاق والخلاف بيننا نحن بناته وأبناؤه، بدل أن تكون عاملا للوفاق ولم الشمل بيننا. وبدا أن هذا الخلاف سيظل سائدا بيننا متحكما في علاقاتنا، فقد يكون من الصعب حقا ايجاد الوفاق بين ست وثلاثين اخا واختا تتقاسمهم جنسيات امهاتهم المتعددة وتجري في عروقهم دماؤهن المختلفة.

ولهذا فقد انقسمنا بعد وفاة أبي إلى مجموعات صغيرة متطاحنة متخاصمة فيما بينها خصاما شديداً ولا يزيد عدد أعضاء المجموعة عن الأربعة أو الخمسة أفراد. وقد حار اصدقاؤنا ومعارفنا في فهم سر هذه الانقسامات بيننا ونالهم من رشاشها الشيء الكثير فقد خسرنا أعز الأصدقاء وأحب الأقارب لمجرد انهم حاولوا الحفاظ على علاقاتهم الودية مع الجميع، ولم يكن للحياد معنى في أذهاننا أو مكان في تصرفاتنا فن كان صديق عدوي او لم يكن عدو عدوى فهو في الحالين عدوى على التأكيد.

وما يصدق على الأصدقاء والمعارف يصدق وبشكل أعنف وأقوى على الأخوة والأخوات فأعز اخوتي وأقربهم إلى قلبي صار من أعدائي لمجرد انه انتمى إلى جماعة غير جماعتي. وقد أعمانا الانفعال والحماس عن الرؤية والعقل فانطلقت مشاعر المقت والبغضاء تجاه بعضنا البعض تزداد وتتفاقم دون اي وازع أو مانع.

وانقطعت الزيارات الشخصية بيننا بل وانعدمت اللقاءات العابرة وحل محلها نشاط محموم لطبقة من الجواسيس والمخبرين رجالا ونساء ينقلون لكل فئة أخبار الفئة الأخرى وتحركاتها واقوالها مقابل عطاء سخي ونوال كثير .

وانفتحت الأبواب والآذان والقلوب والجيوب امام هؤلاء . فكانت العطاءات السخية تشجعهم على تلقط المزيد من الأخبار والاسراع بها إلى من يدفع اكثر من غيره وكثيرا ما طرقوا علينا الباب بعد منتصف الليل لينقلوا لنا خبرا ملفقا أو مبالغا فيه ولكننا كنا نتلقفه ونفرح به ونجزل من اجله العطاء، فاذا علمنا ان فلانا سيشتري حصانا أو دارا ذهبنا إلى البائع ودفعنا له أضعاف الثمن، واذا اشترت سيدة منا قطعة من الحلي أوصينا الصائغ أن يعمل لنا أحسن منها، وقد تسربت أخبار هذا الصراع التافه إلى خارج أسوار بيوتنا فأستغل الباعة والتجار ذلك وبدأوا يستغلون وضعنا هذا لصالحهم وهكذا صرنا نتصرف وكأننا مجانين وعميان .

• • •

وكان ماجد وخولة في تلك الأيام على أحسن حال من الوئام، وكان هذا مصدر بهجتي وسروري لأنني أحب الاثنين أصدق الحب من أعماق قلبي فكلاهما قد عاملني بعد وفاة امي وكأنني طفلته الوحيدة لكن علاقات الود بينهما أعتراها بعض الفتور بسبب أخينا برغش حتى انتهى بهما الامر إلى القطيعة التامة، ومع حبي وكلفي بأختي فيؤسفني ان اعترف بانها هي وليس ماجد كانت المخطئة والبادئة في القطيعة .

وبالنسبة لي وقد كنت في هذه الفترة في صراع داخلي مستديم فأنا أعيش يومي كله مع خولة ، نأكل ونشرب وننام معا ولكنها لما بدأت تتجنب ماجد وتظهر له العداء بمختلف الطرق دون ما سبب تصورت انني استطيع أن أبقى على الحياد بينهما، وفي الواقع كنت اجرؤ أحيانا على الدفاع امامها عن أخي البريء ماجد الذي كانت كل جريرته عندها انه وليس برغش، الجالس على كرسي الحكم في زنجبار .

ولكن المقت كالحب أعمى فلم يكن من سبيل إلى تغيير رأيها في الموضوع .

وقد مرّت عليّ شهور وشهور وأنا أتمزق بين اتجاهين واتلظى بين نارين لا أدري أيهما أختار وإلى أيهما انتمي فكلاهما عزيز على قلبي، ولكن حين حلت اللحظة التي لا يحتمل فيها التأخير وجدتني انساق دون شعور أو اختيار إلى جانب خولة مع عرفاني بانها على خطأ وضلال . وهذا عمى العاطفة، فقد أعماني حبي لخولة عن الروية وسلبني ارادتي وتفكيري وجعلني اسيرتها في كل ما تقرر أو تقول . لا أملك لنفسي الخيار . ولكن هل في الحب من خيار ؟ وهل نسمع لصوت الحق أو الضمير اذا ما علا صوت الحب وعربد، أو لسنا في سبيل الحب ومن أجله نتخلى عن مبادئنا وآرائنا وأفكارنا وأقدس معتقداتنا، كما تتخلى الشجرة الكبيرة عن اوراقها الذابلة في الخريف دون أن ينفعها جذعها القائم في الأرض أو يرد عنها بلاء .

• • •

وكان ماجد بنبل طبعه وطيب خلقه قد كسب حب رعيته واحترامهم، الا أنه كان كما نعلم عليلا لا يستطيع أن يشرف بنفسه على كل شؤون الحكم فتولى وزراؤه تصريف الكثير منها حسب اهوائهم واجتهادهم، وكان سليمان بن علي أبرز وزرائه واكثرهم نفوذا، وكان بارعاً خداعاً استطاع بالحيلة والدهاء أن يستحوذ على كل الامور وان يمد يده إلى كل شؤون البلاد وأن يجعل كلمته هي العليا وارادته هي النافذة، وان يحيل بقية زملائه الوزراء أصفارا إلى اليسار. وكان أنانيا جشعا مغرورا وقد دفعه غروره وحبه إلى الظهور بمظاهر السيد في كل مناسبة تسنح له رغم عدم بلوغه السن التي تؤهله للاحترام مما آثار عليه نقمة العرب الذين يقدرون للسن قدرها . وقد دفعه الخيلاء والطمع إلى أن يخطب لنفسه احدى أرامل أبي وكانت شركسية اسمها فاطمة وكانت في مثل عمر أمه ولكن دافعه إلى الزواج منها كان حب الظهور والطمع في مالها، وكانت هي من قلة العقل بحيث رضيت به زوجا لها ولكنها بعد ان ذاقت منه الأمرين ظلت تعض بنان الندم .

وقد استطاع هذا الماكر ان يزيد من نفوذه لدى ماجد، وأن يؤجج نار الفتن والشقاق بين أخوة السلطان واخواته ليضعفوا ويذهب ريحهم فيخلو لاطماعه الجو ويزداد جاها ونفوذا . وقد نجح في خطته فنشبت بين افراد عائلتنا المعارك وازدادت

الخصومات وساءت امور الحكم وبدأت الرعية تتململ، وكان لدى ماجد لحسن الحظ وزير آخر هو محمد بن عبد الله الشامسي وكان رجلا واسع الذهن نبيل المظهر والمخبر غني النفس كثير المال كريما جوادا، وكان مخلصا لسلطانه ولشعبه كارها لسليمان بن علي فوقف في وجه المفسدين والمتنفعين مما آثار نقمتهم عليه. ولم يكن ماجد ليثق بأحد غير سليمان لهذا لم يستطع محمد بن عبد الله الصمود واصلاح الامور والتقليل من سلطة سليمان ونفوذه.

• • •

وفي هذه الأثناء تدخل أخونا برغش محاولا أن يستغل لصالحه في نزاعه ضد أخيه ماجد، مظاهر العداء والخصام بين أهل بيتنا ومظاهر التذمر بين أبناء الشعب.

وسر العداء بين الاخوين ماجد وبرغش، ان برغش هو المرشح للسلطنة من بعد ماجد الذي لم ينجب الا بنتا واحدة، وكان من المعترف به ان برغش هو ولي العهد باعتباره اكبر الاخوة في زنجبار، ومن عادة أولياء العهد في الشرق أن يستعجلوا جلوسهم على العرش دون الالتفات إلى حقوق الجالسين عليه فعلاً سواء كانوا اخوتهم ام اباءهم ولا يتعففون في سبيل الوصول إلى السلطة عن اللجوء إلى كل وسيلة ولو خرجت عن سواء الخلق الكريم وشرف الضمير واعراف المجتمع. وانطلاقا من هذه القاعدة، فان برغش الذي ساءه ان تفشل تدابيره للقبض على أعنة الامور عند وفاة ابيه السيد سعيد، لم يفقد امل الاطاحة بأخيه ماجد، فظل يدبر ويخطط في سبيل هدفه هذا.

• • •

وقد اتخذ سعيه منعطفاً خطيراً بعد انتقاله واخته موجة من بيت الموتني واستقراره في المدينة، حيث صادف سكناه في بيت مقابل للبيت الذي أسكنه وخولة والذي كان يوما ما مسكنا لفرسان الأميرة الفارسية شيزادة.

وبهذه النقلة دخلت حياتنا طورا جديداً لا أستطيع كأخت ان أبوح وأفضح وقائعه التي كانت تجري في الخفاء، وان كان بعضها يستوجب التشهير، ولكنني أعف عن ذلك حفاظا على سمعة العائلة فعلى الرغم من كل ما فعله معي برغش

من القسوة والابلام فانني لا زلت اؤمن بالمثل العربي الذي يقول ان مياه البحر كلها اضعف من ان تغطي على قطرة من دم القربي [1] .

وما سكن برغش بجوارنا حتّى نما الود والتعاطف بينه وبين خولة، فاصبح يقضي سحابة يومه في بيتنا لا يفارقنا الا لماما وقد اهمل بيته واخته موجة مما اغاظها واثار ثائرتها ، واطلق لسانها بالنيل من خولة علنا وامام الزائرين فكانت النتيجة شجارا حاميا بين الاختين انتهى بالقطيعة التامة بينهما، وساءت الامور بينهما حتّى انتفى الهدوء والسلام بين البيتين . وكنت سعيدة لانني لم اشارك في هذا النزاع ولم اتدخل فيه ولكنني لانني كنت موضع السر للاختين فقد انجررت إلى النزاع رغما عني .

ولم تكن خولة محقة في معاملتها لموجة، ولكن خولة لم تكن في طورها فى تلك الأيام فقد كان برغش معبودها ومثلها الأعلى الذي لا تتأخر عن التضحية في سبيله بكل شيء، ولانها كانت بالنسبة لي كل شيء في حياتي فقد تبعتها في هذا الطريق بفكر مغلق وعيون مسدودة، وان كنت في بعض الأحيان أحس بالعطف الصادق والتقدير نحو موجة، فعلى الرغم من غرورها فانني لا استطيع ان انكر لها استقامتها وسلامة تقديرها وحسن ادراكها، فقد كانت الوحيدة بيننا التي استطاعت أن تدرك عقم اعمالنا وسوء العواقب التي ستعود علينا نتيجة التآمر على ماجد، وكانت تنبهنا إلى ذلك وتنصحنا فيه دوما .

وكانت شيمبو وفارشو ابنتا اخي خالد يسكنان بيتا مقابلا لبيتنا أيضا وكان حبهما لي عظيما، وبسببي وعن طريقي امتد حبهما إلى عمهما برغش ودخلا عصبته وأصبحت بيوتنا الثلاثة المتقاربة في المدينة مركزا خطرا للتآمر على ماجد .

• • •

وكان هم برغش وهدفه الأول ان يجمع حوله اكبر عدد يستطيعه من رؤساء القبائل . والنظام القبلي العربي نظام هرمي غريب في تماسكه وانضباطه . فالعرب منقسمون إلى عدة قبائل والقبائل إلى عشائر ثم إلى افخاذ ثم إلى بطون وتختلف

---

(١) لم نستطع التعرف إلى الأصل العربي لهذا المثل .

كل من هذه التقسيمات من حيث عدد السكان والأهمية، والفرد في القبيلة يطيع رئيسها طاعة عمياء ليس إلى نقضها من سبيل. فالاخلاص للقبيلة وطاعة رئيسها هما جوهر كيان العربي وابرز خصائصه. وكل عربي يحمل إلى جانب اسمه اسم قبيلته ويضع الاسمين في كل ورقة او وثيقة يوقعها. فأنا مثلا أوقع «سالمة الالبوسعيدية»، والبوسعيد هو اسم قبيلتنا الصغيرة الباسلة.

لهذا صار من الطبيعي ان يسعى كل أمير إلى كسب أكبر عدد ممكن من هؤلاء الرؤساء ليكسب بالتالي الاعداد الضخمة من أفرادها عند الحاجة ولكن كسب ولاء رئيس القبيلة ليس بالأمر الهين بل لا بد له من مفاوضات ومساومات، وعطاء ومكافآت وعهود ووعود.

وقد استطاع برغش أن يجمع حوله بعض هؤلاء الرؤساء حتى أصبح له بلاط صغير آثار الضجة والريبة في المدينة. فقد ظهر ان غالبية اتباعه هؤلاء من الانتهازيين ذوي السمعة السيئة اما الرؤساء المحترمون ذوو السطوة والنفوذ فقد ابتعدوا عن برغش حين وضحت لهم خططه واهداف مؤامراته، فحل محلهم جمع آخر من الانتهازيين الطامعين الأنانيين الذين لا هم لهم الا تحقيق اطماعهم وشهواتهم في المناصب والنفوذ دون ما نظر إلى مصلحة برغش نفسه الا على انها وسيلة لتحقيق غاياتهم المضمرة.

ولما تجمع عند برغش عدد كاف من هؤلاء قرر البدء بتنفيذ خطته وتتلخص بالقاء القبض على ماجد وتنصيب برغش سلطانا على البلاد بدلا عنه. وكانت الاجتماعات تعقد في بيوتنا، تعقد في جنح الظلام أو أواخر الليل ويتسلل اليها المتآمرون وكان يرأسها برغش نفسه ويبحثون فيها احتمالات الحرب الأهلية ووسائل الاستعداد لها.

وسيطر على بيوتنا في هذه الفترة جو محموم من الريبة والذعر والتكتم وفقدان الثقة فكنا نشك بأقرب الناس الينا ونتوهم بأن الناس تراقبنا وتتجسس علينا وتنقل أخبارنا، وكنا زيادة في الحيطة والكتمان نصرف الخدم إلى بيوتهم ونقوم بأنفسنا بأشغال البيت ابعادا لهم عن الاطلاع على أحاديثنا وخططنا. كما امتنعنا عن استقبال الزوار أو زيارة أي أحد.

وكان برغش يزداد انفعالا وحدة طبع يوما بعد يوم فلم يعد يطيق ضبط أعصابه وكتمان أمره، بل كان لحدة طبعه وشدة انفعاله أقلنا تكتما وأكثرنا تسرعا في الأقوال والأفعال وأظهرنا عداء للسلطان .

وقد كشف النقاب عن نواياه العدوانية بانقطاعه التام عن حضور مجلس السلطان اليومي، أو البرزة التي سبق لنا الكلام عنها، وحضورها يوميا واجب على كل كل فرد من افراد الأسرة الحاكمة وعلى كل رجالات البلد وعلامة من علامات الولاء والاخلاص للسلطان وهذه سنة أستنها والدي منذ قدومه إلى زنجبار، وهي عادة قديمة في وطننا الأول عمان، الا أن برغش أخذ يتغيب عن الحضور اكثر أيام الأسبوع ثم انتهى به الامر إلى القطيعة التامة وهو تصرف اقل ما يفسر به انه عداء سافر للسلطان يستحق الجزاء والعقاب .

وقد أخطأ برغش في التسرع بالكشف عن نواياه، اذ نبه ذلك السلطان وانصاره لأخذ الحيطة والحذر وتشديد الرقابة كما فرق شمل أنصاره خوفا من انكشاف أمرهم فأضاع بذلك فرصة المباغتة في القاء القبض على ماجد ومن ثم أفسد خططه جمعاء .

• • •

وقد أبى نبل أخي ماجد الا أن يبذل معي آخر محاولاته ليثنيني قبل فوات الاوان عن المزيد من التورط في الأعمال الطائشة التي كنت منساقة اليها .

ولأنه نظرا للظروف القائمة لا يستطيع زيارتي في بيتي بنفسه، ولأنني انقطعت منذ وقت طويل عن زيارة بيته، فقد أرسل اليّ احدى زوجات أبي، من صديقات أمهاتنا والعزيزات علينا للكلام معي في الموضوع . وقد توسل اليّ بواسطتها ان ارجع إلى جادة العقل والصواب وأن أترك العمل مع أعدائه وخصومه وهو عمل لن يعود اليّ بالنفع حتى لو قدر لجماعتي النجاح في خطتها، لأنهم يستخدمونني الآن لحاجتهم اليّ ولكنهم سينبذونني حين تنتفي الحاجة وحين تتحقق مآربهم وتتكشف اطماعهم عند توزيع المغانم والأسلاب . وعند ذلك سأندم كثيراً على سوء فعلتي ولات ساعة مندم، ثم أنذرني بانني اذا اصررت

على جحودي وعنادي فانني يجب أن اتحمل مسؤولية ذلك كاملة لأنه لا يستطيع أن يستثنيني ويحميني من بين الجماعة، فهو لا يستطيع أن يجعل بيتي بمنجاة من تناول المدافع اذا ما قذفت بيوتنا بالمدافع أو يمنع طلقات البنادق من الوصول إلى صدري اذا ما اشتبكنا في معركة مع جنوده .

ولكن مع الأسف فقد وصل انذار أخي ماجد متأخرا . فقد جندت نفسي لقضية خولة وبرغش ولا أقدر عن النكوص عن وعدي لهما . وقد فارقتني زوجة أبي والدموع تنهمر من عينيها . وبعد سنوات من هذا الحادث التقيت بها فذكرتني بلقائنا هذا وبنبل ماجد نحوي وصدق تكهناته ولكن السيف كان قد سبق العذل.

ولم تمضي زيارة هذه الرسولة العزيزة دون أثر في الفكر و خز في الضمير ، وخشية من وسوسة البال أو انشغال الذهن او من الاتهام باني ذات وجهين فقد قررت أن أتجنب كل صلة أو لقاء مع ماجد وأن انصرف بكل جهدي وقواي إلى قضيتنا .

• • •

وكان من السهل على ماجد في هذه الفترة أن يأمر بالقاء القبض على أخيه برغش ورفاق السوء ويلقي بهم في احدى القلاع ، لكن ماجد لم يكن يحب القسوة والعنف وكان لا يزال يأمل أن يرعوي اخوه ويعود اليه معتذرا اذ لم يجد ماجد سببا لهذا العداء الذي يعلنه ضده اخوه برغش . كما كان يخشى انه اذا عنف مع أخيه ان يؤدي ذلك إلى قطيعة تامة بينهما لم يكن يريدها ماجد . وفوق هذا أو ذاك فقد كان ماجد يريد ان يجنبنا نحن النسوة الأربعة المشتركات في هذه المؤامرة — الاهانة وعواقب الامور .

لذلك فقد أغلق ماجد عينيه وأذنيه عما يدبره ضده اخوه برغش و نحن معه ، ولكنه تجاه تمادي برغش في كشف نواياه العدوانية ضد السلطان لم يجد ماجد في آخر الأمر بدا من فرض الرقابة على بيت برغش، على قلة جدوى هذه الرقابة، لان الجنود الذين اوكلت لهم المهمة كانوا من البلوش، وهم على جانب كبير من الولاء الأعمى لعائلتنا بحيث لا يمكن ان يفرطوا بأحد أعضائها . وكان المتآمرون

يعرفون نقطة الضعف في جنود المراقبة ويستغلونها احسن استغلال . وكان الرجال معرضين للتفتيش والمتابعة وكان يلقى القبض على بعضهم بين الحين والآخر، لذلك كنا نحن النساء خلافا لكل الاعراف المحلية، ننفذ المهام الخطرة في انحاء المدينة اذ لا يجرؤ احد على تفتيشنا أو ملاحقتنا وكنا جميعاً نعمل ونكد في حركة دائبة وعمل مستمر وكأننا خلية نحل، وكلنا يسعى لاستكمال استعداداتنا وجمع مؤونتنا في مارسيليا مقر الثورة الجديد وخاصة بعدما وصلت الينا الأنباء بقرار الحكومة القاء القبض على المشبوهين من رجال حركتنا وابعادهم خارج الجزيرة .

ومع أنني كنت اصغر النسوة المتآمرات سنا الا أن معرفتي للكتابة أهلتني لمنصب « السكرتيرة العامة » للثورة ان صح هذا اللفظ . وكنت بهذه الصفة اقوم بكافة المراسلات مع رؤساء القبائل واطلع على اسرار الاستعدادات والخطط وكنت في سن يسمح لي بأن أحس بوخز الضمير وقلق الوجدان وانا أصدر الاوامر لاعداد البنادق والبارود والرصاص لقتل الابرياء من اقرب الناس اليّ وأحبهم إلى قلبي... ولكن ما العمل الآن ؟ هل يمكن التراجع الآن وهل يمكن أن أنكص عن وعدي لأختي خولة واتركها وحيدة في ساعة الخطر ؟ لا لا يمكنني ذلك، لا عطفا على القضية ولا ولاء إلى برغش وانما هو الحب لخولة .

كان برغش حبشي الأم وكان لذلك حاد الطبع عصبي المزاج ولكنه كان رجلا ذكيا يفوقنا جميعا بالدهاء والفطنة، وكان متكبرا مستبدا وله شخصية آمرة اما عن مقدار ما يتمتع به من حب وتقدير في عائلتنا فدليله الذي لا يخطىء ان ما من احد من افراد عائلتنا الكبيرة انضم إلى حركته غيرنا نحن الفتيات الأربع وغير صبي واحد قاصر هو اخي عبد العزيز الذي لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره، والذي – وهنا يكمن السر – تتولى خولة القوامة عليه . ولعل السبب في هذه النفرة والكراهية له هو ما تسبب به من دفن ابي سرا دون فسح المجال لتشييعه تشييعا يليق بشخصه ومكانته .

ولم يقدر لبرغش أن يعرف حقيقة عواطف الاهل تجاهه الا حين رأى نفرة الناس من حركته .

ورغم شدة الرقابة فلم تفتر همتنا او يقل نشاطنا بل دأبنا على عملنا المستمر واجتماعاتنا المتوالية بنشاط اكثر لكن بظروف اشد خطورة حتى تم تحديد يوم الثورة . ولكن ما ان تم تحديد هذا اليوم حتى أحيط بيت برغش وفيه صاحبه بمئات الجنود . مع الاوامر المشددة بقطع كل اتصال له مع العالم الخارجي حتى يستسلم صاحبه باختياره . ورغم ان هذا الاجراء يعتبر ضربة قوية على آمالنا الا اننا مضينا في جهدنا . وكنا ننتظر ان يحدث الشيء نفسه لبيوتنا وهذا يعني القضاء على كل آمل لنا . ولكن الواقع كما نمى الينا بعدئذ ان بعض الوزراء نصحوا اخي السلطان بمحاصرة البيوت الثلاثة، وهي كل مراكز الخطر والتآمر، لكن ماجد رفض هذه النصيحة لانه لم يرد أن يعرض بيوت اخواته للاهانة والتشهير .

وحالما احاط الجنود ببيت برغش خرجنا نحن المتآمرون والمتآمرات الستة إلى نوافذ بيوتنا اثنان في كل نافذة نتداول في الأمر وكنا على وشك الانهيار والاستسلام لولا عناد برغش وصموده .

وفي هذه اللحظات قفزت إلى أذهاننا حقيقة مذهلة وهي احتمال نفاذ الماء من بيت برغش . فلم تكن بيوت زنجبار آنذاك تعرف انابيب الماء وانما كان الماء ينقل ويخزن فيها، وقد خزن برغش كميات كبيرة من الماء في بيته ولكن هذه الكميات لا تصلح للشرب بعد خزنها يومين أو ثلاثة أيام في الطقس الاستوائي الحار . وانقطاع المياه عن دار برغش معناه عدم استطاعته المقاومة اكثر لذلك فكرنا في طريقة لنقل ماء الشرب إلى أسيرنا، وجادت قريحة احدى النساء عن فكرة هائلة وهي عمل انابيب من اقمشة اشرعة السفن وايصال الماء بها . وسرعان ما جيء بالقماش وعملت عشرات الأيدي في خياطته حتى غدا صالحا لنقل الماء ومع اطلالة الفجر كان الماء البارد يجري في بيت أخينا الأسير، ولحسن الحظ فقد كان الجنود يقفون على الباب الذي من جهة البحر فقط فلم يروا ما كنا نصنع أو لعلهم رأونا وغضوا الأبصار .

وبعد اعتقال برغش فقد وقع على عاتقنا عبء كبير، فاذا كنا قبلا مجرد مشاركات فقد أصبحنا الآن محور العمل كله وعلى جهودنا الآن تتوقف نتائج

العملية ذلك اننا صرنا واسطة الاتصال الوحيد عن طريق النافذة بين برغش وبين اتباعه في الخارج. وحين حاصر العسكر بيت مرغش كان معه في البيت عدد كبير من الرؤساء فاعتقلوا معه ولم يكن مقامهم في الدار مريحا لانعدام حرية الحركة داخل الدار لسبب وجود موجة في داخله وكان علينا ان ننقل رسائلهم إلى اتباعهم وأهليهم. وكان علينا الآن أن نغير خططنا كافة تبعا لتغير معطيات الموقف ولذا فقد تقرر ان يجتمع أنصار برغش في مقاطعة مرسيليا قرب العاصمة، وهي مزرعة تعود إلى ابنتي أخي خالد، حيث يتحصنون هناك.

ولم تكن الفكرة سيئة ذلك لأن مرسيليا يمكن ان تحول بسهولة إلى قلعة حصينة تضم بضع مئات من الرجال يمكنهم الصمود فيها والدفاع عنها امدا طويلا، ومن هذا المركز الجديد يمكن للحركة ان تتسرب إلى كل انحاء الجزيرة ومن ثم تطبق على العاصمة من جميع نواحيها وعلى هذا الأساس بدأنا ننقل السلاح والعتاد والمؤن إلى هذه البقعة بجهد دؤوب استغرق كل قوانا ولكنه انتهى بنجاح تام.

ولم يفكر احدنا بأن يكون للثورة حساب خاص، بل كان كل منا يصرف من موارده الخاصة ما تقتضيه الثورة من نفقات السلاح والعتاد والجنود والمؤن ولما تم نقل جميع الأشياء إلى مقر الحركة الجديد في مرسيليا اجتمعنا نقدح زناد افكارنا في سبيل ضرب ضربتنا النهائية. وقد انتهى بنا القرار إلى وجوب اطلاق سراح برغش من أسره أولا ونقله إلى مركز الحركة للاشراف بنفسه على قيادتها. ومع تقديرنا للخطر الكبير المترتب على مثل العمل، فان الخوف لم يكن يعرف طريقه إلى قلوبنا المندفعة ولذلك وضعنا خطتنا لهذا الغرض وبدأنا بتنفيذها فورا.

ففي أمسية لا ينمحي ذكراها من ذهني أبد الدهر، تركت وخولة بيتنا يتبعنا رهط من النساء، وفي الشارع التقينا حسب خطة مرسومة بأبنتي أخي ومعهما حاشية من النساء أيضاً، وتوجه الركب إلى بيت برغش وما ان وصلنا عتبة الدار حتى حدث ما كنا نتوقعه فقد منعنا الجند المحيط بالدار من الولوج اليها وأمرنا بالعودة دون أن يعرف هوياتنا. وكان لا بد لنجاح خطتنا من التصرف بجرأة واقدام، لذلك صحت بأختي خولة ... « خولة دعينا نذهب إلى ضابط الحرس

ونخبره بهوياتنا وسيدعنا ندخل ولا شك »، وكانت هذه الفكرة ـ مجرد الفكرة بحد ذاتها ـ تعتبر خروجا على العرف والتقاليد، لكن دقة الموقف لم تكن تسمح بالتردد والاحجام وخطورة المهمة تبرر كل وسيلة وان خالفت اللياقة الاصول. وذهبت وخولة ودخلنا على الضباط في مقرهم، وفي لهجة صارمة ومؤثرة عرفناهم بهوياتنا وسألناهم كيف يبيحون لجنودهم أن يمنعونا من دخول بيت أخينا. وقد فتحت الدهشة عيونهم وعقدت المفاجأة السنتهم فلما نفذت كلماتنا إلى أدمغتهم وادركوا معناها اقبلوا الينا بجميل الاعتذار ويتوسلون بطلب الصفح والغفران منا.

ولقد سمحوا لنا بزيارة قصيرة واذنوا للموكب بالدخول وقد احسست بالخجل في نفسي وأنا استغل طيبة هؤلاء القوم في سبيل غاية اجرامية سيدفعون هم ثمنها عقابا صارما اذا ما انكشف أمرها.

وقد وجدنا برغش وأخته موجة في أشد حالات الذعر والاضطراب، فقد ابصرا في النافذة وصول موكبنا وشهدا موقفنا مع الحرس وخشيا ان تفشل جهودنا في الحصول على اذن بالدخول فننكص على أعقابنا ونتركهما لمصيرهما. وكان قد سمح لنا بزيارة قصيرة جدا وكنا نرجو ان نوفق بالخروج بأخينا الأسير من الدار كما وفقنا بالدخول اليها. الا أن دون خروجه مخاطر وأهوال. فمن المستحيل أن يخرج برغش من القصر علانية فهناك اوامر صريحة بمنعه وباطلاق النار على كل من يحاول ان يخرق الحصار أو يخرج من الدار قسرا، ولا سبيل لنجاته الا بالتنكر بملابس النساء. لكن المشكلة العويصة التي برزت أمامنا هي ان برغش بكبريائه ورجولته أبى ان يرتدي ملابس النساء ويهرب بها. وكان الموقف صعبا وخطيرا، ويزيد من خطورته قصر فسحة الوقت الممنوحة لنا واحتمال وصول خبر دخولنا إلى الجهات العليا فتأمر بمداهمتنا أو اتخاذ أي اجراء مشدد آخر يعرقل تنفيذ خطتنا، وكنا في وضعنا ذلك كمن يقف على فوهة بركان لا يدري متى ينفجر فيبتلعه.

وبعد جهد كبير رضخ برغش لمطلبنا وسمح لنا أن نضع عليه عباءة سوداء

على أن نترك عينيه دون غطاء وهكذا فعلنا مع الصغير عبد العزيز أيضاً ووضعنا برغش وهو بكامل سلاحه – بين اطول امرأتين في الموكب لنخفي طوله الفارع واتجهنا نحو الباب نتهادى ونتجاذب أطراف الحديث متظاهرين بالانشراح والحبور في حين كنا في الواقع نرتجف خوفا وقلقا خشية ان يشك الجنود فينا فينكشف أمرنا وتكون الواقعة السوداء والموت الزوام ولكن الجنود افسحوا المجال لنا بالاكرام اللائق لنا ومررنا، ويا للحمد سالمين، ونحن لا نصدق اننا اجتزنا هذه الأزمة ونجونا من هذه الشدة.

وكنا قد كتبنا بخطتنا إلى بعض الرؤساء وطلبنا اليهم ان ينتظرونا واتباعهم في وقت معين ومكان معين خارج المدينة، فاذا لم نصل اليهم في ذلك الوقت والمكان فمعنى ذلك تأخير تنفيذ الخطة وعليهم ان ينتظروا منا تعليمات جديدة. وكان المكان بعيدا عن المدينة ويقع في مزرعة كثيفة نعبر للوصول اليها مزارع الحنطة والشعير لذلك كان علينا ان نسرع في سيرنا وان نحث الخطى إلى ذلك المكان البعيد قبل فوات الوقت المحدود. وقد سرنا بداخل المدينة سيرا طبيعيا ولكننا ما ان وصلنا ضواحيها حتى اطلقنا سيقاننا الرقيقة بأحذيتها المطرزة بالذهب والفضة نسابق بها الريح ونقفز ونتعثر بها وسط ذلك الظلام فوق الحفر والحواجز وحقول القمح وسواقي المياه... وهكذا سرنا حثيثا حتى أخبرنا الخدم بوصولنا إلى المكان المقصود وكان علينا نحن الفتيات ان نحتشم قليلا. ثم سمعنا سعالا خفيفا كان هو الاشارة المتفق عليها ثم علا صوت بالسؤال: صاحب السمو؟ فأجابه برغش بالايجاب فارتفعت الهتافات «الحمد لله»... «الحمد لله» وهكذا وصلنا هدفنا سالمين.

وكان برغش طيلة الطريق متوتر الاعصاب ظاهر الهياج والانفعال ولم ينبس بكلمة أبدا ولكننا ما ان صرنا بين اتباعه حتى خلع واخوه الصغير عبد العزيز لباس التنكر واذ كان عليهما ان يواصلا السير ويصلا مرسيليا في نفس تلك الليلة فقد ودعانا مسرعين واختفيا وانصارهم عنا في جنح الظلام الدامس.

وظللنا فترة من الوقت وحيدين في ذلك القفر المظلم ننظر خلف الاشباح

الراحلة بمزيج من الرهبة والاشفاق وقد انهك التعب اجسامنا وهد قوانا ولكن الليل كان قد تقدم بنا وآن لنا ان نعود إلى بيوتنا، وكانت رحلة العودة هادئة بطيئة صامتة يتخللها الخوف من الظلام السائد الآن والفزع مما سيأتي به ضوء النهار، حتى اذا دخلنا المدينة تفرقنا جماعات صغيرة ووصلنا إلى بيوتنا عن طرق مختلفة.

ولم يكن لنا طبعاً إلى النوم من سبيل ولم يطرق اجفاننا البتة على شدة حاجتنا اليه ليخفف عن اعصابنا المشدودة توترها ويعيد إلى اجسامنا المتعبة راحتها وينسينا القلق وسوء الافكار.

وفي غمرة الوحدة والهدوء في غرفنا بدأنا نتمثل ونستعيد شريط الاحداث المرعب ثم تنتقل بنا الافكار إلى ما سيأتي به الغد من كوارث وشرور أو بشائر وأفراح. وبدأت متاعب الساعات الأخيرة تفعل فعلها في اجسامنا ونفوسنا فاذا كنا نستطيع إلى حد ما ان نحتمل القلق الفكري والتوتر العصبي فان اجسادنا المترفة لا تستطيع ان تتحمل ذلك التعب الجسمي التي حفل بها هذا المساء، لهذا ونتيجة الخوف والأرق والأعياء بدأ انيننا يتعالى وانخرط بعضنا بالبكاء من شدة الاوجاع، في حين اغمي على البعض الآخر منا من شدة التعب والارهاق. وكانت فوق هذا افكارنا السود وضمائرنا المثقلة بالاثم تتخيل صوت حوافر الخيل أو صليل السلاح في كل صوت أو نأمة وتتصور في كل حركة جنود الحكومة يقتحمون علينا دورنا ليأخذونا إلى حيث نلقى الجزاء العادل على ما صنعت أيدينا من سوء. وهكذا قضينا الليل الطويل بالقلق والأرق ولا عزاء لنا الا اننا اتممنا أصعب اهدافنا ووهبنا أعز أصدقائنا الحرية والسلامة.

وارتفع آذان الفجر وصليت صلاة الفجر مع خولة في غرفتها وكانت عادتنا أن تصلي كل منا في غرفتها. ولأننا لا ندري ما سيطلع علينا به النهار فقد ودعت خولة وودعتني. وقد صدق حدسنا، فما حلت الساعة السابعة حتى جاءتنا الرسل بأسوأ الأخبار:

فقد علمت الحكومة بكل ما حدث اثناء الليل. فان احد الجنود البلوش الحراس على بيت برغش قد تعرف عليه عند خروجه رغم تنكره، وقد منعه

ولاؤه واخلاصه للمرحوم أبي أن يفضح ابنه ويشهر بناته . فلم يخبر الحكومة بذلك خاصة وانه اعتقد ان قصد برغش من مغادرة الدار هو الفرار من زنجبار والابتعاد عن المشاكل والأخطار .

وقد روى الريفيون القادمون ببضائعهم إلى السوق في الصباح انهم شاهدوا جموعا كبيرة من العرب المسلحين تتجه نحو مرسيليا مسرعة فربط الناس بين هذه الأخبار وأخبار المؤامرة المنتظرة على سبيل الظن لا اليقين .

وعند هذا الحد وجد الجندي البلوشي ان من واجبه الآن اخبار الحكومة بما يعرف عن هروب برغش . وقد اهتمت الحكومة بأخباره ولما سئل بالتحقيق عن أسباب تأخره في الادلاء بمعلوماته ولماذا لم يتخذ ما يلزم من الاجراء ضد قافلة النساء أجاب انه يفضل أن يموت الف مرة على أن يتسبب في أقل أذى لبنات السيد سعيد ولا أدري ما حدث لهذا الجندي الوفي النبيل الذي أوقعه سوء أعمالنا في صراع بين ضميره وواجبه .

واذ وصلت الامور إلى هذا المنعطف الخطر فلم يبق للحكومة بد من أن تضع وفي الحال حدا حاسما لهذه الثورة السافرة . ولذلك فقد ارسلت بضع آلاف من جنودها إلى مرسيليا لقمع الثورة وتأديب الثائرين وقد كنا نحن الثوار قد خططنا لحركتنا على أساس المباغتة أو المناوشات الطفيفة ولم تخطر في حسباننا المجابهة الواسعة مع قوات الحكومة في ميدان القتال . لذلك فما أن وصل جيش الحكومة إلى مرسيليا حتّى فتحت مدافعه النار على ذلك المكان البديع فدكت قصره دكا ثم اشتبك جنوده مع رفاقنا بمعركة ضارية سقط فيها منا مئات الضحايا ، وقد فرّ من فرّ من رفاقنا واستسلم الباقون لقوة الحكومة .

وقبل ان تصلنا أخبار المعركة بالهزيمة كنا نظن ان برغش في مرسيليا ولكن اختنه موجة اخبرتنا انه عاد مدحورا مهزوما ودخل بيته خلسة وانه يمتنع عن رؤية كل احد . وقد علمنا انه مصمم على معاودة الكفاح حتّى النهاية . رغم انه لم يبق إلى جانبه غير اخيه عبد العزيز الذي أبدى رغم صغر سنه احسن ضروب الشجاعة والاقدام وغير نفر قليل من انصاره القدامى امتلأ بهم داره ، وكان يأمل

أن يستطيع بهم أن ينفذ خطته التي فشل في انجاحها حين كانت تحت امره عشرات أضعاف عدد هؤلاء ... ومع الأسف وعلى الرغم من خسائرنا في المال والرجال والأملاك والعبيد ورغم نفرة اخوتنا واقاربنا وكل أهلينا منا فقد أعمانا الحماس والتعصب عن رؤية وقائع الامور وعن تصور الفشل الذريع الذي ستنتهي اليه خطط برغش.

وقد شاع بين الناس خبر عودة برغش ومن الطبيعي ان يظن الجميع انه ينوي الاستسلام إلى أخيه السلطان رغم ان هذه الفكرة لم تخطر لبرغش على بال. وقد أراد ماجد نفسه ان يحفظ لأخيه كرامته ويسهل عليه امر الاستسلام فبدلا من أن يرسل اليه الجنود لاعتقاله، أوفد اليه سعود ابن أخينا الأكبر هلال ومعه رسالة بالوعد بالعفو والغفران ونسيان ما حدث شريطة أن يتعهد برغش بالاقلاع عن مثل هذه الأعمال مستقبلا.

وكان سعود رجلا محترما ووديعا محبا للخير، وكان أكبر من برغش سنا، فذهب بنفسه ودون حرس او جند إلى بيت برغش تدليلا على حسن نية السلطان وسلامة قلبه لكن برغش رفض السماح له بدخول الدار وطلب اليه ان يقول رسالته من الشارع، ولكن سعود رفض ذلك طبعا وأصر على الدخول وبعد طول انتظار فتح الباب مواربا بما يكفي لمرور سعود بعسر ومشقة، وما ان صار في صحن الدار حتى وجد نفسه مضطراً إلى ان يتسلق السلم إلى الطابق الثاني حيث حيث كان برغش واخته. وأقول «يتسلق» وأنا أعنيها حرفيا فقد كان السلم مسدودا بأنواع الحواجز والعراقيل والطريقة الوحيدة للصعود هي أن يتسلق درابزين السلم وما انهى هذه المشقة حتى كان عليه أن يزحف إلى غرفة برغش من خلال باب صغير بعد أن رفعت من خلفه الصناديق الثقيلة. ولكن نفس برغش المغرورة لم تكتفي بهذه الاهانة الجسيمة لابن أخيه ومبعوث السلطان بل زاد عليها رفضه التام لعروض السلطان السخية.

وتجاه هذا العناد والرفض لم يجد ماجد بدا من استعمال العنف والقوة ضد برغش وبنفس التصميم الذي أراد أن يتجنبها به وبذل في ذلك الكثير من الصبر والانتظار.

وقد نصحه القنصل البريطاني بوجوب وضع حد نهائي لهذه الاضطرابات التي طال أمدها واتسع مداها ووعده بتقديم المساعدة له في هذا السبيل والوقوف إلى جانبه حتى النهاية . وصدف أن كان في الميناء سفينة حربية بريطانية صغيرة فتم الاتفاق أن يتحول مرساها إلى قرب بيت برغش لتقوم بانزال قوة من مشاة البحرية إلى البر للزحف على البيت فاذا لم تؤد هذه الاجراءات إلى استسلام برغش فعند ذلك تبدأ مدافع السفينة بالقصف الحقيقي لبيت برغش .

وقد استيقظت صبيحة ذلك اليوم وذهبت إلى غرفة خولة لأحييها تحية الصباح، وكانت غرفها تطل على البحر، فوجدتها في أشد حالات الاضطراب والهلع، وما رآتني حتى بدأت تلومني وتعنفني لغيابي، ثم شرحت لي الوضع واستطعنا من نافذة غرفها ان نرى الزورق البريطاني وبحارته .

ولم يكن في الخطر الحال شك هذه المرة . كما لم يكن عندي شك ان السبب هذه المرة هو عناد برغش العقيم، ولو انه رضخ لمساعي أخيه السلطان لجنب الجميع احداثا دامية جديدة لا يمكن ان تعود عليه بالنفع . ولما شرحت رأيي هذا لخولة انهالت علي لوما وتقريعا واتهاما بأنني لم أكن مع القضية في حقيقة نفسي وأعماق قلبي .

ولقد أذهلني ما سمعته من خولة فأجبتها بحدة وانفعال « وما الذي كان يجب علي أن افعله لأبرهن على صدق ولائي للثورة ؟ ألم أضحي بنفسي وأحملها على المكاره ؟ ، ألم أضحي بمالي وثروتي هل تأخرت في أداء ما طلب إلى أداؤه . وهل ضاعت كل هذه التضحيات وانمحت واصبحت الآن في موضع الاتهام والظنون لمجرد انني في ميزان العقل والمنطق لم أعد أرى نفعا في الاستمرار بهذا العمل الطائش؟ »

وقد آلمني هذا الاتهام، ولعلني لم أكن لاكترث له لو جاءني من شخص آخر غير حبيبتي خولة . التي في سبيل حبها وارضائها اقدمت على ما أقدمت عليه .

• • •

وفي اثناء حديثنا هذا بدأ البحارة باطلاق نار بنادقهم بغزارة وتصميم على بيت برغش، وقد اخترق الرصاص نوافذ البيت وكادت واحدة منها ان تصيب

برغش نفسه لذا فقد انسحب واخته واخوه عبد العزيز إلى القسم الخلفي من الدار ابتغاء السلامة والنجاة .

وما ان سمعت خولة اصوات الرصاص حتى تشنجت أعصابها وانهمرت دموعها وانهالت تلعن وتشتم ما جدا وحكومته والانكليز الواحد بعد الآخر بصورة شنيعة في حين انتشر الرعب والفزع بين أهل الدار جميعها صغارا وكبارا سادة وخدما ، فدارنا تقع خلف دار برغش مباشرة فنحن اذن معرضون لهذا الرصاص في النهاية ومعرضون للدمار اذا ما بدأت المدافع قصفها وقد فقدنا في غمرة الهلع والرعب الرشد والاتزان ولم ندر ما نصنع بأنفسنا وإلى اين نذهب . فكنا نهيم في أرجاء الدار كالمجانين على غير هدى فمنا من أخذت تودع الاخريات وتسألهن العفو والغفران ومنا من بدأت تجمع متاعها وحليها تأهبا للفرار وانخرط الجميع بالبكاء والنواح وعلا الضجيج والصياح وامتزج باصوات الرصاص وشلت قدرتنا عن التصرف والتفكير .

وكان منا من انصرفن إلى الصلاة في ممرات القصر أو باحاته . فران عليهن الهدوء والسلام ، ولم يعد يشغلهن الضجيج ولا لعلعة الرصاص . وسرعان ما احتذت الاخريات امثولتهن فاقبلن على الصلاة نشدانا لراحة البال وهدوء الأعصاب فانجاب الهياج والتوتر وحلت محله سكينة مصدرها الايمان بالله والتسليم إلى قضائه وارادته والثقة بحكمته وتقبل قضائه وقدره بنفس مطمئنة راضية .

• • •

ولكن الخطر ظل يزداد بمرور الدقائق واصبح العناد حماقة تؤدي إلى كارثة جمعاء ولهذا فقد استطاعت خولة ان تحمل أخانا العنيد على القبول بالاستسلام وخلافا لكل التقاليد وقواعد اللياقة والأصول فقد خرجت بنفسها إلى الشارع تعدو نحو بيت القنصل البريطاني لتنهي اليه الخبر وتطلب اليه ايقاف اطلاق النار . وقد تساءل الكثيرون في حينه بعد هذا الحادث عن السر في ذهاب خولة إلى الانكليز بدل الذهاب إلى أخيها ماجد، وهل بلغ عداء خولة وبرغش نحو أخيهما السلطان حدا يفضلان فيه اللجوء إلى قوة أجنبية على طلب العفو منه مباشرة ؟

ولا أعلم الجواب على هذا التساؤل وقد شغلنا تداول الاحداث عن الحديث في هذا الموضوع .

وعلى كل حال فلم يكن للبريطانيين آنذاك النفوذ الذي لهم الآن في زنجبار وشرق افريقيا وكان تدخلهم في شؤون زنجبار المحلية محدوداً بنطاق ضيق كتدخل الاتراك أو الالمان في شؤون تلك البلاد . ولكن ابتداء من عام ١٨٧٥ ومن هذا العام فقط ، تغيرت الأمور بشكل ملحوظ لصالح بريطانيا على حساب دمار شعبنا وافقاره واسترقاقه والفضل في ذلك للسياسة الانكليزية في مكافحة الرقيق ' !

ولم تستطع خولة ان تعثر على القنصل البريطاني لكن جنود البحرية اوقفوا اطلاق النار اثر سماعهم اصوات الاستغاثة من بيت برغش تنادي « الآمان ... الآمان ... » ومشاهدتهم المناديل وأغطية الفراش البيض يلوح بها سكان الدار .

وهكذا تم النجاة من كارثة دموية دهماء وكان ذلك قبل ان تصدر الاوامر إلى المدافع باطلاق النار بدقائق قليلة . ولكن لو ان مدافع السفينة قصفت بيت المتآمر على العرش في ذلك اليوم ، لكان الجالس على عرش زنجبار اليوم رجلا غيره ولما كان قدر لي المجيء إلى اوروبا .

ولرب سائل يسأل الآن ، ما كان عقابنا نحن النساء عما فعلناه وشاركنا في فعله من شر ودمار ؟ والجواب هو لا شيء . فلو لم يكن على عرش السلطنة ذو الجناب العالي والقلب الكبير اخونا ماجد لنالنا ولا ريب شر كثير ، ولكنه بحلمه ونبله أبى أن يحاسبنا عن كل ما قدمت أيدينا ضده .

ولمنع تكرار امثال هذه المؤامرات فقد تقرر بنصيحة القنصل البريطاني نفي برغش إلى بومباي وعلى هذا فقد نقل اليها على ظهر سفينة حربية وذهب معه باختياره اخوه عبد العزيز . وقد زرنا برغش مودعين ذلك المساء وبالنسبة لي كان الوداع الأخير لبرغش .

ولا شك أن البريطانيين ارادوا الاحتفاظ بالمرشح الجديد وخليفة ماجد على السلطنة ليتدرب على أيديهم ويتعلم كيف يعمل لتحقيق مطالبهم حين يحين

الحين . وقد فعل وأجاد . وقد قضى برغش في بومباي ستتين ثم عاد إلى زنجبار بكل هدوء وظل كذلك حتى ارتقى – بعد وفاة ماجد عام ١٨٧٠ – عرش البلاد الذي طال انتظاره له وكفاحه من اجله .

• • •



مقر السلطنة الحالي

الفصل الثاني والعشرون

حصاد الشر

انتهت مغامرتنا بالفشل الذريع وانهارت آمالنا العراض وانقشعت عن عيوننا براقع الغش والخيال وارتطمنا بالواقع القاسي وكان علينا ان نقطف ثمار ما صنعت ايدينا وندفع ثمن سوء صنيعنا .

وكان الثمن غاليا من ناحيتيه المادية والمعنوية، فقد تضعضعت أمورنا المالية وخسرنا الكثير من مواردنا، كما خسرنا الكثير من خيرة عبيدنا القدامى المخلصين فمنهم من قضى نحبه ومنهم من اقعده المرض أو شوهته المعركة فظلوا أمامنا شواهد حية تذكرنا بجحودنا الذي سبب كل هذه الفواجع والآلام للأبرياء من الناس .

وكان الخطب أهون لو اقتصر حصاد الشر الذي زرعناه على الخسارة المادية فحسب، ولكن الأدهى والأشد مضاضة هو ما لحقنا، أنا وخولة وابنتا أخي خالد – من قطيعة تامة ونبذ تام من جميع افراد عائلتنا واقاربنا وأصدقائنا جعلنا في عزلة كاملة . وكان مما يزيد الألم وقعا في نفوسنا هو شعورنا التام بأحقية قومنا في تصرفهم هذا تجاهنا .

وفي وسط هذا الجو المحموم من الكراهية والبغض ظل ماجد وحده ذلك القلب الكبير والأخ النبيل الذي كانه دائما . فلم تغيره الأحداث وظل يرفض دوما الاصوات الكثيرة المنادية بايقاع العقاب بنا ، وكانت محقة كل الحق في القاء تبعة الحوادث على كواهلنا نحن النساء . فلولا مشاركتنا ودعمنا لما استطاع برغش أن يصمد في مقاومته أو يقدم على أعماله التي أدت إلى سفك الدماء وقتل الأبرياء.

وكان ماجد يعترف بسلامة هذه الحجة وبصحة الوقائع، ولكن رجولته كانت تأبى عليه معاقبة النساء الغريبات فكيف اذا كن بنات أبيه ومن لحمه ودمه.

وهذا كرم اخلاق ونبل من ماجد كنا اقل من ان نستحقه كما كان هو أعلى واجل من أن يتهم من اجله بالضعف.

• • •

وقد زاد بعض ضعاف النفوس على ذلك بالتجسس علينا ونقل أخبارنا اما تشفيا منا لعداء أو تملقا للسلطة. ولم نكن من جانبنا نهتم لأعمال التجسس هذه، فنحن أعرف من غيرنا بأن قضيتنا انتهت إلى غير عودة. ولم يبق لنا ما نحرص على كتمانه أو نخشى انتشار خبره، لكن بقاءنا هدفا للرقابة والشكوك قد أبعد عنا من تبقى لنا من المعارف والأصدقاء بل والخدم ايضاً وحتى بلغ الأمر إلى حد ان انقطع عنا نهائيا الباعة البانيان المتجلون الذين اعتادوا قبلا أن ينسلوا إلى بيوتنا كل مساء يروجون لبضائعهم الهندية بالوقاحة والشطارة اللتين اشتهروا بهما.

وتبعا لهذا فقد اصبحت بيوتنا خالية موحشة لا يطرقها أو يدلف اليها أحد قط بعد أن كانت كخليات النحل تعج وتموج بالرائحين والغادين صبح مساء. مما جعل الحياة فيها على هذا المنوال صعبة الاحتمال.

• • •

ولم أكن منذ وفاة امي قد زرت مزارعي الثلاث الا نادرا ولمدة قصيرة من الوقت لا تتجاوز اليوم الواحد في كل مرة، ولكنني الآن وبعد ما نالني من التعب والارهاق وما مرّ عليّ من تقلب الأحوال ونفور الأهل والأصدقاء وضياع الجهد والآمال، قررت أن ابتعد عن الناس وأسكن احدى مزارعي حتى تعود اليّ راحة الجسم والنفس والضمير. وقد اخترت لسكناي مزرعة كيسيمباني لانه المحل الذي كانت تفضله أمي الحبيبة والذي تمتلأ ارجاؤه بذكريات زياراتها المتكررة اليه، وتنفيذاً لهذا القرار فقد انطلق بي فجر احد الأيام حماري الأبيض الصغير يتهادى بين المزارع والحقول متجها نحو كيسيمباني. ولم أكن أجهل ما

سينوء به عاتقي من المتاعب التي تواجهها المرأة العربية التي تعيش وحدها بسبب العزلة التامة المفروضة عليها عن عالم الرجال .

فالتقاليد القاسية في بلادنا تحرم علينا الكلام مع الرجال الاحرار وان كانوا وكلاء أعمالنا أو نظار مزارعنا، ولذلك فان الاوامر والحسابات تروح وتجيء بواسطة العبيد .

ولم يكن من المألوف قط ان تستلم المرأة من ناظر مزرعتها كشف الحساب أو ميزانية العام . فعارفات القراءة والكتابة قلة نادرة جدا بين نساء بلدي، والاندر من ذلك ان تجد امرأة رأت في حياتها كشفا بوارداتها ونفقاتها . فما دام الناظر يملأ الدار طعاما ومؤونا، وما دام فوق ذلك يدفع إلى سيدته بعض الدولارات في نهاية العام، فهذا حسبها وفيه الكفاية .

وهذه الواردات تأتيها من بيع القرنفل وجوز الهند اما ما تنبته الأرض خلاف ذلك من حبوب أو خضار فمن العيب بيعه وانما يترك لنظار المزارع يفعلون به ما يحلو لهم بعد ان يسدوا حاجة البيت من هذه المواد .

ولما كنت اسكن المدينة كان ناظر مزرعتي حسن بي علي يزورني مرة كل اسبوع أو اثنين ليدلي الي بتقريره بواسطة احد الخدم ويتلقى عن طريقهم ايضاً أوامري وتعليماتي . وكانت لنا غرفة معدة لاستقبال هؤلاء الرجال حيث يحلون فيها للأكل والنوم والراحة قبل أن يعودوا في المساء إلى مزارعهم .

ولكن مقام حسن في المزرعة اصبح نشازا بعد انتقالي اليها، فقد كان المسكين يتنقل من مكان آخر بغية الاختفاء عني وعدم ظهوره امامي. ولهذا لم أجد مفرا من نقله إلى مزرعة اخرى وتعيين احد عبيدنا الأحباش ناظرا بدلا عنه . وكان الناظر الجديد — مرجان، رجلا نشطا ذكيا وكان يعرف القراءة والكتابة .

وقد يسر لي ذهاب حسن عن المزرعة حرية التجوال فيها دون ما شعور بمضايقة الناظر أو احد غيره . وكنت أقضي ساعات نهاري بتفقد المزارع وحيواناتي الأليفة، وكنت اجد سعادة لا توصف في الترفيه عن الشيوخ والمرضى ، فكنت أزورهم في اكواخهم الحقيرة وأبعث لهم بوجبات الطعام من مائدتي الفاخرة،

وكنت أعتني بأطفال العبيد، وهم في حقيقة الأمر نوع من الريع لمالك الأبوين، فكنت أجمعهم يوميا وأعين من يشرف على رقابتهم وتنظيفهم واطعامهم، وكنا نستعمل السدر للغسيل وهو ورق شجر كبير اذا ما جفف وطحن وخلط بالماء أعطى رغوة كرغوة الصابون. ويظل الاطفال يلعبون ويمرحون حتى تعود امهاتهم مساء إلى بيوتهن وهذا انفع للأطفال وللأم من حملهم على ظهور امهاتهم طول النهار تحت حرارة الشمس المحرقة.

وقد افادتني حياة الريف الهادئة المنتظمة فعادت اليّ راحة الجسم وصفاء البال وراحة الضمير وطبقاً للأصول فقد بدأ نساء أعيان المنطقة يزرنني ويقضين في ضيافتي ساعات طويلة وكذلك بدأ يفعل بعض أصدقائي القدامى في المدينة وكانت زياراتهم قد تمتد اياما او اسابيع. ولان كيسيمباني كانت تقع على مفترق عدة طرق فقد كان عدد الضيوف العابرة لدينا كثيرا كل يوم. وكانت بجواري مزرعتان لاثنتين من اخواتي ومزرعة للسيد فيصل ابن أخي الاكبر هلال. وقد قلت عن هذا الرجل من قبل انه امرىء وديع طيب ولكن الناس لم تنصفه وكنت اول من عرفه على حقيقته وقد تعلق بي تعلق الطفل بأمه وكان يزورني يوميا.

وقد احتفظت بصلة منتظمة مع المدينة فكنت اسير اليها رسولا في صباح كل يوم ليعود لي بأخبارها في المساء. كما كنت ارسل احدى خادماتي مرة في الاسبوع لتعود اليّ بأخبار صديقاتي وقريباتي.

ولا شك ان الرجة التي احدثتها ظروف تلك المؤامرة الفاشلة قد خفت حدتها الآن، الا ان الحقد والنفور بين الاخوة والاخوات ما يزال قائما وهذا ما يدعوني إلى تأخير عودتي إلى المدينة وانقطاعي عن زيارتها.

وكادت ان تكون سعادتي كاملة تامة لو لم افتقد شيئاً واحداً ... هو البحر، الذي اعتدت أن اشاهده في كل لحظة من لحظات حياتي. فمزارعي الثلاث تقع كلها في البر بعيدة عن البحر، لذلك فقد قررت ان اشتري مزرعة قرب البحر مهما كلفني ذلك من جهد أو ثمن ولم يكن العثور على مثل هذه المزرعة بالأمر السهل فالذين يملكون أمثالها لا يفرطون بها لموقعها لا أ يرادها. ورغم الوعود التي كالها اليّ الدلال فقد عاد اليّ يعلن لي عجزه عن العثور على ما أريد.

وما انّ أبلغني الدلال أخباره المزعجة حتى جاءتني احد صديقاتي وأخبرتني ان لابن عم لها مزرعة صغيرة على شاطىء البحر لا يستفيد منها لانه يسكن المدينة وانها ستحاول اقناعه ببيع هذه المزرعة أو ايجارها لي .

وفي اليوم الثاني قررت للذهاب لأرى بنفسي بوبوبو – وهذا اسم المزرعة الجديدة . وقد وجدتها جميلة رائعة، يتوسطها دار فسيح جيد البناء قائم على شاطىء البحر بحيث تغسل الامواج جدرانه صبح مساء، وتطل غرفة العليا على منظر رائع أخاذ للبحر، وترتفع في حديقته اشجار النخيل والجوز ويجري فيها جدول صغير يذكرني بالموتني العزيز وهو في حد ذاته ربح كبير في مثل جو بلادنا الحار . وإلى الخلف من الدار تقع ساحة صغيرة يقوم فيها المطبخ وجناح الخدم .

وقد قررت شراء هذه المزرعة أو استئجارها وبعد مفاوضات صعبة دامت اسبوعين فقد ابتعت هذه المزرعة وانتقلت اليها مع دواجني وماشيّتي الذين استغربوا ولا شك وجودهم على ساحل البحر بعد ان ظلوا في الأكياس والاقفاص فترة النقل من كيسيمباني إلى بوبوبو.

والظاهر انهم احتفوا بالتغيير وتمتعوا به كما احتفيت وتمتعت به وكنت اجلس اتفرج عليهم ساعات طويلة اذ اذهب اتمشى على ساحل البحر أملي نظري بزرقته الصافية وبمنظر السفن تمخر فيه جيئة ورواحا وصيادي الاسماك بزوارقهم الصغيرة يمرون من امامي تباعا .

ولم يكن ينغص عليّ سعادتي الكاملة الا فراق ابن أخي فيصل، فقد تألم لفراقي وحزن له اشد الحزن فلم يكن له في هذا الريف من رفيق غير زوجة ابيه العجوز.

وكانت بوبوبو قريبة إلى المدينة ويمكن الوصول اليها بسهولة برا وبحرا وكان ثلاثة من اخوتي، وهم عبد الوهاب وحمدان وجمشيد يزورونني يوميا على ظهور الخيل او على متن قواربهم وكنا نقضي الوقت سوية بالاكل والشرب والحديث واللعب واللهو البريء.

وصارت حياتي الاجتماعية في بوبوبو اصخب منها في كيسمباني فما كان

يمر عليّ يوم واحد الا وتزورني فيه واحدة او اثنتان وربما يصل العدد إلى عشرة، من صديقاتي وقد تستغرق الزيارة ساعات او تطول اياما .

• • •

وكانت اقامتي في بوبوبو خالصة السعادة والهناء وسأبقى اذكرها على انها أهنأ أيام حياتي، لكن لم يقدر لمقامي فيها ان يطول كثيرا .

فقد جاءني اخي عبد الوهاب في احد الأيام وحيدا وعلى ملامحه علائم العبوس فاستغربت منه ذلك وسألته عما يشغل باله فأجاب :

« انني احمل لك يا سالمة رسالة وددت الا احملها . ولكن احزري ممن ؟ ».
فلما الححت عليه بطلب الايضاح اخبرني ان قنصلا بريطانيا جديدا قد وصل البلاد فقلت له :

— وما يهمني من امره وهل انت مرسل من قبله ؟ تكلم ولا تراوغ .

ولما رأى غضبي وهياجي رجاني الهدوء والروية وقال :

— انني احمل لك رسالة من ماجد نفسه الذي يرجوك ان كنت ما زلت تحملين له الحب القديم ان تهبيه بوبوبو فالقنصل البريطاني يريدها مقرا صيفيا له. وقد طلبها منه أمس .

وكان هذا الطلب صدمة قاسية لي . ولو اتاني من أي شخص بالوجود لكان مصيره الرفض المباشر والتام . ولكن ماجد ! ! هذا الأخ والسلطان الذي أعماني الطيش والجحود فتنكرت لأحلى الروابط والذكريات ولم أقصر في الاساءة اليه والتآمر للقضاء على حياته وملكه .... ثم قابل كل ذلك بالصفح النبيل والعفو الكريم ... هل استطيع الآن ان ارفض له طلبا ... ؟ وطلبا مهما بدا لي غاليا وعزيزا فهو في اعراف أسرتنا طلب بسيط لا تتجاوز كلفته بضع الاف من الدولارات، لذلك آثرت التضحية بالمكان وعدم التفريط بأول فرصة تسنح لي لاظهار الولاء لسلطاني واعادة اواصر الصداقة والود القديم مع أخي.

وقد انهيت قراري إلى أخي عبد الوهاب الذي عاد واخبر به ماجدا . وقد

قررت ان اعود إلى مزرعتي كيسمباني الا ان اخوتي الثلاثة عادوا الي صباح اليوم التالي وأخبروني ان ماجد قد امر عبد الوهاب بأن يشتري لي بيتنا في المدينة لانتقل اليه . فلما اخبرتهم بقراري بالعودة إلى كيسمباني ثاروا علي وتوسلوا الي ان اعود للسكن معهم في المدينة ونقلوا الي رجاء امهاتهم – وكلهن شركسيات – بالعودة ايضا . واضاف جمشيد بروحه الفكهة بانه سيحرق المزرعة اذا ما عدت اليها .

وتجاه هذا التوسل والالحاح تركت بوبوبو بعد اسبوع عائدة إلى المدينة وسكنت البيت الذي اختاره لي اخوتي ودفع ثمنه ماجد .

• • •

وبعد وصولي بأسبوع زارتني خولة في احدى الامسيات ومن دون سابق انذار ، فاستقبلتها بالود والترحاب ولكنها قابلتني بالتجهم والعبوس ورفضت الجلوس في مقام الصدارة الذي قدمته لها ، ففطنت إلى ان سفارتها الي عدائية ما في ذلك شك ، ولم يفتني ان الحظ على محياها وفي حركات يديها شدة الهياج والانفعال ، وقبل ان تبدأني بالسلام بادرتني بنعوت الجحود والخيانة والنفاق ، لموافقتي على على بيع المزرعة للقنصل البريطاني املا في الحصول على رضا ماجد وعطفه وطمعا في الانتفاع منه ، وانني لم أعد للسكن معها في بيتنا الأول – بيت الثاني – نفرة منها وتجنبا لسخط ماجد علي إلى غير ذلك من الاتهامات . وقد حاولت بكل هدوء وعطف ان أردها إلى هدوء المزاج والروية والتعقل فذكرتها باني شرحت لها ظروف القضية في رسالة بعثتها لها في نفس اليوم الذي وصل الي فيه أخي عبد الوهاب برسالة ماجد – وان اخوتي هم الذين اختاروا لي هذا البيت وأسكنوني فيه وانني كما تعرفني هي نفسها أكثر الناس حبا لها وتعلقا بها وقد جر علي حبها وولائي لها المصائب والويلات وانني كما تعرف هي ذلك ايضاً أبعد الناس عن التملق والخضوع واقلهم جريا وراء المنافع والاطماع .

لكن جهودي في تهدئتها واقناعها ذهبت عبثا ، واصرت على اني بتصرفي في قضية المزرعة قد خنت قضيتنا واصحابها تملقا واسترضاء لماجد « الملعون » كما كانت تسميتها ثم ازدادت هياجا وانفعالا فصرخت بي وهي خارجة من منزلي :

اسمعي يا سالمة، ليس امامك الا الاختيار بيني وبرغش وبين عبد الكفار الانكليز... مع السلامة.

وخرجت في اشد حالات الانفعال. وكانت هذه آخر مقابلة لي في حياتي مع أعز خلق الله عندي فلم ار خولة بعد ذلك مدة بقائي في المدينة، ولم تغير موقفها مني الا بعد ان ضربت بيننا الأيام جدار الغربة والبين وقصمت الاحداث ظهري بوفاة زوجي فعادت رسائلها الحبيبة تصلني في بلاد الغربة فتنزل علي نفسي الحزينة نزول الطل على الزهر في صيف بلادنا الحار.

• • •

وكنت قد انقطعت منذ امد طويل عن لقاء ماجد وخديجة، وقررت ان استمر في تجنب لقائهما خجلا منهما لسوء ما قدمت ضدهما ودفعا للشبهات التي قد تؤكد اتهامات خولة لي بالخيانة. ولكن القدر كان يخبىء له مفاجأة لم تكن في الحسبان.

ولم تكن المفاجأة الا زيارة ماجد لي على حين غفلة ودون موعد سابق!! فقد دخل على الدار وحاشيته الكبيرة في احد الايام فهرعت إلى استقباله كما تقضي بذلك ابسط قواعد المجاملة والاداب. وقد اقبل عليّ باسم الثغر منشرح الاسارير بشوشاً مرحبا من اعماق قلبه قائلا انه وإن كان الاكبر سنا فقد جاء الحيّ ليشكرني لانقاذي له من ورطة كبيرة كانت ستحرجه مع القنصل البريطاني لو اني رفضت طلبه.

وقد طغت فرحتي بهذه الزيارة وبرؤية أخي ماجد على ما عداها من المشاعر والأحاسيس، فتمتمت بكلمات غير مفهومة شاكرة له حسن ظنه وزيارته ثم تشعب بنا الحديث إلى مواضيع شتّى، وكان ماجد ينتقل من موضوع إلى آخر ويتطرق إلى اشياء كثيرة من ذكريات الماضي ومشاغل الحاضر لكنه لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى احداث المؤامرة الأخيرة وعواقبها موحيا لي بكل كرم ونبل انه لم يعد يحمل لي عنها حقدا ولا غضاضة.

وقد افترقنا بعد ساعة كاملة قضيناها في خير حال من الود والوئام وقال لي وهو يودعني على عتبة الدار .

– ارجو الا تبخلي علينا بالزيارة يا سالمة . فخديجة تنتظرك مشتاقة إلى روٌياك كما أن عمتي عائشة التي تسكن معنا الآن والتي تحبك كل الحب تريد ان تراك ايضا.

• • •

ولم يكن من المعقول ولا المقبول في شريعة الادب والمجاملة دعك عن شريعة الاخوة والقربى ، ان امتنع عن رد الزيارة للسلطان فكيف بتجاهل دعوته الصريحة. ولذلك فقد ذهبت إلى بيت السلطان وجلست اليه والى اخته وإلى عمتنا ، ولم اكن ادري ان قيامي بأقل واجبات اللياقة والمجاملة هذا سيكلفني غاليا جدا ، فقد اعتبر عملي هذا جريمة وخيانة وآثار عليّ وما يزال حتى اليوم كل انواع النقمة والحقد والبغضاء من نفس الاشخاص الذين بذلت حياتي ومالي وجهدي لانجاح موٌامرتهم الرامية إلى خلع أو قتل ماجد وتنصيب برغش . لكن الحقد الدفين والبغض الاعمى كانا – ويا للأسف ، من أبرز صفات عائلتنا ولا سيما تحت وطأة مثل هذا النزاع الحاد .

فقد استمر الفريقان كما كانا سابقاً يكيد ويدس كل منهما للآخر ، ولكن بشكل اخفى وبضجة اقل فقد كان الصراع بينهما اوسع من ان يرأب والكسر اكبر من ان يجبر وعواطف البغضاء اقوى من ان تلجم فلم يتورع كل فريق عن المجاهرة برأيه في الفريق الآخر .

والعربي صريح واضح بطبعه ولا يعرف المصانعة والمداورة التي يتقنها الاوربيون فهو عنيف قاس في عدائه لكنه واضح غير مخاتل .

وقد من الله علينا بمناسبتين سعيدتين انستنا بعض الحين خصوماتنا التافهة وعداءنا السخيف وأعادت لحياتنا العائلية بعضا من بهجتنا السابقة وهنائها الغابر ، وكانت المناسبتان زفاف اثنتين من اخواتي على اخوين من ابناء عمومتنا فقطعت الافراح والحفلات مسلسل الحقد والكيد بيننا لآن قصير .

وقد سعدت احدى العروسين في زواجها وعاشت مع زوجها حياة سعيدة

هانئة، في حين لم تكتب السعادة للاخرى . ومن مفارقات الحياة ان الاولى لم ترزق طفلا على شدة لهفتها وزوجها اليه في حين رزقت الثانية بالبنين والبنات .

• • •

والعربي أسير عاطفته دوما فكما ترى الحقد في اسوأ اشكاله عند العرب ترى عندهم الصداقة والوفاء على اروع صورها . فمن اراد الصداقة الحقة في اشكالها: — عمق وداد وصدق اخاء وايثاراً وطيب وفاء، فليذهب إلى الشرق . لا لان هذه العاطفة وقفاً على العرب فقط من دون الشعوب الاخرى، بل لانها هناك تصدر عن معدن انقى وعاطفة اصفى، وعلى الرغم من شدة التمييز الطبقي في الشرق فان هذه الفوارق الطبقية تذوب وتمحى تماما امام الصداقات الحميمة وتبقى العلاقة بين الطرفين علاقة انسانية رقيقة وعلى قدم المساواة لا فرق ان كان احد الطرفين اميرا حرا او سيدة من بنات السلطان وكان الطرف الآخر عبدا رقيقاً او امة مشتراة .

فقد كانت اصدق صديقات اختي موجه بنتاً فقيرة اخذتها اختي برعايتها واسكنتها معها في القصر وظلت علاقتها بهذه البنت الفقيرة — والذكية — مستمرة حتى فرق الموت بينهما .

ولا بد لي ان اذكر بالعرفان والامتنان صديقة لي من خدمي ظلت تلازمني إلى آخر لحظة من لحظات بقائي في زنجبار واصرت على أن تصحبني في رحلة الغربة لو لم امنعها من ذلك بالقوة والتهديد . وكانت هذه الخادمة من أوفى الصديقات ومن اعزهن منزلة عندي .

وابرز ما تتجلى ظواهر الصداقة في الشرق في وقت الشدة، فاذا سجن شخص ما مثلا فان صديقه يشاركه الحبس اكثر ساعات النهار . واذا ابعد شخص عن البلاد خرج معه اصدقاؤه ايضا . ولا يدع الاصدقاء صديقاً لهم يحس بالعسر او الحاجة بل يتنادون إلى جمع النقود وتقديمها له بشكل لا يجرح عزته وكرامته وهم يفعلون هذا من تلقاء نفوسهم وفي السر... ذلك لاننا ننشأ في الشرق منذ الصغر على اكرام الجار والصديق .

الفصل الثالث والعشرون

الفرار من زنجبار

في خلال تلك الايام الحالكة الحافلة بالكيد والشجار بين أفراد عائلتنا، أسعدني الحظ بالتعرف على شاب الماني كان ممثلا لاحد المحال التجارية الألمانية في زنجبار وهو الذي كتب له ان يكون زوجي في قابل الأيام، ولأن كثيراً من القصص الكاذب واللغو الباطل قد روى عن هذا الموضوع فأرى من الأفضل أن أوجز حقيقة هذه القصة في هذا المكان.

تمتع الاوروبيون فيزنجبار اثناء حكم أخي ماجد بمركز اجتماعي لم يكن لهم من قبل، فكانوا يحلون ضيوفا معززين مكرمين على أخي في قصره أو مزرعته، وقد أقمنا انا واختي خولة علاقات طيبة مع بعض العائلات الاوربية في زنجبار تتجلى في تبادل المجاملات والزيارات قدر ما تسمح به عادات البلد وتقاليدها. وكانت زيارات السيدات الاوربيات تقتصر عليّ وعلى أختي خولة من دون نساء القصر.

وقد تعرفت على زوج المستقبل[١] بعد عودتي من بو بو بو، فقد كانت الدار التي سكنتها مجاورة لداره، وكان سطح داره أوطأ من سطح داري. وكنت غالباً ما أرقب من نافذتي حفلاته الرجالية الباذخة التي كان يتعمد اقامتها في الاماكن التي يقع عليها نظري لعلمه برغبتي في الاطلاع على هذه الاحتفالات الغربية. وسرعان ما شاع في البلد خبر صداقتنا التي تطورت في النهاية إلى حب

(١) هو هنريخ روث.

متبادل فسمع بها أخي ماجد، ولم يحرك ساكنا، وكل ما تقوله الاشاعات في هذا الصدد عن عدائه لي أو سجني فهو محض خيال لا أساس له من الصحة.

وكان طبيعياً لي ان احاول الخروج من البلاد سرا طالما يستحيل زواجي فيها، وقد فشلت محاولتي الأولى ثم تهيأت لي الفرصة ثانية بفضل المسز «س» زوجة الدكتور والقنصل الانكليزي التي نقلتني في احدى الليالي بزورق مع المستر «ب» ربان الباخرة الحربية البريطانية هاي فابر [1]، التي كانت جاهزة للحركة فما ان صرت على ظهرها حتى غادرت الميناء على التو، واتجهت متجهة نحو الشمال حيث أوصلتني إلى هدفي المقصود وهو ميناء عدن[2].

وفي عدن نزلت بضيافة عائلة اسبانية تعرفت عليها في زنجبار وظللت انتظر بفارغ الصبر قدوم زوجي الذي لم يلحق بي الا بعد عدة اشهر قضاها في زنجبار لتصفية اعماله في شركته [3]، وفي فترة الانتظار هذه أخذت اتلقى تعاليم الدين المسيحي، وما ان وصل زوجي حتى تم تعميدي باسم اميلي روث في الكنيسة الانكليزية في عدن وتبعته في الحال مراسم الزواج طبقا للشعائر الانكليكانية. ثم سافرت وزوجي إلى وطنه هامبرج حيث استقبلنا والده وأهله بترحاب حار.

وفي الحال حملت نفسي على التكيف على العيش في المحيط الأجنبي الجديد وبدأت بكل لهفة وحماس أتعلم كل ما يمكن ليساعدني في حياتي المستقبلة. وكان زوجي العزيز يراقب بكل متعة وسرور مراحل تقدمي في هذا المجال. يهمه بوجه خاص أن يرى انطباعاتي بالنسبة للحياة الاوربية وقد سجلت وانطباعاتي في مذكرات خاصة ارجو أن اتمكن من نشرها يوما ما.

لكن حياتنا السعيدة الهانئة لم تستمر الا فترة قصيرة. فلم يمضي على استقرارنا في هامبرج الا ثلاث سنوات وبعض السنة حتى أصيب زوجي العزيز الحبيب بحادث خطر اثناء قفزه من عربة الترام، وبعد ثلاث أيام قضاها في الم مبرح وافاه الاجل

---

(١) هو الكابتن باسلي.

(٢) كان ذلك في ٢٦ آب سنة ١٨٦٦.

(٣) وصل عدن في مارس ١٨٦٧ وغادرها في نفس الشهر إلى المانيا.

المحتوم وهكذا قدر لي ان أبقى وحيدة في هذا القطر الكبير الغريب ومعي ثلاثة أطفال لم يتجاوز عمر اصغرهم الثلاثة شهور [1] .

وقد فكرت في العودة إلى وطني ولكن القدر شاء ان يلاحقني بالفواجع فقد توفي بعد شهرين أخي ماجد الذي عودني منذ الصغر على العطف والحنان . حتّى بلغ من حلمه انه لم يستنكر هروبي من زنجبار .

وقد ابدى برهانا حساسا على عواطفه الأخوية الفياضة اذ ارسل لي قبل وفاته مركبا محملا بأنواع الهدايا لتسلم اليّ في هامبرج . ولكني مع الأسف لم أتسلم شيئاً منها وقد علمت بعد سنوات ان المركب وصل الميناء فعلا ولكن أوامر ماجد لم تنفذ . وهنا يجب أن اقرر ايضا انه بعد رحيلي المفاجيء من زنجبار لم يضايق زوجي بل تركه في حريته حتّى انجز أعماله وصفاها وغادر البلاد لاحقا بي إلى عدن .

وبقيت بعد هذا سنتين في هامبرج لم يفارقني فيها سوء الحظ ، وقد فقدت مقدارا كبيرا من ثروتي ، بسبب اخطاء بعض الناس الذين وثقت بهم . وأحسست بالنفرة من هذا المكان الذي شهد الكثير من أيام سعادتي وزاد في ألمي ازورار بعض أهل البلد عني وعدم معاملتهم لي المعاملة الّتي تليق بي .

ولهذا انتقلت إلى دريسدن، حيث التقيت بأطيب عواطف الصداقة في كل مكان . ثم سافرت إلى لندن، كما سأروي ذلك في الفصل التالي . وأخيراً وفي تاريخ متأخر تبينت رغبتي في السكن بهذه المدينة الجميلة الصغيرة رودول ستات وهنا ايضاً قوبلت بأصدق عواطف الوداد والاخلاص خلال سني اقامتي من قبل الأمير الذي عمل كل ما يستطيع ليجعل اقامتي هانئة سعيدة . وقد تحسنت صحتي في رودول ستات فقررت ان تكون برلين مقري ليستطيع اولادي متابعة دراستهم فيها وهنا ايضا وجدت أصدقاء كثيرين ادخلوا على حياتي البهجة والسرور . وقد أظهرت العائلة المالكة نفسها اهتماما ساميا بي سأبقى أذكره لها بكل وفاء وعرفان ما حييت.

---

(١) كانت وفاته في ١٨٧٠ .



الليدي فرير تستقبل السيد برغش وحاشيته في حديقة دارها

الفصل الرابع والعشرون

دبلوماسية انكليزية

لم تنقطع صلتي ببلادي طيلة فترة وجودي في اوربا ولم يفتر شوقي اليها وإلى أهلي وكنت أمني النفس بالعودة اليها يوما ما، ولم ارد ان أفقد هذا الأمل اللذيذ وان غدا تحقيقه مستحيلا طالما ظل أخي برغش سلطانا على البلاد.

ولم يكن دافع نقمته السوداء المتأصلة هو اعتناقي المسيحية وخروجي عن دين الأباء كما كان يحلو له ان يردد ذلك دوما. لكن الدافع الحقيقي لهذا العداء المستمر والغل الدفين هو حقده الكبير عليّ بسبب استئناف علاقات المودة بيني وبين خصمه اللدود ماجد.

لكن هذا الموقف الظالم لم يكن ليقلل شوقي إلى اهلي وحنيني إلى بلادي ولم يكن ليؤثر على ما يضطرم في أعماق النفس من عزم وأمل بالعودة اليهم والعيش بينهم.

لهذا فلا عجب اذا ما ثارت شجوني واضطربت مشاعري وأهتز كياني كله للانباء التي أوردتها الصحف في ربيع عام ١٨٧٥ عن قرب زيارة أخي برغش بن سعيد سلطان زنجبار إلى لندن، ولا عجب ايضاً ان تتنازعني شتى العواطف والافكار ومختلف المشاعر والآمال. فهل تكون هذه الفرصة بداية الفرج والانفتاح أم تكون مقبرة الآمال ونهاية المطاف. وهل اقدم على انتهاز هذه الفرصة بأمل التوفيق والنجاح أم انكص عنها خشية الفشل والاخفاق.

لكن قسوة ظروفي آنذاك ومرارة تجاربي في الحياة لم تدعا لي ما أخشى عليه من الفقدان لو انني اقدمت على تجربة هذه الفرصة السانحة. لهذا عقدت عزمي على

السفر إلى لندن سعيا لتحقيق آمالي . وقد شجعني على هذا القرار الكونت بولوف وزير الخارجية الالماني ووعدني بالعون الدبلوماسي من السفير الامبراطوري في لندن الكونت مينستر والذي اتضح لي فيما بعد انه قليل النفع والجدوى .

وأمضيت فترة الأسابيع القليلة قبل سفري بمحاولة تعلم اللغة الانكليزية لتعينني في مهمتي في بلاد الغربة الجديدة. فكنت أسهر الليل حتى الفجر اقرأ الكتب وأحفظ الكلمات والتعابير عن ظهر قلب. وكان شاغلي إلى جانب ذلك تفكيري في أولادي الذين لم يسبق لي أن فارقتهم من قبل .

وبعد رحلة طويلة مضنية وصلت لندن. وليس لي فيها من المعارف الا الدكتور « ب » وزوجته اللذان لم يبخلا عليّ بالترحاب الودي والمساعدات الجمة وقد أصرا على انتقالي من الفندق إلى بيتهم في ضواحي لندن .

وكان وصولي إلى لندن قبل الموعد المقرر لوصول السلطان اليها بأسبوعين وقد قضيت هذين الاسبوعين بالتعرف على معالم المدينة وبالتعرف على الاشخاص ذوي العلاقة بقضيتي وأولهم بطبيعة الحال الكونت مونستر الذي وعد بمساعدتي قدر امكانه .

وقد نصحني بعض أصدقائي الالمان ان اتصرف بلباقة وحذر، وان احاول أولا وقبل كل شيء ضمان مساعدة الحكومة البريطانية لقضيتي لان بيديها لا بيد غيرها مفتاح الحل، وقد صدق نصحهم .

ولكنني امرأة صريحة مكشوفة لا استطيع الا الثقة بالناس والركون اليهم رغم ما علمتنيه ظروف الحياة من جحود الصديق وانعدام الوفاء ولا أخشى أن أعترف هنا ان أحساسي بالرهبة والخوف من العالم الجديد الغريب الذي اقف على ابوابه الآن ، عالم الدبلوماسية بغموضه ومتاهاته ودقة قواعده واصوله والتواء لغته وفخامة تعابيره الجوفاء ، ان الاحساس بالرهبة من هذا العالم الجديد قد دفعني بعد التوكل على الله إلى الركون على بعض الأصدقاء . وليتني لم أفعل .

ولم يمضي على وصولي إلى لندن وقت طويل حتى دعيت لمقابلة السير بارثل فرير . ولم اكن إعرف هذا الرجل الذي اصبح الحاكم العام لمستعمرة الكاب — الا

بالاسم فقط ، ولكنني اذا كنت لم أؤمن بالطيرة والتشاؤم بعد ، فقد آمنت بهما حال وقع بصري على هذا السياسي الذي يحكم بلدي ويسيطر على سلطانه . فقد بعثت بي نظرتي الاولى اليه احساس بان أعز آمالي قد انهارت وان السبل امام مستقبل اولادي قد سدت .

• • •

وبعد جلوسي اليه وتبادل التحيات والمجاملات بادرني السير بارثل بالسؤال عن مهمتي وطبيعة هدفي من القدوم إلى لندن . ورغم يقيني التام بمعرفته المسبقة لكل شيء فقد اخبرته بهدفي المعين والذي لم احتج إلى كلام طويل لتبيانه فهو بكل اختصار وبساطة رغبتي في المصالحة مع أهلي والعودة إلى بلادي .

وبكل برود سألني السير بارثل ايهما اكثر اهمية لي هذه المصالحة المنشودة ام ضمان مستقبل أولادي ؟ .

وليتصور القارىء مقدار استغرابي وذهولي من هذا السؤال المفاجىء . وأكاد أعجز لحد الآن عن تحليل العواطف والانفعالات التي انتابتني والتي أثارها فيّ هذا السؤال . فقد كنت اتوقع كل خيبة امل وكل صدمة ولكنني لم اكن اتوقع سماع هذا السؤال بما يرمي اليه ويعنيه من ابعاد سياسية وتهديد مبطن . ولا اظن احدا يتهمني بالجبن والتخاذل اذا ما صعقت وانهارت قواي في تلك اللحظة ، ذلك ان مستقبل اولادي وسلامتهم اهم واولى دون اي شك أو جدال من أي رغبة أو عاطفة شخصية لي .

وبعد أن أفقت قليلا من هول الصدمة التي أوقعتني فيها مناورة هذا الدبلوماسي الماكر رجوت السير بارثل ان يشرح لي دوافع هذا الموقف . وعند ذلك اكد لي بصراحة حاسمة ان الحكومة البريطانية لا رغبة لها بالتوسط بيني وبين أخي ، ولانه ضيفها في لندن فانها ستعمل على تجنيبه كل ازعاج . ومن الجهة الثانية ، فانني اذا وعدت بعدم الاتصال باخي اثناء زيارته إلى بريطانيا شخصيا أو عن طريق الرسائل فان الحكومة البريطانية تضمن مستقبل أولادي .

وانه لمما يحيرني حتى اليوم ان اعلم ايهما كان اكثر ازعاجا للسلطان وأيهما

كان يفضل ويختار لو ترك له الخيار : - ازعاج توقيع اتفاقية الرقيق التي وضعت بلاد زنجبار تحت السلطة البريطانية أم ازعاج مد يد الصفح والغفران إلى اخته المستعطفة النادمة .

خيبة امل مريرة بسراب جديد ... ووقوف من جديد في مفترق الطرق بين اختيارين :

فاما المضي لوحدي فيما صممت عليه من دون معونة حكومة الانكليز وهي لن تتركني حرة افعل ما اشاء بل ستضع امامي من العراقيل والعقبات ما تنوء بحمله امرأة وحيدة مثلي . واما ان اقبل العرض البريطاني وأعود من حيث أتيت ولكني ضامنه لأولادي مستقبلهم وسلامتهم .

وعملا بوعدي إلى البارونة « د » في دريسدن بالا اظهر امام أخي وحيدة ودون حماية (ولو اني اعرف انه لا يستطيع مخالفة القوانين الانكليزية حتى ولو ظهرت امامه فجأة) وحرصا على مصلحة اولادي فقد اعلنت للسير بارثل قبولي عرض الحكومة البريطانية .

• • •

وقد دفعت هذه الاحداث باحد أصدقائي ان يسأل السير بارثل عن سر اهتمام الحكومة للبريطانية المفاجىء بمصالحي، فاجابه الدبلوماسي الحصيف ان وراء ذلك ثلاثة اغراض :

الأول : اننا نسدي للسلطان خدمة يرتاح اليها .

الثاني : اننا نطمئن الأميرة إلى وضعها لفترة من الوقت .

الثالث : اننا نسلب من المستشار الالماني (بسمارك) حجة التدخل في هذه القضية .

وهي أسباب تبدو منطقية معقولة .

• • •

وتمسكا بوعدي فقد عملت على تجنب رؤية برغش في الأماكن العامة

كالمتاحف والحدائق وما اشبه، وذلك بالتزام البيت والامتناع عن الخروج منه ولكن مضيفتي أصرت على وجوب خروجي معها، لان صحتي المتداعية اصبحت احوج ما تكون إلى الحركة والهواء النقي، لذلك بدأت اقرأ الصحف لاعرف اماكن زياراته مقدما فأعمل على تجنبها فاذا ذهب السلطان شرقا رحت غربا وبالعكس. وقد فرضت هذا الاجراء على نفسي خشية الا استطيع ضبط نفسي من الاندفاع اليه اذا ما التقيت به في مكان ما، والا فلو وقع نظره علي فمن المستحيل ان يستطيع معرفتي وأنا باللباس الاوربي والذي لو بعثت امي المرحومة لما استطاعت ان تعرفني به، فكيف بأخ لم يرني الا بلباسي الشرقي ومن وراء حجاب.

• • •

وكان من الأفضل لي بالطبع ان اترك هذا المكان الذي شهد خيبة امالي وان اعود إلى المانيا حيث اطفالي الاعزاء واصدقائي الكرام.

ولكن هذا الخيار منع عني ايضاً وكان عليّ ان اظل نهب آلام مبرحة اسابيع واسابيع في بلد لا أعرف فيها احدا ولم الق فيها غير الخيبة والكمد والحرارة. فقد طلب اليّ السير بارثل ان اضع له مذكرة مفصلة في الموضوع ولعدم خبرتي في كتابة هذه التقارير الرسمية وعدم المامي باللغة ولتشتت افكاري وانهيار أعصابي وانقباض نفسي، وأملا في أن يعود هذا التقرير على قضيتي ببعض الخير، فقد طلبت إلى بعض أصدقائي كتابته نيابة عني، وبعد ان قدمته إلى السير بارثل غادرت لندن بعد سبع اسابيع حزينة النفس كسيرة الفؤاد ضائعة الأمل.

• • •

وكان البريطانيون قد بدأوا ينظرون إلى زنجبار على انها مستعمرة بريطانية مقبلة، لذلك فقد احيلت مذكرتي إلى حكومة الهند في بمباي. وبقيت اشهرا واشهرا اعيش في احلام النجاح وخيالات الثراء حتى جاءني الرد البريطاني عن طريق السفير الالماني في لندن، وكان الرد جافا مقتضبا ويتضمن رفض الحكومة البريطانية لطلبي الذي اصر السير بارثل على الاسراع في تقديمه، وكانت حجة الرفض انني الآن مواطنة المانية بسبب زواجي من الماني وعيشي في المانيا، ولهذا فان النظر في مطالبي من اختصاص السلطات الالمانية.

وكان هذا الرد ادنى ما يمكن ان يصل اليه الخلق وتبريره اوهى واسخف ما يمكن ان يتوصل اليه الفكر .

فليس مما يليق بدولة كبرى مثل بريطانيا ان تعامل امرأة وحيدة منكوبة مثلي هذه المعاملة الملتوية التي لا يرتضيها ادراك سليم ولا ضمير منصف وخاصة واني لم اطلب صدقة أو احسانا من هذه الحكومة او تلك وانما طلبت تأييدها المعنوي لقضيتي العادلة وحقوقي المشروعة . ثم انني لم اكتب هذه المذكرة الا باقتراح والحاح عليّ من السير بارتل فرير نفسه، ذلك الدبلوماسي البارع الذي أخذ عليّ موثقا بان امتنع عن رؤية اخي أو الاتصال به مقابل وعده بضمان رفاهية اولادي وعونهم . وكنت اتصور ان مذكرتي هذه ستكون وسيلتها إلى الوفاء بوعودها... واذا بالحكومة البريطانية تكتشف انني المانية .

وكيف اكتشفت ذلك ومتى ؟ هل كانت الحكومة البريطانية وممثلها السير بارتل فرير تجهل امر جنسيتي حين فاوضتني واغرتني بالوعود على مقاطعة اخي . ام انني حين كنت في مركز القوة وفي موقف القدرة على الاتصال باخي فانني لم اكن مواطنة المانية بل كنت امرأة مهمة لبريطانيا . فقد كنت آنذاك اخت السلطان القادرة على الاتصال به والاضرار بالمصالح البريطانية فاشتروني بالوعود والرشاوى، اما الآن وقد نفذوا مآربهم وعاد السلطان إلى بلاده ولم اعد استطيع الاضرار بمصالحهم فقد اكتشفوا انني مواطنة المانية .

ولم يعد السر خافياً في سبب هذه المعاملة غير الكريمة . فالسياسة لا اخلاق لها وقد كان دافع الحكومة البريطانية إلى منع اتصالي مع أخي السلطان برغش هو رغبتها في توريط برغش بتوقيع بعض الاتفاقيات التي عادت بالشؤم والبلاء على زنجبار، وكان السلطان يجهل أية لغة أجنبية ولا يستطيع ان يفهم الاعيب السياسة البريطانية لذلك كان جهد البريطانيين وهمهم ابقاؤه في الظلام وابعاد كل من يمكن ان يمحضه النصح والارشاد عنه لكي لا يتردد في توقيع ما طلب اليه توقيعه. لذلك ولمعرفتي البسيطة بالفكر الاوربي والسياسة العالمية فقد خشيت بريطانيا ان يؤدي قربي من أخي السلطان إلى افهامه مالا تريده ان يفهم وإلى معرفته ما لا

تريده ان يعرف من أشياء من صالح زنجبار ان يعرفها ولكن ليس من مصلحة بريطانيا ان يعرفها . على انني في الختام أود ان أميز بين الحكومة البريطانية والمجتمع البريطاني الذي لقيت منه اصدق العواطف والذي غمرني افراده بالفضل والمعروف والذي سأبقى مدينة لهم بالشكر وعرفان الجميل ما حييت .

• • •



أحد الأسواق التجارية في زنجبار

الفصل الخامس والعشرون

عود الى زنجبار

عندما كتبت الفصل السابق قبل عدة سنوات لم يكن يدر بخلدي ابدا ان حلم حياتي واملي العزيز الذي شغل ذهني وملأ قلبي كل هذه السنين الطوال سيتحقق يوما ما .

وقد كانت السنوات الطوال الحافلة بالاحداث والتي عشتها منذ ان تركت وطني في الجنوب فترة كفاح ونضال مررت خلالها بأقسى التجارب وأعنفها مما لا يتمناها المرء لاشد خصومه عداء والتي كانت حصيلتها نفسا مرهقا وجسما متعبا .

ولقد ساعدتني أول الامر بنيتي القوية على احتمال الشدائد والنوازل كما ساعدتني على احتمال قسوة الجو الشمالي الذي لم اعتد عليه من قبل .

لكن تعاقب المشاكل والصدمات هد من كياني واضر بصحتي فكان لا بد لي من تغيير الجو ، وبهذا عادت إلى منذ سنتين فكرة اصطحاب أولادي في زيارة للوطن الأول .

وقد حدثت ابنتيّ في الأمر فحذرتني احداهما من مغبة تكرار محاولة هذا الامر الذي لم يعد علينا في السابق بطائل ، في حين شجعتني الأخرى على المضي في تحقيق هذه الفكرة .

وقد بدأت العمل فعلا من جديد بعزم واستبسال ، ولقيت من السلطات الالمانية كل عون وتشجيع . ولكن رغم هذا وذاك فان الامر قد طال وتعقد حتى أوشكت ان افقد الامل منه من جديد .

وحين شارفت على اليأس او اوشكت وصلت الي على غير انتظار رسالة عاجلة من وزارة الخارجية الامبراطورية تطلب الي الاستعداد للسفر إلى زنجبار في موعد قريب. وكانت هذه الرسالة بالنسبة لي كأنها البشرى أو العيد فلا عجب اذا ما طار صوابي فرحا واستخفتني النشوة والانفعال . فالحمد لله على توفيقه وهدايته وشكرا لامبراطورنا العظيم المحبوب وحكومته الرشيدة الذين سأبقى وأولادي نذكر فضلهم بالامتنان العميق والعرفان بالجميل .

-ولا حاجة بي إلى سرد تفاصيل الاستعدادات اللازمة فهي أمر معروف لكل من جرب أمثال هذه الرحلة الطويلة المدى، كما لا لزوم لتكرار القول عن الجوانب السياسية لهذه الرحلة فقد أوفتها بحثا الصحف الصادرة تلك الأيام .

• • •

وفي اليوم الأول من شهر تموز عام ١٨٨٥ بدأنا رحلتنا الطويلة من برلين نحو بريسلو ثم فيينا ومنها إلى تريست التي وصلناها في اليوم الثالث من الشهر ومنها اقلعت بنا الباخرة فينوس في نفس اليوم . وكان الطقس رائعاً والبحر ساكنا فكانت رحلتنا هادئة ممتعة وكانت بهجة الاطفال بما يشهدوه تفوق الوصف والبيان، وكذلك كانت بهجتي فلم اتحرر من القلق والهم واشعر براحة البال التي افتقدتها مع الاسف طيلة السنوات الأخيرة الا بعد ان مخرت بنا الباخرة عباب اليم .

وتوقفنا صبيحة اليوم الخامس من الشهر في جزيرة كورفو حيث اتيح لنا بجولة قصيرة ان نتمتع برؤية أحلى مشاهد تلك الجزيرة الرائعة، ثم سارت بنا سفينتنا فمررنا على اثينا في جنوب اليونان ثم على كانديا ومنها اتجهنا صوب الاسكندرية في مصر .

• • •

وما أن وطأت قدماي ارض الاسكندرية وصرت بين مساجدها ومنائرها ونخيلها حتى طغى علي شعور غامر بالشوق والحنين للأهل والأوطان، شعور لا يعرفه الا من كابد مثلي الغربة عن بلده هذه السنين الطوال وشوق لا يحس به الا من عانى مثل الظروف النحسة التي عانيتها، فها هي عيناي تكتحل برؤية الجنوب

العزيز بعد غياب دام تسعة عشر عاما مليئة بالاوصاب والهموم وبلوعة الذكرى وحرقة الشوق والحنين. قضيت أكثر ايامها ولياليها الباردة أجالس موقد النار في بيتي.

فمع أني اصبحت مواطنة المانية من سكان هذا الشمال القارس البرد، ينوء كاهلي بالواجبات العديدة المتباينة التي تقوم بها ربات البيوت الالمانيات، الا انني خلال هذه المدة كلها كنت أعيش بأفكاري ومشاعري في الجنوب... بعيدا بعيدا جدا عن المكان الذي اسكن وأعيش فيه، فما من تسلية أو تزجية فراغ كانت افضل لي من الانكباب على قراءة كتاب يصف الجنوب أو يبحث عن احواله. ولهذا فلا عجب اذا ما ملك منظر الاسكندرية علي مشاعري واخرجني من طوري فوقفت اشهد مذهولة مسرورة ضجة الميناء وجلبته وكأنني في حلم لذيذ اخشى أن ينتهي.

وحين مررنا في دائرة الجمرك طلبوا الينا ابراز هوياتنا، ولكني قررت ان لا اكشف عن هويتي الحقيقية ما وسعني ذلك، فاستعرت من احدى رفيقات السفر هويتها وابرزتها للموظف المسؤول، فاكتفى بها وسط دهشتي واستغرابي.

وما ان خرجنا من دائرة الجمارك حتى اطبق علينا جمع من الناس غفير بحصار شديد يزهق الانفاس وكدنا ان نضيع وسط جلبتهم وضوضائهم، فقد احاط بنا عشرات العشرات من الرجال والفتيان يتصايحون ويتنابذون ويتخاصمون ويتشاتمون فيما بينهم وهم يعرضون علينا خدماتهم بالحاح يبلغ حد الاكراه.

ولم نستطع فك هذا الحصار المطبق وشق الطريق لانفسنا الا بمساعدة البوليس كما استطعنا بمساعدته وبشق الانفس الحصول على عربة تقلنا إلى الاوتيل.

ولم يخلو سيرنا في العربة من مفاجئات وفكاهات. ففي كل دقيقة واخرى، يقفز الينا احد الرجال عارضا خدماته علينا دليلا أو ترجمانا، ومنذرا بالويلات والمتاعب التي يلقاها من لا يتكلم العربية في البلاد، ولكني ما كنت ارد عليهم باللغة العربية حتى يولوا الادبار مذهولين.

وقد نزلنا في الاسكندرية في اوتيل بالغ الوساخة غالي للثمن وأمضينا فيها يومين

مرا كلمح البصر، وقد كنت اقضي جل وقتي في الاحياء العربية حيث اتمتع بجوها الشرقي العبق وعواطف أهلها الودودة، الذين كانوا يتأملوني في شك وريبة أول الأمر ولكني ما ان اتكلم العربية معهم حتى تنطلق اسارير وجوههم بالبشر والفرح فينطلقون معي في احاديث ودية. وكانوا يعجبون من اتقاني اللغة العربية ويسألونني « كيف تعلمت لغتنا بهذه الدرجة من الاتقان ؟ لا بد انك كنت في بغداد مدة طويلة ؟ ».

وكان الأسطى عبده سائق العربة التي استأجرناها فترة مكوثنا في الاسكندرية، رجلا طيبا محبا للحديث وللمزاح والانبساط، وكان ميالا الينا حتى انه عرض علينا أن يأتي معنا إلى المانيا خادما، وقد اقسم بشرفه ان يبقى لي مخلصا طيلة حياته وان لا يسرق قطرة واحدة من نبيذي. ولكن الرجل المسكين مني بخيبة امل كبيرة حين اعتذرت عن اصطحابه في نهاية اليومين.

ان الاسكندرية التي اشتهرت على مر العصور بعظمتها وجمالها قد غدت الآن خرائب واطلالا، بفضل « انسانية » الانكليز وحبهم نشر الحضارة والمدنية في كل مكان ! ؟. ولذلك يندر ان تجد بين المصريين من يحب الانكليز، وما عدا خديوي مصر ووزرائه – وكلهم من صنائع الانكليز – فالباقون من اهل مصر يكرهون الانكليز ويتناقلون عنهم في الشوارع والاسواق الذع التعليقات واشنع الشتائم. وقد سمعت بعضا منها بنفسي، وكنت اسأل دائماً عما اذا كنت انكليزية فلما اجيب باني المانية اشعر بالحال بتحسن معاملتهم نحوي وارتفاعي في نظرهم، ولم يكن هذا رأي المصريين وحدهم في الانكليز اذ ما كان رأي الجالية الاوربية في الاسكندرية فيهم بأطيب من ذلك.

• • •

ومن الاسكندرية انتقلنا إلى بور سعيد في سفرة استغرقت ثمانية عشر ساعة، حيث انتقلنا فيها إلى السفينة « ادلر » التابعة إلى الوحدة البحرية الالمانية في شرق افريقيا.

ومع أن بور سعيد بلدة صغيرة الا أن المتاجر فيها كثيرة بحيث يجد المرء فيها

كل ما يريد ويشتهي . وبور سعيد ايضا هي بداية الصحراء الواسعة التي تخترقها قناة السويس التي توصل البحر الابيض بالبحر الاحمر .

والقناة ضيقة جدا بحيث لا تتسع لمرور سفينتين في وقت واحد . ولهذا تقوم على مسافات متقاربة محطات لوقوف السفن الصاعدة ومثلها للسفن النازلة. حيث تقضي السفينة في كل محطة ساعة او ساعات تنتظر مرور للسفن الاخرى القادمة من الاتجاه الثاني .

ولا يستطيع السير في القناة الا الربابنة التي يعرفون مسالكها ودروبها . لذلك يصعد إلى ظهر السفن في بور سعيد ربابنة انجليز يقودون السفن اثناء سيرها في القناة . وقد اكسبهم التمرين المستمر والخبرة الطويلة معرفة دقيقة بشوؤن الملاحة في هذا الممر المائي الضيق، فهم يعرفون من الاشارات الطافية على سطح الماء، ما اذا كان عليهم المرور او الانتظار وما هي مدة الانتظار وكم عدد السفن العابرة في الاتجاه الثاني .

والسفن لا تمشي في القناة بكامل سرعتها خشية ان تؤدي قوة الامواج وتلاطمها على الشاطئين إلى انهيار جوانبهما الرملية . كما ويقف السير في القناة كلية اثناء الليل لانعدام القدرة على قراءة الاشارات.

وتعرض القناة عند مدينة السويس حيث تكون نهايتها ومدخلها إلى البحر الاحمر الذي ما ان تلجه السفن حتى تعود فتنطلق بأقصى سرعتها .

ومع أن حرارة الجو في القناة كانت مرهقة جدا الا انها في البحر الاحمر اكثر من ان تطاق . فكنا نتصبب عرقا ليل نهار ولم تكن انواء البحر لتسمح لنا بفتح نوافذ الغرف فكنا نضطر إلى قضاء الليل على ظهر السفينة على كراسي قلقة غير مريحة . وما كان هذا بالأمر الكثير الازعاج لي، فانا ابنة هذه الاجواء وقد طال اشتياقي لها بعد ان نخر برد الشمال عظامي طيلة هذه السنين ، ولكن الجو لم يرق لأولادي وكان اكثر من ان يطيقوه فاصيبوا بالتعب والارهاق .

• • •

واستمرت رحلتنا من بور سعيد إلى ميناء عدن سبعة ايام كاملة واقمنا في ميناء

عدن خمسة ايام قبل السماح لنا بمواصلة السفر . وما ان فارقنا هذا الميناء الصخري حتى كنا في مهب الرياح الجنوبية الغربية التي يسمونها الرياح الموسمية، وفي نفس المنطقة التي اغرقت الأعاصير فيها قبل اسابيع الباخرة الحربية « اوكستا »، وهبت علينا ريح عاتية لعبت بالسفينة يمنة ويسرة ثم صارت الريح اعصارا قويا مدمرا دام ثلاثة ايام بلياليها رأينا الموت فيها وجها لوجه من شدة الفزع والرهبة ومن شدة آلام الرأس والمعدة وارهاق البدن . فقد كانت سفينتنا خلال هذه الأيام الثلاثة كريشة في مهب الريح، فعلا وعملا لا وصفا وقولا، فكان الاعصار يرفعها إلى أعلى ثم يقذف بها إلى اسفل ثم إلى ذات اليمين أو ذات الشمال ونحن فيها اشباه اموات لا حول لنا ولا قوة تكاد امعاؤنا ان تتقطع وعقولنا ان تجن وأرواحنا ان تزهق . لا نملك من امرنا شيئاً الا الاستسلام للقدر وانتظار مشيئة الله.

واستمر الرزء اياما ثلاثا كانت اطول من دهور فلما طلع علينا اليوم الرابع خفت هذا الاعصار وان ظلت الرياح تلاعب السفينة بين الحين والآخر فتطوح بها يمينا وشمالا ولكن الامر على شدته لا يقاس بالهول الذي شهدناه .

• • •

والحمد لله في كل حال على حسن الختام . ففي اليوم الثاني من شهر آب بدت للعيان – ويا للفرحة – سواحل جزيرة بمبا، وهي على بعد ثلاثين ميلا من زنجبار وتقطع الباخرة المسافة بينهما بثلاث ساعات . ولكن حلول الليل حظر دخول الميناء في الظلال لوجود العوارض الرملية مما اضطر سفينتنا ان تقضي ليلتها في نورث كامب شمالي زنجبار .

ولم يغمض لي جفن طول الليل أو يستقر لي جنب فقد فاضت الذكريات وجاشت العواطف وازدحمت النفس بشتى الخواطر والانفعالات . واستيقظ أولادي في اليوم التالي مبكرين وحين خرجنا إلى سطح السفينة كانت السفينة تزحف رويداً رويدا نحو الميناء وكانت اسداف الظلمة تنزاح امام انوار الفجر فتنكشف للعيان اشجار النخيل في الافق البعيد وكأنها تتلع نحونا باجيادها لترنو الينا او لتحيينا من بعيد وكلما زدنا اقترابا من الشاطىء ظهرت البساتين الكثة الاشجار وتحتها قرى الزنوج مبعثرة هنا وهناك .

وقد سلب لبي هذا المنظر الرابع منظر البحر والفجر وارض الوطن العزيز وكان ارق الليل وفيض العاطفة وجيشان الفكر واضطرام الفؤاد قد جعل مني روحا رقيقا شفافا فرحت اتأمل المنظر حتى غبت عن الوجود في تأملات وذكريات فانهالت امام ناظري صور طفولتي وشبابي في هذه الأوطان ثم ما جرى لي بعد ذلك من غرائب الاحداث وصروف الزمان فعجبت لتفاهة الانسان في هذا الكون ولغرابة الصدف في هذه الحياة. فالمرء في هذه الحياة لا يملك من أمر نفسه شيئاً ولا يعرف ما يضمر له الغد من غير واحداث.

فهنا ولدت ونشأت عربية مسلمة وفي أعز دار، ثم حكمت الظروف علي بالهجرة إلى بلاد لم اكن قد سمعت بها او رأيتها من قبل، وها أنا اعود إلى بلادي نصف مسيحية ونصف المانية ومن غرائب الصدف ان تكون عودتي إلى وطني بعد هذا الاغتراب الطويل في نفس الشهر الذي غادرته فيه قبل تسعة عشرة عاما، ولعل الاغرب ان يتفق هذا اليوم يوم وصولي زنجبار مع نفس اليوم بل ونفس الساعة التي توفي فيها زوجي قبل خمسة عشر عاما.

وقد شهد اولادي ذهولي وانشغال بالي فظلوا ينظرون الي بصمت وتقدير ولم يقطعوا علي حبل افكاري. ولكن عيونهم الذكية اللماعة كانت تفيض حبا وحنانا واني لاحمد الله تعالى ان وهبني هؤلاء الأولاد سلوى وقرة عين بعد ان سلبتني الحياة اعز ما املك.

• • •

وكان الميناء يبدو من بعيد وكأنه غابة من الصواري والاشرعة. فقد سبقتنا إلى الوصول اربع قطع من الاسطول الالماني الشرقي والتي تشكل باخرتنا ادلر قطعة منه، ثم هناك باخرتان كبيرتان تابعتان للاسطول البريطاني وخمس سفن من سفن السلطان وعدد لا يحصى من المراكب الشراعية الصغيرة والكبيره.

ولم يشأ الكومودور باسجن ربان باخرتنا ان يسمح لي بالنزول إلى المدينة وانما اراد أن يعتبرني — على حد قوله — «حمولة سرية» وهي تسمية اثارت التنكيت

والاستهزاء . لكن وصول الاميرال كنور على ظهر الباخرة الحربية بسمارك اصلح الامور وأعاد لي حريتي في النزول إلى المدينة وقت ما أشاء [1] .

وقد نزلت إلى المدينة وتجولت في انحائها . وكان مجرد وجودي ثانية على ارض بلدي وتجوالي في شوارعه مبعثا لشتى الانفعالات والاحاسيس .

لكن اقوى هذه الاحاسيس اثارة كان شعوري بالغرابة والدهشة لقدرتي على السير في شوارع المدينة في وضح النهار وبرفقة جمع من الرجال. وأنا التي اعتدت ألا اخرج إلى هذه الشوارع الا محجبة الوجه ملفوفة الجسم وتحت جنح الظلام وبين صفوف من الحراس العبيد . وكنت اظن ان حياتي تسعة عشر عاما في اوربا قد انستني هذا الماضي وعودتني على الحياة الجديدة، لكن تجوالي في شوارع زنجبار اشعرني من جديد بتحرري بشكل لم أكن اشعر به من قبل حتى في خلال زيارتين سابقتين قمت بهما إلى مصر .

ومنذ جولتي الاولى في شوارع المدينة بدأ الناس يتجمهرون حولي ويحيطون بي من كل جهة ويرافقونني إلى كل مكان . وكنت المح في عيونهم وعلى وجوههم علائم حنان عميق ولهفة مكبوتة ودهشة واضحة . ولم يستطع بعضهم كتم عواطفهم فكانوا يسلمون عليّ بالعربية او السواحلية ويسألونني عن صحتي ويؤدون لي مظاهر الاحترام والتقدير . وبمرور الأيام بدا هذا الجمع المرافق لنا – باختياره– يزداد عدده ويطغى حماسة وبعمق وداده، ولم يكن هذا في طبيعة الحال مما يرضي السلطان ومستشاره السياسي القنصل البريطاني العام .

وقد عمد السلطان إلى ايقاع اقصى العقاب كالحبس والجلد ببعض المساكين الأبرياء ممن كانوا يرافقون مسيرتنا . ولم يكتف بذلك بل اشتكى هو والقنصل البريطاني العام لدى قائد الوحدة البحرية الالمانية من التظاهرات التي ترافق جولاتي في المدينة .

---

(١) لم يشأ ربان الباخرة الافصاح عن وجود الأميرة في باخرته، لكن عيون القنصل الانكليزي اكتشفت وجودها . وان الربان أراد اخفاء وجودها لان الغرض من ذهابها إلى زنجبار كان غرضاً سياسياً اسلفنا القول عنه في المقدمة .

وعند سماعي هذه الأخبار، واشفاقا مني على هؤلاء الابرياء الطيبين فقد حذرتهم من مرافقتي ورجوت اليهم الامتناع عنها، الا انهم اجابوا ان ما من عقاب يستطيع ان يصدهم عن اظهار شعورهم بالولاء والوفاء نحوي.

وكان العبيد يحملون الي اخبار اخوتي واخواتي واقاربي واصدقائي، وينقلون الي تحياتهم واستمرار ودهم واخلاصهم وان دورهم مفتوحة امامي وانهم يرغبون في زيارتي على ظهر الباخرة وكان بعض هؤلاء العبيد يحملون الي معهم رسائل مكتوبة من بعض اخواتي، وكانوا يخفون الرسائل تحت عمائمهم ثم يلسونها في يدي على حين غفلة من العيون. وكانت رسائل اخواتي تفيض شوقا ولوعة وحنينا يطلبن الي ان أزورهن في بيوتهن.

ولكنني كنت ارفض الاستجابة لهذه النداءات او تلك، لا عن جفاء أو بل نزولا عند حكم الظروف السائدة وابعادا للطرفين عن المشاكل والمتاعب.

وفي اثناء تجوالي في المدينة، كنت المح السيدات يتجمعن خلف أبواب دورهن ليلقين الي بالتحية او بكلمات الاعجاب والتشجيع.

وكنا اذا مررنا بالزوارق امام القصر، او سرنا تحت نوافذ غرف الحريم السلطاني، نشاهد نساء السلطان يلوحن الينا بأيديهن بالتحية والسلام. وكنت ارجو من معي من ضباط وبحارة ان يتجاهلوا هذه الاشارات والا يردوا التحية بمثلها، وكنت بدوري أتجنب النظر صوب القصور، وذلك من اجل سلامة هاته النسوة الطيبات وانقاذهن من عقاب مميت. فقد كان يلذ لسيدهن السلطان ان يخفي نفسه في مكان ما في القصر يستطيع منه ان يراقب النسوة المتفرجات على البحر أو الشارع، فاذا بدرت من احداهن اشارة بريئة أو تحية مجاملة عابرة فالويل كل الويل لهذه المسكينة من عقاب سيدها السلطان.

وليس في هذا الكلام تلفيق او اختلاق، بل هو حقيقة واقعة يعرفها الجميع بل ويعرفها الاوربيون الساكنون في زنجبار حق المعرفة.

ومن الحكايات المشهورة في هذا الصدد القصة التي وقعت احداثها في السنة السابقة على وصولي إلى زنجبار، فقد لمح السلطان وهو في مرصده السري احدى

محظياته الشركسيات، وكانت على جانب كبير من الملاحة والجمال – تلوح بالتحية إلى بحار برتغالي كان يمر بزورقه امام القصر .

ولم يكن في عمل هذه السيدة ما يستوجب الشك والمؤاخذة فالعقاب. اذ اذكر اننا كنا – ايام طفولتي قبل ثلاثين عاما – نتقبل سلام الضباط والبحارة الانكليز والفرنسيين ونرد عليهم تحيتهم بالشكر، ولم تثر تصرفاتنا هذه اعتراض احد من سادتنا .

لكن للسيد برغش رأيا آخر في الموضوع فقد ذهب إلى حسنائه الشركسية وبدأ يجلدها بالسوط عن ذنب لا وجود له، وبقسوة متناهية لم تحتملها فاسلمت الروح بعد ايام قلائل . وقد قيل انه ندم على فعلته بعد أن رأى شناعة نتيجتها وبشاعة جريمته فأقبل على ضحيته يطلب منها الصفح والغفران فابتهما عليه حتى اسلمت الروح، وتكفيراً عن ذنبه فانه ما زال يقيم على قبرها تلاوة القرآن يوميا .

ورغم اشتهار السلطان بالقسوه وشدة العقاب فان ذلك لم يمنع الناس من استمرار توددهم الي واظهار شعورهم نحوي، ولعل مما كان يغيظ السلطان ان يسمع الجماهير تهتف لي « كواهيري بيبي... كواهيري بيبي » اي مع السلامة سيدتي، يهتفون بها تحت نوافذ غرف قصره كلما ركبنا زوارقنا عائدين إلى السفينة.

ومن الطبيعي أن ينطلق في اثرنا الجواسيس والمخبرون، وكان جل هؤلاء من الهندوس والذين لا يستطيعون ان يفهموا عنا شيئاً لاننا نتكلم الالمانية التي لا يفهمون منها حرفا . وفي الليلة السابقة على يوم رحيلي تسلل إلى السفينة تحت جنح الظلام اثنان من اصدقائي لتوديعي، وجلبا انتباهي إلى رجل ضئيل الحجم كان يتردد كثيراً على باخرتنا كبائع متجول واخبراني انه جاسوس بيرادوجي الذي اصبح الآن رجل القصر الاول في حين كان في أول امره حلاقا ومنظفا للمصابيح في القصر .

وبيرادوجي هذا هندوسي خبيث الطبع وضيع الأصل وضع نفسه تحت تصرف السلطان خادما وضيعا حتى غدا رجل السلطان الاول الذي ينهض عنه بالامور جميعها صغيرة وكبيرة من المفاوضات الدبلوماسية إلى الخدمة على مائدة الطعام .

ويتقاضى بيرادوجي راتبا قدره ثلاثون دولارا في الشهر فقط وهو باعتراف الجميع مبلغ ضئيل لا يكفي نفقات عيشه البذخ ولباسه النفيس، ومن الطبيعي بعد هذا ان يتلفت هذا الهندوسي يمنة وشمالا للبحث عن موارد جديدة بالحرام وكان يستغل لهذا الغرض نفوذه الواسع عند السلطان ليوقع اشد الأذى بمن يتأخر عن تلبية مطاليبه فمن ذلك مثلا ان مجهز القصر بالجواهر رفض ان يدفع إلى موظف المصابيح هذا عمولة على مشتريات السلطان، فاقنع بيرادوجي السلطان بالتحول عن هذا الجوهري إلى آخر اكثر استجابة لمطالب بيرا من الأول .

• • •

ومن غرائب الصدف أن يقع عيد ميلادي في هذه الأيام وان احتفل به على ظهر سفينتنا، وهذه اول مرة احتفل فيها بعيد ميلادي في زنجبار اذ ليس من عادة بني قومي الاحتفال في هذه المناسبات .

• • •

وتبدو مدينة زنجبار من البحر اكثر جمالا مما كانت عليه من قبل . فقد بنيت فيها عدة بيوت جديدة ومما زاد من جمال منظرها الفنار القائم امام القصر والمضاء بالكهرباء والذي يصفه ضباط بحارته بانه « شجرة عيد الميلاد السلطانيه» لكثرة مصابيحه .

ولكن يتراءى لي — ولعل هذا من اثر اقامتي الطويلة في اوربا — ان داخل المدينة قد ساء امره واصبح في حال يرثى له من الخراب والاهمال فالخرائب تنتشر في شوارع المدينة الضيقة والوسخة وقد نما عليها العشب والحشيش بل ونبتت بها بعض الشجيرات ايضا . ولا تجد من يلتفت إلى هذا الحال أو يكترث بها بل يمر الناس بها وكأنها امر غير ذي بال . ويبدو ان انشاء مجلس بلدي ليس بالأمر اليسير والا لاستطاع السلطان ان يعالج الاحوال وخاصة وانه شاهد نظافة المدن وشوارعها في بمباى ولندن وباريس . على انه ادخل إلى البلاد معملا لصنع الثلج ومحطة للكهرباء والقطار واشياء اخرى ليس اقلها الطباخون الفرنسيون ولا الاطباق الفرنسية .

ولقد صدمني سوء حال المدينة وخرابها وآلمني اشد الألم ولم اكن ادري ان صدمتي ستكون اشد وآلمي اكثر حين ارى قصري الحبيب بيت الموتني ، ولكنني حين زرت مسقط رأسي وملعب طفولتي ورأيت ما حل به من خراب تقطعت نياط قلبي واحسست بغصة الفجيعة والفقدان .

فقد تحول البيت المنيف إلى ركام واطلال فقد زال احد السلالم من مكانه نهائيا وأوشك الآخر على الانهيار . والجدران قد انهد بعضها وبعضها الآخر مائل للانهدام، اما باحة الاستحمام فقد طارت عن الحمامات سقوفها وانهارت جدرانها و امتلأت ساحاتها بالنفايات والأوساخ ونبتت فيها الحشائش . ولم يبق ما يذكر المشاهد بعظمة القصر السابقة و مجده الغابر ، ولم اجد لي منقذا من الحزن والذهول اللذين اطبقا عليّ الا مغادرة المكان .

وعند مغادرتنا القصر تقدم منا شاب عربي وسيم الخلقة حسن المظهر وقدم الينا نفسه على انه رئيس الحرس . وقد اصطحبنا إلى زوارقنا . وعند مرورنا على نهر الموتني وجدت رجلا اعمى يتوضأ من ماء النهر . ولم يكن من عادتي منذ أن وصلت إلى زنجبار ان أبدأ الناس بالسلام او الكلام، ولكني رأيت ان أكسر القاعدة مع هذا الرجل الاعمى، فسلمت عليه دون أن اقترب منه كثيراً لئلا اقطع عليه وضوءه أو افسده بصفة كوني مسيحية، ولكنه ما ان سمع صوتي حتى مد اليّ يديه واخذ يدي ورفعها إلى شفتيه وقبلهما ثم وضعهما على وجهه بكل حرارة وشوق . ومع تأثري البالغ بهذه العواطف فقد خشيت ان يكون الرجل قد اخطأ في معرفتي فسألته ان كان يدري من انا فأجاب، انت سيدتي سالمة، التي طالما حملتك وانت طفلة بيدي هاتين واستمر هذا الرجل الاعمى الطيب يحييني في كلمات ودية رقيقة .

وقد اخبرني الضابط المرافق ان الرجل هو المؤذن في مسجد بيت الموتني وقد عينه السلطان مؤخرا لقراءة القرآن على قبر علي بن سعود الذي اذاقه السلطان شر العذاب في حياته .

وقد اثار كلام الضابط شجوني وذكرني بما كنت اعرفه من قسوة برغش ولؤمه تجاه علي بن سعود وخالته اختنا الكبرى رحه .

فقد كان علي – كما يذكر القراء – ابن اكبر اخواتنا زينة، وكانت رجة الاخت الشقيقة لامه، وقد نزحت الينا من مسقط منذ زمن طويل فاقطعها السلطان بيتا واجرى عليها راتبا .

وكان علي – الذي صب عليه برغش جام حقده وبغضه دون ما سبب – قد سقط طريح الفراش في بيت الموتني في مرضه العضال الذي اودى به، ولم يكن له زوج أو بنت لتعنى به فكان من الطبيعي لرجه ان تعنى بابن اختها وتسهر على راحته في فراش مرضه .

لكن برغش الذي لا يعرف قلبه الرحمة ولا الشفقة ولا يفهم لعواطف الود والحنان معنى والذي أعماه حقده الاسود ونفسه المريضة، أغاظه تصرف اخته تجاه علي، ولكي يظهر نقمته وسطوته لاكبر اخواته والتي ربما تكبر امه عمرا، فقد قطع عنها راتبها وجردها في اخريات عمرها من دارها .

ولما توفي علي لم يظهر برغش في تشييع جنازته وهو امر لا يقدم عليه المرء حتى مع اشد خصومه عداوة ... ولكنه الآن يأمر بقراءة القرآن واقامة الصلاة على قبر علي ... فيا للمكر والخداع .

وما دمت قد تطرقت إلى الكلام عن رأس عائلتنا في زنجبار أخي السيد برغش، فأجد لزاما ان ازيح الستار عن بعض اعماله الأخرى، وانه ليسوئني – والحق – ان اندد علنا بفرد من عائلتي هو أخي وهو الآن رأس العائلة وسلطان البلاد، فرغم سنين الفرقة والبعاد عن اهلي وبلادي ورغم قسوة برغش تجاهي وحقده ضدي ومعاملته غير الانسانية لي، انا التي ضحيت يوما ما بمالي وحياتي في سبيل انجاح قضيته وتنصيبه سلطانا، على الرغم من كل هذا فانا ما ازال أحمل بين جنبي قلبا يضطرم بالحنان والوفاء لاهلي وبني قومي ويحترم ذكراهم ويمنعني من التنديد بهم لو لم يكن المقصود هو برغش نفسه الذي لا يحمل أية عاطفة لأي من أهله وبني قرباه .

فمن قصصه الشائعة في زنجبار ما فعله بأخينا خليفة، وهو اكبر الموجودين في زنجبار من ابناء ابينا بعد برغش والمرشح الطبيعي بعده للسلطنة، لذلك فما أن

تولى برغش عرش البلاد عام ١٨٧٠ حتى رمى بأخيه هذا إلى غياهب السجن دون سبب أو مبرر الا أن يكون خوفه من أن يعمد خليفة – وهو خليفته وولي عهده إلى استعجال الامور فيتآمر ضده كما اراد هو ان يستعجل الامور فتآمر ضد أخيه ماجد .

وظل الأخ المسكين يرسف بالقيود والاغلال ثلاث سنوات طوال دون ان يعرف السبب ودون ان يتحرك خلالها قلب اخيه بالرحمة والاشفاق .

ثم اضطر إلى اخلاء سبيله اضطرارا، فقد انتوت احدى اخواتنا التي ذاقت نفسها الكثير من جور برغش وقسوته – الذهاب إلى اداء فريضة الحج في مكة، فتيقظ ضمير السلطان فجأة فجاءها مستعطفا منها الصفح والغفران لتذكره بالخير في بيت الله وامام قبر الرسول . الا أنها ابت ان تغفر له اثامه معها ما لم يطلق سراح اخيهما خليفة (١) .

وقد اطلق سراحه فعلا ولكنه ظل يراقبه ورفاقه ويرصد حركاتهم، وسرعان ما اكتشف ان لأخيه صديقاً مخلصا وثريا في نفس الوقت، ولاشك ان الذاكرة عادت بالسيد برغش إلى ايام مؤامرته على اخيه ماجد وما عادت عليه روابطه بالرؤساء الأغنياء من نفع وغنائم . لذلك قرر ان يحرم خليفته على العرش من مثل هذا الولاء المدعوم بالمال . لهذا فقد ارسل على صديق اخيه وقال له :

« انني سمعت انك تنوي بيع مزارعك لذلك خبرني عن الثمن الذي تريده فانني اريد شراءها » .

و لكن الرجل اجابه : – لا بد ان هناك خطأ ما يا سيدي فأنا لم افكر مطلقا في بيع املاكي : ولكن السلطان رد عليه « ان من مصلحتك ان تبيعني اراضيك وارجو ان تفكر في الامر مليا » .

وبعد ايام قلائل دعي الرجل ثانية إلى حضرة السلطان الذي بادره بالسؤال عن

---

(١) وبلغ من حقد السيد برغش انه لم يكلم أخاه ماجد منذ عودته من منفاه، لكنه لما سمع بخبر وفاته ذهب إلى غرفته ورفع الغطاء عن وجهه ليتأكد من وفاته وكانت علامات الشماتة واضحة على ملامحه .

الثمن الذي يريده لأملاكه، وأعاد الرجل تأكيده بانه لا يفكر في مثل هذا البيع مطلقاً، ولكن جاءه الرد الحاسم من السلطان: « ليس لنواياك أية أهمية في تقرير الأمر . بل اني ادفع لك عنها ٥٠ الف دولار وهاك امرا لاستلام المبلغ ».

وبقلب كسير ملوْه الحسرة والألم سلم الرجل السيء الحظ امره لله وخرج من القصر ليجد بانتظاره مفاجأة اخرى اشد واعظم، ذلك انه لما ذهب لصرف الامر السلطاني واستلام الثمن اخبره الموظف المسؤول ان المبلغ سوف يدفع له بعشرين قسطا سنويا وان ما يستحقه الآن هو القسط الاول فقط وقدره الفان وخمسماية دولار . فانهار الرجل وتحطم وهو بالضبط ما كان يهدف اليه السلطان .

وهناك حادثة أخرى يحمر وجهي خجلا وتمتلىء نفسي حسرة والما وأنا أرويها، تلك هي هي قصة احدى اخواتي التي تقدم لخطبتها احد الرجال المعروفين فرفض السيد برغش تزويجها له، ثم سرت اشاعة مغرضة كاذبة عن علاقة حب بين اختي وهذا الرجل، فذهب السلطان إلى اخته وواجهها بالتهمة فحاولت عبثا ان تثبت له جهلها التام بالموضوع وبراءتها المطلقة من كل ما يقال حولها . ولكن هذا الأخ الرقيق القلب الحريص على واجبات الاخوة والقائم على واجبات الامانة انهال بيده الكريمة على اخته البريئة بخمسين سوطا تركتها ركاما محطم الجسم والنفس، وما زالت منذ سنين طريحة الفراش تقاسي بصمت آلامها المبرحة في ظاهر جسمها وفي مكنون نفسها، ولعلها حين تموت ان يأمر الأخ الكريم فيقيم على قبرها الصلاة وتلاوة القرآن كما فعل مع زوجته الشركسية او ابن اخته علي بن سعود (١) .

---

(١) كانت نهاية برغش مؤلمة أيضا. فقد انهكه انهماكه في ملاذه الجسدية وكان له سبعون جارية من الأحباش والشركس وزوجة شرعية واحدة هي السيدة موزة بنت حمد بن سالم أخ السيد سعيد بن سلطان . وأصيب بداء السل فلما اشتد به الداء قيل له ان في احدى بلاد عمان عين ماء حار كل من استحم منها يجد الشفاء من هذا الداء . وسار السيد برغش إلى عمان واستحم في ماء العين فلم يجد فيها نفعا فعاد بمركبه ورسى بمسقط فلما رأى اخوه تركي حال أخيه أراد أن يحجر عليه ويمتقل مركبه ولم يكن السيد برغش من شدة المرض يفهم ما يدور حوله ولكن زوجه رأت ضعف حاله وعلمت بنيات أخيه فأمرت ربان الباخرة بالاقلاع فجأة ودون علم من أي أحد .

وفي عرض البحر في الطريق إلى زنجبار وافاه أجله ودفن في زنجبار .

وبعد ما تقدم فلعل القارىء، حين يقرأ أو يسمع ما يغدقه الاوربيون من المديح عن سلوك هذا السلطان ورقة طبعه وطيبة خلقه، ان يتذكر هذه القصص ليحكم بنفسه على حقيقة هذا الرجل وحقيقة ما ينثره الاوربيون حوله من ثناء ومديح وهو لا يكره احدا او شيئا – على كثرة ما يكره ومن يكره – مثل كرهه لكل من هو اوربي يستوي في ذلك الانكليز والالمان وبقية الامم كلها .

• • •

ومن المفهوم بعد ما تقدم ان لا اتوقع خيرا أو انصافا من أخي السلطان بخصوص طلباتي الخاصة . ولا عجب ان ارجع من زنجبار خالية الوفاض لم اتسلم شيئا من حقوقي المشروعة فيها . ولا صحة ابدا بطبيعة الحال لما نشرته الصحف من قصص خيالية موضوعة عن الثروات الخيالية التي عدت بها إلى المانيا نتيجة استلامي اثمان كافة املاكي التي ورثتها عن ابي ومن بينها ثمن ثمان وعشرين دارا . فالحقيقة اني لم استلم فلسا واحدا قط . فان طلباتي التي اعترف بأحقيتها القنصل البريطاني العام نفسه – وانه لامر لو تعلمون عظيم – ما زالت معلقة لم يبت فيها حتى اليوم .

ان المبلغ « العظيم » الذي عرضه عليّ أخي « الشهم الجواد » كتسوية نهائية لكل حقوقي، هو ستة آلاف روبية وقد رفضته رفضا نهائيا مع الشكر وبكل اباء[1] فهو لا يساوي عشر معشار ما اطالب به شرعا وقانونا . فمنذ ان تولى برغش عرش السلطنة توفي خمسة من اخوتي وخمس من اخواتي وعمتي عائشة وثلاث من بنات الاخوة وأحد ابناء اخوتي، واحدى زوجات ابي الثريات . وخلف جميع هؤلاء اموالا طائلة وانا أرث شرعا في تركاتهم جميعاً[2] .

ولقد تذرع السلطان بحجج باطلة وتافهة لرفض التسوية التي اقترحتها عليه

---

(١) طالبت السيدة سالمة بمبلغ ٢٠ الف باون استرليني تعويضاً عن مطالبها ولكن الادميرال الالماني نزل بالمبلغ إلى ستة آلاف باون فقط في حين لم يرض السيد برغش ان يدفع اكثر من ستمائة باون .

(٢) بعد ان اصبحت السيدة سالمة مسيحية فانها شرعا لا ترث اخوانها واخواتها .

الحكومة الالمانية . ولعل سروره قد بلغ حده الآن حين طغت على مصلحتها في قضيتي مصالحها السياسية في المنطقة .

ولا بد لي هنا ان اروي قصة اخرى عن الدبلوماسية الانكليزية تدل على حصافتها « المؤسفة » . فمن المعروف لكل فرد في زنجبار ان سلطة السلطان قاصرة على توافه الأشياء، اما القول الفصل في الامور الهامة فهو بيد القنصل البريطاني العام الذي يعترف له الجميع – بما فيهم اعداؤه – بانه دبلوماسي حصيف من الطراز الأول . وقد وعد هذا الرجل ان يطلب موعدا لمقابلة السلطان ليعرض عليه قضيتي التي اعتقد بمشروعيتها والظاهر انني ما ازال غرة جاهلة بالأساليب واللغة الدبلوماسية كما كنت قبل عشر سنين لذلك فقد صدقت ما قاله القنصل البريطاني لاحد ضباط الاسطول الالماني عن اسفه لعدم استطاعته ان يعمل شيئاً في قضيتي لانه لم يجد لسوء الحظ أية فرصة لمقابلة السلطان وبحث قضيتي معه.

ولكن سرعان ما انكشف لي جهلي وطيبة قلبي حين علمت ان القنصل المذكور قد قضى الاسبوعين السابقين على هذا الحديث مع السلطان في احد مزارعه . عدا عما يتحدث به الناس عن وجود خط تلفون مباشر يربط قصر صاحب العظمة السلطان بقنصلية صاحبة الجلالة البريطانية .

• • •

ولم يترك السلطان وسيلة الا واستعملها ضدي فقد طلب الي رفاق سفري ان اساعدهم في شراء بعض الحلي لزوجاتهم فترددت واياهم على دكان احد الصاغة، فلما وصل خبر ذلك للسلطان عن طريق رجله الاول بيرا دوجي، ارسل في طلب الصائغ وصب عليه جام حقده وغضبه لان الصائغ رضي ان يستقبلني في دكانه ويبيعني بعض الأشياء . الا أن الصائغ اجاب ببراءة بانه لا يستطيع ان يطرد من من دكانه اخت السلطان مما اثار المزيد من غضب السلطان فهدده بغلق متجره واخراجه خارج البلاد فما كان من الصائغ الجريء الا أن رد عليه انه يفضل غلق المحل وترك البلاد على أن يعرضني لأية اهانة .

ونزل السلطان إلى مستوى اقل من هذا بكثير فقد امر بسجن عبيدي الذين جاءوني مسلمين عندما علموا بوصولي زنجبار .

الا أن اجراءاته وتصرفاته كانت مثار النقمة والاستهزاء ضده ولم يحاول الناس اخفاء شعورهم العدائي نحوه اذ كانوا يغنون اذا ما شاهدوني :

« بيجا كانا كاسي جاواتوتو بيبي » أي « لا تعتبي عليه يا سيلتي فانه يتصرف كالأطفال » .

ولم أكن حين وصلت زنجبار في شك من طبيعة الاستقبال الذي سألقاه من أخي السلطان، ولكنني كنت واثقة ايضا ان اخي لا يستطيع ان يهمل تنفيذ الرغبات الواضحة للحكومة الالمانية . ولم اكن مخطئة في تقديري فهو على الاقل قد احتمل وجودي في زنجبار، احتراما لهم، ولا يمكن ان اتوقع منه اكثر من ذلك بعد الذي سمعته ورأيته من سوء معاملته لاخوتي واخواتي الموجودين معه في زنجبار .

أما بقية الناس فقد تلقوا خبر وصولي بالترحاب واحاطوني مدة بقائي بكل عواطف الاخوة والوداد وهذا ما سأبقى اذكره لهم بكل اعتزاز وامتنان، فالعرب والهندوس والبانيان وكل ابناء البلاد اشتركوا سوية في الرجاء الي ان أبقى وأولادي في زنجبار نقضي فيها بقية حياتنا .

وقد تعمدت مرة في حديثي مع اثنين مع اقاربي ان اتجاهل رابطة القربى بيننا ولكنهما ذكراني بها وعتبا علي لجهلي أو تجاهلي بها . فبينت لهم ان تجاهلي للأمر كان متعمدا لان اكثر اقاربي ليسوا على وئام معي. فأجابا بلسان واحد بانهما لا يضمران لي الا الاحترام والتقدير فعلى الرغم من كل ما حدث فانني ما ازال ابنة السيد سعيد . اما عن تغيير الدين فقد قالا انه امر مكتوب علي منذ البداية، وكذلك فان هروبي من زنجبار وعودتي اليها كلها امور مقسومة بارادة الله . ثم سألاني ان ابقى وأولادي في زنجبار .

وفي هذا الحديث الدلالة كل الدلالة على انتفاء التحيز الديني عند هؤلاء القوم.

ان مظاهر الوداد والوفاء التي احاطت بي من جميع الاهل والاصدقاء وابناء البلد مع النعمة الوافرة باكتحال عيني برؤية وطني العزيز مرة ثانية قد جعلت رحلتي هذه

حدثا سعيدا سابقى اذكره بالسعادة والغبطة والحبور على مدى الأيام وليس لي الا أن اكرر الشكر والحمد لله تعالى على كبير نعمته وواسع رحمته .

ولكن ساعة العودة والرحيل قد آنت وكانت ساعة اليمة مليئة بالغصة والالم بالنسبة لي وبالنسبة لاصدقائي القلائل الذي آلمهم الوداع كما آلمني وبرح بهم البين كما برح بي وأرى ان خير ما اختم به هذا الفصل وهذا الكتاب كله هو نشر بعض رسائل وداعهم شعرا ونثرا في لغتنا العربية الجميلة او في اللغة السواحلية :

ايها النازحون عنا في سفينتكم عودوا الينا فمكانكم مهجة القلب ومقلة العين.

لو كنت اعلم قبل البين عزمكم ، على النوى ، لسار فؤادي خلفكم تبعا ، وصارت عيوني للحبيب هدية وصارت روحي له الفداء .

ايها الراحلون عنا قد سلبتم منا الروح ومزقتم الجسد ولم تبق لي الا الدموع تجري كأمواج البحر .

ايها السفين النازح رويدا تمنيت ان اكون طيرا فأطير حواليك ولكن كيف يطير الطير وقد هاض منه الجناح .

الهي يا رب العالمين اجمعنا ثانية قبل المماة أو دع ارواحنا تلتقي في جنات سمائك .

• • •

فهرست الكتاب

أ – فهرست المواضيع

صفحة

ب – فهرست الصور

ص.ب : ٦٦٨-الرمز البريدي : ١٣٣ مسقط
سلطنة عُمان
رقم الإيداع : ٢٤٣ / ٩٤